

رواية

فريا سامبسون

المكتبة

الأخيرة

ترجمة: شريف حمدي مكتبة ١٠٦٣

هدية إلى زائر النور.. جالب الصباح

وإلى Asmaa Ali

قارئة أفضل من جون بطلة الحكاية

مكتبة | سر من قرأ

t.me/soramnqraa

فريا سامسون

المكتبة الأخيرة

الكتاب: المكتبة الأخيرة ، رواية

تأليف: فريا سامسون

ترجمة: شريف حمدي

عدد الصفحات: 304 صفحة

مكتبة

t.me/soramnqraa

٢٠٢٢ ١٢ ٢٥

الترقيم الدولي: 978-9938-941-77-7

رقم الناشر: 22/318-182

الطبعة الأولى: 2022

هذه ترجمة مرخصة لرواية:

THE LAST LIBRARY

by Freya Sampson

Copyright © 2021 Freya Kocen

All rights reserved

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2022

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

فريا سامسون

#1063

المكتبة الأخيرة

رواية

ترجمة

لتتريف حمدي

مكتبة | سُرَمَن قَرَأَ

t.me/soramnqraa



الفصل الأول

يمكنك أن تعرف عن الناس الكثير من نوعية الكتب التي يستعبرونها. كانت جون تحب أن تلعب لعبة، حين تهدأ الأجواء في عملها في المكتبة، فتنتقي أحد الزوار وتبتكر له سيرة حياة من الكتب التي يقرأها. ها هي اليوم قد اختارت سيدة في منتصف العمر استعارت اثنتين من روايات دانييل ستيل، علاوة على دليلك السريع إلى آيسلندا. بعد شيء من التدبر قررت جون أن المرأة أسيرة زيجة خالية من الحب، مع زوج لعله جلفٌ عدوانيٌّ، وهي تخطط للفرار إلى ريكيافيك حيث تقع في غرام رجل ملتج صخري الملامح من أبناء المدينة. ولكن بمجرد أن تظن بأنها وجدت السعادة الحقيقية، سيأتي زوجها خلفها ويعلن أن - «ما هذا إلا هراء في هراء».

فزعت جون من حلم يقظتها على مسز برانزورث، الواقفة أمام مكتبها تلوح في وجهها بكتاب. والكتاب هو بقايا اليوم لكازوو إيشيغورو. «كومة من الزباله لا أكثر ولا أقل. سادة وخدم؟ بل قل لي دعاية رأسمالية. لو كتبه أنا لخرج بشكل أفضل».

كانت مسز ب. تزور المكتبة عدة مرات في الأسبوع، مرتدية معطفًا عتيقًا من الصوف الخام وقفازًا بلا أصابع ولو في عز الصيف. واختيارها للكتب عشوائي في ما يبدو، ففي يوم تختار دليلًا إرشاديًا لأعمال السباكة المنزلية، وفي اليوم التالي كاتبًا حاصلًا على جائزة نوبل. لكن أيًا يكن ما تستعيره فإن النتيجة واحدة في كل الأحوال.

«عقلي يقول لي أن أردّ الاشتراك إلى المكتبة على سبيل الاحتجاج».

«آسفة يا مسز برانزورث. إذا شئتِ، سأتيح لك حق الاختيار الأول من الوارد الجديد».

«كله زباله على الأرجح»، قالتها مسز برانزورث، ثم انطلقت حانقة إلى رف الرياضة والألعاب، تاركة خلفها نفحة خفيفة من رائحة الماعز عالقة حول المكتب.

انتهت جون من تعبئة عربة الكتب المرتجعة، وبدأت تجد لها طريقاً حول القاعة. كانت مكتبة تشالكوت تحتل البناية التي سبق أن شغلتها مدرسة القرية. بناية من الطوب الأحمر معرضة لتيارات الهواء مبنية في سبعينات القرن 19، حُوِّلت إلى مكتبة بعد ثمانين عاماً، لكنها احتفظت بالكثير من ملامحها الأصلية، بما فيها سقف القرميد الذي يسرّب الماء في المطر، وألواح الأرضية التي تصرّ تحت الأقدام، وعائلة من الفئران الدؤوبة تقف على صناديق المحفوظات في العلية. قام مجلس المقاطعة بآخر تجديد للمكتبة في التسعينات، فأدخل أضواء الفلورسنت، وكسا الأرضية ببسطٍ خضراء رسمية الإيحاء. ومع ذلك ظلت جون تحب أن تتخيلها كما كانت في تجسدها الأسبق، حينما كان أطفال متسخو الوجوه يجلسون في صفوف من الدكك في مكان الرفوف الآن، ويتعلّمون كتابة الحروف على ألواح متربة، كأنه مشهد من جين إير.

بينما كانت جون تدفع العربة إلى صدارة القاعة، رأت رئيستها تتجه إليها، ونسخة من مسز دالواي تبرز من شنطة يدها.

«أريدك في مكتبي. حالاً».

مارجري سبنسر هي مديرة المكتبة، التي ترتدي المنصب مشبوكاً في بلوزتها كوسام عسكري. تزعم مارجري أنها لا تقرأ إلا روايات الأدب الرفيع، لكن جون تعرف أنها جددت استعارة خمسين ظلاً من ظلال اللون الرمادي ثلاث مرات على الأقل.

لحقت جون برئيستها إلى داخل المكتب، الذي كان في الواقع خزانة

للعهدة وغرفة للعاملين في وقت واحد، لكن مارجري وضعت فيها مكتبًا منذ سنوات، بل وعلقت لوحة باسمها على الباب. لم تكن ثمة مساحة لمقعد آخر، فاستندت جون إلى كومة من ورق الطابعة.

قالت مارجري وهي تعبت بعقد اللؤلؤ المحيط بعنقها: «ما سأقوله بيني وبينك فقط لا غير، لكنني تلقيت لتوي مكالمة من المجلس المحلي، طلبوا مني الحضور يوم الاثنين لاجتماع عاجل. في غرفة مجلس الإدارة». وهنا سكنت مارجري للتثبت من وقع المعلومة على جون. «عليك أن تتدبري أمورك بمفردك إبان غيابي». «لا مشكلة عندي في هذا».

«كما أن المهلة أضيق من أن تسمح بإلغاء فقرة الأناشيد، وإذا فعليك توليها عني بدورها».

وهنا أحست جون بصدرها يضيق. «في الواقع، أرجو المعذرة لكن آلان عنده...».

«الاعتراض ممنوع. ثم إنه سيكون تدريبًا مفيدًا لك - فربما يكلفك المدير الجديد بفقرة الأناشيد بعد تقاعدي في الكريسماس على أي حال».

مادت الأرض تحت جون من الفكرة. «مارجري، أنت تعرفين أنني لا أستطيع...».

«بحق السماء يا جون، إنها فقرة غنائية للأطفال وليست ترانيم». فتحت جون فمها كي تحتج، لكن مارجري كانت قد التفتت إلى حاسوبها بأسلوب يقول 'الرجاء عدم الإزعاج'.

فتركت جون المكتب وهي تحاول أن تتجاهل انقباض صدرها. اقتربت الساعة من الخامسة، فبدأت روتين الإغلاق. وفيما كانت ترتب الكتب والمجلات المتروكة، أخذت تتخيل الوجوه المترقبة في فقرة الأناشيد، والأطفال وذويهم ينظرون إليها بصبر نافذ، ينتظرون منها أن

تتكلم. نذت عن جون رعدة لا إرادية، فسقطت منها كومة جرائد على الأرض.

«هل أنت محتاجة إلى مساعدة، عزيزتي؟». كان ستانلي فيليبس يجلس على كرسيه ويرقبها.

«شكرًا فأنا بخير»، قالتها وهي تجمع الصحف المبعثرة، وأكملت: «إنها الخامسة الآن، وهو موعد العودة إلى البيت».

«اسمحي لي أن أستعين بك أولاً. التواصل قليل بمنعها، من أربعة أحرف، أولها العين».

فكرت جون برهة، وهي تحلل المفتاح إلى عناصره الأولية كما تعلمت منه. «هل هي عزلة؟»
«شاطرة!».

كان ستانلي فيليبس، الذي يستمتع بالروايات التاريخية عن الحرب العالمية الثانية، يزور المكتبة كل يوم تقريبًا منذ بدأت جون عملها فيها قبل سنين عشر. ملبسه سترة من التويد، وحديثه يشبه حديث شخصية من روايات ب. غ. وودهاوس، وخيالها عنه أنه يعيش في بقايا عزّ غابر، فينام في بيجامات من الحرير ويفطر على السمك المجفف. أما كلمات التليغراف المتقاطعة فهي أحد طقوسه اليومية.

«والآن، قبل أن أنصرف، عندي هدية صغيرة لك». مدّ ستانلي يده داخل شنطة عتيقة مكرمشة وأخرجها بياقة صغيرة من الزهور الذابلة، مربوطة بقطعة من حبل الدبارة. «عيد ميلاد سعيد يا جون».

«أوه، ستانلي، ما كان يجب أن تتعب نفسك»، قالتها جون وهي تحسّ بوجهها يتضرّج احمرارًا. لم تتطرق جون إلى حياتها الخاصة قط مع مخلوق في المكتبة، لكن ستانلي تمكّن منذ سنوات من اكتشاف تاريخ ميلادها، ولم ينسَ مرّة منذ ذلك الحين.

سألها: «هل عندك أي ارتباط خاص الليلة؟».

فقلت: « سأقابل بعض الأصدقاء القدامى، ليس إلّا ».

«عظيم، أتمنى أن تستمتعي بوقتك. أنت تستحقين احتفالاً كبيراً».

شكرته جون وقد ثبتت عينيها على الزهور حتى لا تضطر إلى النظر في عينيّه.

في الخامسة والنصف خرجت جون إلى المساء الدافئ المميز لمطلع الصيف. أغلقت باب المكتبة الثقيل ومضت في طريقها بامتداد شارع باراد، مروراً بدكان القرية الرئيسي، والحانة التي ترفرف فوق بابها تنده بألوان العلم البريطاني، والمخبز القديم الذي كانت تشتري منه مع أمها فطائر الدوناتس بالمربى كل سبت. كان اثنان من المترددين على المكتبة يقفان أمام مكتب البريد، فأحنت جون لهما رأسها في تحية صامته وهي تنحدر مع التل أمام متنزه القرية ومطعم التين الذهبي، ثم تدور يساراً إلى مجمع 'مرج الصفصاف' السكني. شُيد المجمع في الستينات، فخرج على شكل متاهة من البيوت المتطابقة المتلاصقة، كل بيت منها له حديقة صغيرة مربعة، وأمامه مستوعب قمامة بعجلات يقبع أمام مدخل السيارات. هنا عاشت جون منذ كانت في الرابعة، في منزل له باب أمامي أخضر، وستائر حمراء حال لونها.

«أنا رجعت إلى البيت!».

خلعت جون سترتها، وتركت حذاءها على رفّ الأحذية جاهزاً لصباح الاثنين، ثم دلفت من المدخل إلى غرفة المعيشة. كانت إحدى الصور الفوتوغرافية معوجة على الحائط فعدّلتها جون بنظرة عابسة إلى المراهقة ذات الشعر الهائش ومقوّم الأسنان التي تبادلها من الصورة عبوساً بعبوس. اختفى المقوّم منذ وقت طويل والحمد لله، مع أنها ما زالت مبتلاة بتلك الكتلة الهائشة من الشعر البني، التي تروّضها الآن يوميًا في كعكة محكمة الوثاق. بعد إعادة الصورة إلى وضعها الصحيح،

عبرت جون غرفة المعيشة إلى رفّ الكتب الكبير الذي يشغل الحائط الأيسر كله، ويزدحم بصفوف رتيبة من الكتب. آديتشي، ألكوت، أنجلو. عثرت جون على الكتاب المنشود وأخذته معها إلى المطبخ، حيث دسّت وجبة جاهزة من اللازانيا في الميكروويف وسكبت لنفسها كأسًا من النبيذ.

لم يكن في البيت ما يدل على الحياة، أللهم إلا صوت تلفاز خافت قادم من البيت المجاور. التقطت جون بريد الصباح: منشور توعوي عن جمع القمامة، ونسخة من الدنغشاير غازيت. فتشت داخل الصحيفة تحسبًا لاكتشاف بطاقة معيدة بعيد ميلادها مختبئة بين طيّاتها، لكنها لم تجد شيئًا. فأفلتت تنهيدة صغيرة من فمها، ورشفت جرعة من النبيذ.

انطلق رنين الميكروويف فأجفلها. أخرجت اللازانيا وأفرغتها في طبق، مضيفة بضع شرائح من الخيار للتزيين، ثم التقطت كتابها وهي تجلس. كان الكتاب مضعضعًا بفعل سنوات متتالية من القراءة، وعبارتا كبرياء وهوى على غلافه الأمامي لا تكادان تظهران الآن. فتحتة جون بعناية لقراءة الإهداء. 18 يونيو 2005. إلى حبيبتي وقرّة عيني جون. أطيب التمنيات في عيد ميلادك الثاني عشر. لست وحدك أبدًا إذا كان معك كتاب جيّد. كل المحبة: ماما.

تناولت جون قزصة من عشائها، وقلبت الصفحة الأولى وبدأت تقرأ.

الفصل الثاني

«يا آلان بنيت، أين أنت بحق الجحيم؟».

ها نحن الآن صباح السبت وجون لا تجده في أي مكان. لقد فتشت البيت وكشك الحديقة، بل وتفقدت العلّة لعله صعد إليها يبحث عن شيء ما، لكن من غير جدوى.

نادته جون: «هيا يا آلان، لقد باخت النكتة»، لكن البيت ردّ عليها بصمت عنيـد.

وضعت قطعة من الخبز في المحمصة، وشغلت الغلاية، وأصغت إلى هسيس الماء البطيء وهو يغلي، محاولة أن تتجاهل جَيْشان أحشائها. كانت العطلة الأسبوعية تمتد أمامها، طويلة ومترعة بالفراغ. لكن مع أن ترقبها لساعات القراءة الطويلة المنفردة عادة ما كان يملأها بالبهجة، إلّا أن جون أحسّت في هذا الصباح بتوتر مرتاع. خلال السنوات العشر لعملها في المكتبة كانت جون قد نجحت على الدوام في تجنّب فقرة الأناشيد، بل تجنّب أي نشاط يضطرها إلى التحدّث أمام جمع من الناس. وها هي يوم الاثنين ستضطر إلى الوقوف أمام عشرات الصغار مع أولياء أمورهم، تتكلّم وتنشد الأناشيد وتسليهم كأنها...

قضمت جون قطعة من الخبز، لكنها كانت كالورق المقوّى في حلقها، فدفعت طبقها جانبًا.

بعد خمس دقائق جلست على الصوفا، مع نسخة سميكة ملتوية الصفحات من الحرب والسلام. حاولت جون أن تقرأ هذه الرواية مرّات عديدة سابقة، فمُنيت بالإخفاق، لكنها بصفحاتها التي تتجاوز الألف عددًا، كانت تمثّل المشروع المثالي لتلهيتها في هذه العطلة الأسبوعية.

كما أن أمها كانت تحب ذلك الكتاب، ولهذا السبب ظلت جون تشعر بالذنب لأنها لم تتمكن من إكماله قط. رفعت جون الكتاب ورقي الغلاف إلى أنفها، تتنسم العبق المطمئن الصادر عن الورق القديم، وعن الغبار. لكنها استنشقت معه رائحة أخرى، رائحة باهتة من الصابون والدخان. أغمضت جون عينيها وتركت نفسها تتخيل أمها وكأنها تجلس بجوارها كما كانت تحب أن تجلس دائماً، الكتاب في حجرها ومطفأة السجائر على مسند الصوفا. لقد قضت، هي وأمها، مئات من العطلات الأسبوعية على هذا النحو، جنباً إلى جنب في صمت هائئ، تقطعه بين الحين والحين ضحكة أمها المجلجلة على شيء قرأته بين صفحات الكتاب. انقبض صدر جون من حنين الذكرى، ففتحت الكتاب وبدأت تقرأ. كانت قد قرأت نحو ثلاثين صفحة من الكتاب حين دُق جرس الباب. ولوهلة تساءلت جون إن كان الطارق ساعي البريد، الذي سيسلمها كومة من بطاقات التهئة بعيد ميلادها المنسي من يوم أمس، لكنها وبخت نفسها لمجرد التفكير في فكرة بهذه السخافة.

فتحت جون الباب لتجد أمامها جارتها الملاصقة، ليندا، في فستان بلون الفوشيا وفي أذننها قرط ذهبي هائل الحجم. كانت ليندا مهووسة بروايات جيلي كوبر، فكان ملبسها يوحي دائماً بأن روبرت كامبل -بلاك، بطل تلك الروايات، على وشك أن يأتي إلى قرية تشالكوت ليخطفها إلى حفل راقص بمناسبة افتتاح موسم الصيد، ولو في التاسعة صباحاً. كانت تحمل بين ذراعيها آلان بنيت الذي تبدو على وجهه علامات الاستنكار. «انظري من الذي وجدته يعس في خزانة غسيلتي! المتسلل الخسيس.» فأطلق آلان فحيح غيظ وقفز من حضن ليندا.

«أنا آسفة يا ليندا، كنت أبحث عنه في كل مكان.»

«لا عليك. لعلك لست مشغولة؟». وقبل أن تتمكن جون من الرد كانت ليندا قد انسلت من الباب وشقت طريقها نحو غرفة المعيشة وهي تنادي من خلف ظهرها: «لا أريد حليياً في الشاي فأنا أتبع حمية».

أعدت جون الشاي في فنجائين مشطوفين وحملتهما إلى الغرفة حيث وجدت ليندا مستلقية على الصوفا، تُقَلِّبُ صفحات الحرب والسلام. «حبيبتى، لماذا تعذِّبين نفسك بكتاب كهذا؟»، سألتها ليندا وهي تلقي بالكتاب على الأرض في ازدراء.

«كان من كتب ماما المفضلة».

«لطالما كان ذوق أمك فظيلاً في الكتب. أتعرفين أنني أهديتها كل كتب جيلي كوبر، لكنها لم تقرأ واحداً منها؟». ارتفع حاجبا ليندا المرسومان بالقلم استفظاعاً، فضحكت جون.

«أعترف بأن هذا الكتاب لا يخلو من الصعوبة، حتى بالنسبة لي».

«من حسن الحظ أن أمك كانت تحب شراب الجين والكيل والقال أيضاً، وإلا ما كنا تصادقنا». أخذت ليندا رشفة من فنجانها، وقالت: «خطر لي بالأمس... هل تذكرين عيد ميلادك السابع لما صنعنا لك كعكة مستوحاة من كتاب تشارلي ومصنع الشوكولا؟ حاولنا صنع مصعد من الزجاج، لكن الشراب لعب برأسينا فخرجت الكعكة في نهاية الأمر مائلة كأنها برج بيزا». وأطلقت قهقهة عالية، فتطايرت قطرات الشاي الساخن على الصوفا.

ابتمست جون، قائلة: «كنتما تصنعان أجمل كعكات أعياد الميلاد». في عيد ميلادها السادس خبزت لها أمها وليندا العنكبوت العملاقة والخزير الوردي من كتاب بيت العنكبوت شارلوت، وفي عيدها العاشر حاولتا صنع هيرميوني وهاغريد من سلسلة هاري بوتر باستخدام السكر المذوّب، رغم أن النتيجة جاءت في النهاية أشبه بمخلوق من أفلام الرعب.

«لماذا لم تقنعي قط بكعكة الأميرة مثلك مثل بقية البنات من سنك؟»، قالتها ليندا وهي ترفع عينيها إلى السماء في استياء مصطنع. «على كل حال، كيف كان عيد ميلادك؟ لعلك التقيت بأصدقائك؟». فقالت جون: «لا بأس، شكراً».

وهنا همهمت ليندا، وكان في نبرتها ما يوحي بأنها تعرف جيدًا أن الأصدقاء الذين التقت بهم جون هم: إليزابيث بنيت ومستر دارسي، بطلا كبرياء وهوى. «طيب، عندي لك هدية».

وأخرجت ليندا من حقيبة يدها لفافة مستطيلة، فتحتها جون بشيء من التوجس. كانت هدايا ليندا في عيد الميلاد ملتزمة بنمط ثابت: ففي العام الماضي كانت كتابًا بعنوان كيف توقع أي شخص في غرامك، وفي العام الأسبق كان العنوان كيف تقلع عن القلق وتبدأ الحياة. وها هي جون الآن تشد ورق اللفافة لتكشف عن 90 يومًا من أجل حياة جديدة.

«لمحته في المتجر الخيري ففكرت فيك على الفور»، قالتها ليندا باعتزاز واضح.

«رائع، شكرًا جزيلاً». جرت عينا جون فوق سطور التعريف بالكتاب على غلافه الخلفي وحاولت أن تبدو متحمسة.

«هل أعجبك؟ الأمر وما فيه أنني...». وتمهّلت ليندا، فانتظرت جون الكلمات التي كانت تعرف أنها آتية لا محالة. «مرت ثماني سنوات يا حبيبتي. وأنا أعرف أنك تفتقدين أمك حتى الآن -كلتانا نفتقدها- لكن ربما حان الوقت لتحريك الأوضاع قليلًا؟».

أخذت جون رشفة من الشاي. كانت ليندا تثير هذه المسألة كل عام، في الأيام المحيطة بعيد ميلادها، فتعلّمت جون بالخبرة أن أفضل السبل هو التزام الصمت حتى تنفّس ليندا عما في صدرها.

تابعت ليندا: «يعني، أريد أن أقول إن هذا لا يكاد يشبه ما كنت تحلمين به في صغرك، أليس كذلك؟ قبل مرض أمك، كانت عندك آمال عراض عن السفر للالتحاق بالجامعة واحتراف الكتابة الأدبية. ألم يحن الوقت لإعادة المحاولة؟».

«كل الشباب تساورهم أحلام بلهاء يا ليندا. ثم إنني أحب عملي في المكتبة».

«طيب، عظيم جدًّا، لكنك غير مضطّرة لممارسة عملك هذا في قرية

صغيرة مثل تشالكوت. لطالما كنتِ تريدين السفر إلى كمبريدج، ولا شك أن ثمة مكاتب هناك».

«لكن ما الذي يدفعني إلى السفر؟ هذا بيتي». جرت عينا جون فوق غرفة المعيشة: رفّ الكتب المقدّس بكتبها هي وأمها، رفّ المدفأة المغطى بتشكيلة من التحف الخزفية التي جمعتها على مدار سنوات، الجدران المزدحمة بلوحات وصور فوتوغرافية متنافرة الإطارات. «وماذا عن آلان بنيت؟ لا أظنه سيتكيّف مع الانتقال إلى مكان جديد».

حين سمع القط اسمه، أطلق زمجرة خفيفة. «اسمعي يا حبيبتى، أنا لا أحاول أن أضغط عليكِ. إذا كنت سعيدة هنا فهذا شيء رائع. كنت أتساءل فقط ما إذا كنت تنشدين المزيد من حياتك، وهذا كل ما هنالك».

وضعت جون الكتاب من يدها وابتسمت لليندا ابتسامة طمأنة. «أنا مقدّرة جدًّا لاهتمامك. لكنني أحب حياتي، وما كنت لأغيّر شيئًا واحدًا فيها».

«طيب إذا، سأفترض في هذه الحالة أنك ستحضرين مهرجان الصيف عصر اليوم؟».

فانمحت الابتسامة عن وجه جون. «آه في الواقع أنا مشغولة بعض الشيء اليوم».

«بالله عليك، قلتِ بنفسك إن الحرب والسلام كلام فارغ. ثم إنك كنت تعشقين المهرجان». نهضت ليندا بتثاقل من على الصوفا وناولت جون فنجانها الفارغ.

«صدقيني يا ليندا، ورائي الكثير والكثير هذا ال...». فقالت ليندا: «سأطرق بابك بعد قليل. وأنا أدري الناس بك يا آنسة، فلا تحاولي التظاهر بأنك لست هنا».

الفصل الثالث

في الثالثة كانت جون تصعد التل في اتجاه متنزه القرية، متلكئة خلف ليندا. كان يومًا قائظًا، والشمس تصبّ حرارتها من سماء صافية من غير سحب، وقد بدأت من الآن تحسّ بجلدها يحمرّ. لم تكن جون يومًا من عشاق الصيف، لأسباب عديدة، ليس أولها حروق الجلد التي تصيب بشرتها الشاحبة المنمّشة. حتى في المدرسة الابتدائية، حين يقضي معظم رفاق فصلها إجازة الصيف الطويلة في اللعب عند النهر، كانت جون تفضّل البقاء في كِنّ المكتبة المنعش، مع أعزّ صديقاتها غايل، وكومة من الكتب الممتعة.

لكن الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة هو مهرجان تشالكوت الصيفي. كان أول ما يخلب لبها عند صعود التل هو الرائحة: مزيج مدوخ من الفشار الطازج وغزل البنات، ينتشي له الأطفال طربًا. بمجرد تنسّم الرائحة كانت جون تمسك بيد غايل ثم تنفلت البنتان بعيدًا عن أمّيهما نحو المتنزه، ترقزقان من الفرح حين تلمحان أكشاك ألعاب الملاهي المسقوفة بالقماش، وكشكالحلويات بصفوفها المغوية من قوارير المشاريب الغازية، وسرادق المسابقات، حيث تتصارع أعضاء المعهد النسوي على جوائز عينية من الطعام والحلوى.

قالت ليندا عند وصولهما: «سأقابلك في سرادق البار خلال نصف ساعة. إذا رأيت حفيدي جاكسون أبلغيه أن مصروفه عندي». انطلقت ليندا وبدأت جون تشق طريقها عبر المهرجان، محاولة أن تحتفظ بهدوئها، فيما كانت الحشود تموج من حولها. كان كل شيء كما

تذكره تمامًا: أطفال منخرطون في لعبة العسكر والحرامية بين الأكشاك، ورائحة السجق المحترق، وطين صوت الإذاعة الداخلية العتيقة. ها هو كشك اليانصيب، تحت إدارته المعهودة من مجموعة زهرات الكشف المحلية، ومنضدة من الحيوانات الخرافية مشغولة بأيدي جماعة 'التركوتريكو' التي تجتمع في المكتبة كل أربعاء. أشاحت جون بوجهها بعيدًا عند مرورها بجوارهنّ، فقد كانت دائمًا تستشعر بالحرص إذا تكلمت مع رواد المكتبة خارجها، من دون دروعها الاحترافية المتمثلة في بطاقة التعريف 'مساعدة المكتبة' وختم التواريخ. بلغت جون نهاية الممر واستدارت يمينًا نحو سرادق المسابقات، ثم وقفت مبهوتة. فأمامها، بجوار القلعة البلاستيكية المنفوخة، كانت نضبة (كشك) الفيل الأبيض. كان ردّ فعل جون الغريزي هو أن تستدير وتجري في الاتجاه المعاكس، لكن الزحام من خلفها منعها، فوجدت نفسها محمولة نحو النضبة. وفيما كانت تقترب رأت المنضدة مغطاة بالتشكيلة الغربية المعتادة من البضاعة المتنافرة: تمثال من تماثيل الحداثق، وعاء تجفيف خضار السلطة، كومة من عرائس باربي في حالات متباينة من العري. كلها أشياء لم يعد أصحابها بحاجة إليها، فوهبوا للبيع واستغلال العائد في العمل الخيري.

اعتادت أم جون أن تسألها: «أتعرفين السبب الذي جعل نضبة (كشك) الفيل الأبيض هي الأثيرة عندي؟ لأنها ملتقى غير المحبوبين، المنبوذين الذين لا يرغب فيهم أحد. وأنا، لطالما كنت أشجع الطرف الخسران».

ظلت أم جون تدير النضبة طيلة خمسة عشر عامًا، فجعلتها واحدة من أنجح فعاليات المهرجان. كانت جون تشاركها كل عام، تتناول الحلويات وهي تستمع إلى أمها تثرثر مع الزبائن. كانت بيفرلي جونز أمينة المكتبة معروفة للقرية كلها، وهناك دائمًا تيار مستمر من الناس، يتمهلون عند النضبة لإلقاء التحية، أو تبادل القيل والقال.

في مرّة من المرّات قالت جون لأُمها: «أنت أشبه بمشاهير النجوم»، بعد أن راقبتها في انبهار وهي تتحدّث مع امرأة عجوز لمدة خمس دقائق، متذكّرة اسم كل واحد من أحفادها.

حينها قالت بيفرلي: «لا تبالي». مع أن وظيفتي هذه لعلها في بعض الأيام أقرب إلى الأخصائية الاجتماعية منها إلى أمينة المكتبة». حتى حين مرضت بيفرلي بالسرطان، وأعيها القيء والغثيان من العلاج الكيميائي الذي يخضّ جسدها خضاً، ظلّت مصرّة على إدارة النصب.

قالت: «من سيجد حياة جديدة لكل تلك الأشياء الحزينة إذا لم أفعل؟»، بينما كانت جون تدفع كرسيها المتحرك عبر أرض الملعب غير المستوية. في ذلك العام لم تقوَ بيفرلي على شيء أكثر من الجلوس خلف المنضدة، لكن كل رواد المهرجان تقريباً جاؤوا لإلقاء التحية، أو معانقتها ومنحها أمنياتهم الطيبات.

بعد ثلاثة أشهر كانت أمها قد فارقت عالماً. ومنذ ذلك الحين لم تعد جون إلى المهرجان. بدأت الدموع تغشى بصرها، فاستدارت وشقّت طريقها بصعوبة عائدة ضد تيار الناس نحو المخرج، والهلع يتصاعد في صدرها. ما كان يجب أن تأتي. تخيلت جون أسباب الراحة المألوفة في بيتها - مقتنيات أمها، وآلان بنيت، وكتبها - فأسرعت الخطو.

وفيما كانت تمرّ بجوار منضدة الرسم على الوجوه، سمعت صوتاً من خلفها.
«جون!».

سألت نفسها لو هلة إن كان بوسعها التظاهر بأنها لم تسمع كي تواصل الجري، لكنها شعرت عندئذ بيد على كتفها، واستدارت لتجد ستانلي فيليبس، ببذلة التويد وربطة العنق.

«كم تسرّني رؤيتك، عزيزتي». كان يتسم لها، لكن وجهه تغيّر واكتسى بالإشفاق حين رأى الدموع على وجنتيّها. «أنت بخير؟».

ف قالت جون: «أنا بخير، شكرًا»، وهي تمسح وجهها. كان آخر شيء تريده هو الشفقة من أحد زوار المكتبة.

«أنا جد سعيد بمقابلتك. هل لحقت بعرض 'راقصي موريس'؟ وهل زرت سرادق المسابقات بعد؟».

«كلا، للأسف».

«أوه، يجب أن تذهبي. المستوى مرتفع جدًا هذا العام. وهناك منمنمة تحاكي حدائق بابل المعلقة، مصنوعة بالكامل من الخضر الدرنية. لماذا لا أريك إياها؟».

«في الواقع، كنت في طريقي إلى البيت».

«لكن تحكيم مسابقة الكعك الاسفنجي سيبدأ خلال ربع ساعة ولا يصحّ أبدًا أن تفوتك. في العام الماضي غضبت الفائزة بالمركز الثاني إلى درجة أنها ألقت كعكتها على رأس مارجري سبنسر».

«شكرًا، لكنني...».

وهنا قُوطع حديث جون بهرج ومرج صادر عن يمينها، فالتفتت هي وستانلي ليريا مسز برانزورث ترتدي إعلانًا منزليّ الصنع على شكل شطيرة، مسطورًا بعبارات «حافظوا على متاجر تشالكوت»، و«متاجر محلّية لا سلاسل تجارية».

«قرينا تتعرّض للتخريب»، صاحت مسز ب. بصوت جهوري، فسقط الآيس كريم من يد طفلة قريبة منها، من فرط المفاجأة. «فقدنا جزّاريننا، وفقدنا باعة الخضر، وها هو المخبز بدوره يواجه التهديد».

همس ستانلي في أذن جون: «منذ ساعة وهي تصول وتجول على هذا النحو، تزعق فيمن يصغي إليها، ومن لا يصغي أيضًا، إن شئت الحق».

«المجلس البلدي يرفع الإيجارات، ويبيع أراضي الحزام الأخضر

لشركات التطوير العقاري الملعونة. وعلينا أن نبليغ المجلس أننا لا نريد
سماسرة ولا وكلاء عقاريين في قريتنا - نحن نريد متاجر محلية تخدم
مجتمعنا المحلي».

صاح رجل: «من دون صراخ يا أستاذة، فالبعض منا يحاول الاستمتاع
بوقته».

وهنا توقفت مسز ب. وأطلقت على الرجل طوفاناً من السباب.
فتحرك ستانلي نحوهما. «تعالى يا جون، الأفضل أن نتدخل قبل أن
يشتعل الشجار».

تجمدت جون في مكانها، كأنها علقت في فخ. كان مستحيلاً عليها
أن تتدخل، فهي أشد خجلاً من أن تجبر أيًا منهما على الإصغاء إليها،
والمرة الوحيدة التي تدخلت فيها لمنع شجار في المكتبة انتهت بزيادة
الطين بلّة. نظرت جون إلى ستانلي الواقف بين الرجل الملوّح بيده،
ومسز ب. محمّرة الوجه، ثم استدارت وأسرعت إلى بيتها.

الفصل الرابع

صباح الاثنين فتحت جون باب المكتبة قبيل التاسعة ودلفت إلى سكونها المرحّب. هذه ساعتها المفضلة بين ساعات اليوم، قبل وصول مارجري والزوار، حين تكون وحدها من غير أنيس سوى الكتب. كانت تحب أن تتمشى حول القاعة، تتنفس الهواء الساكن الثقيل، وأحيانًا حين تغمض عينيّها، كانت تتخيّل أنها تسمع الكتب تتهامس لبعضها البعض بحكاياتها.

كانت من أوائل ذكرياتها ذكرى زيارتها لمكتبة تشالكوت وهي في الرابعة، بعد فترة قصيرة من بداية اشتغال أمها هناك. كانت تحسّ بالمبنى مهيب الضخامة، وهي تدخل من تحت برج الساعة، والكتب حولها على مدى النظر، ومكتب الإعارة عالٍ حتى إنها لا تكاد ترى من فوقه. وكانت أمها قد منحتها بطاقة اشتراك، وما زالت جون تذكر فرحتها إذ قيل لها إن بوسعها أخذ اثني عشر كتابًا، وتبديلها كلما أرادت كتبًا جديدة. بمجرد أن انتظمت جون في المدرسة، كانت تقضي مع غايل معظم الأماسي في قاعة الأطفال، تلعبان وتقرآن. في ما بعد، في سنوات المراهقة، كانت جون تأتي بمفردها لإنجاز فروضها المنزلية، والثرثرة مع أمها، والمكتبة بمثابة واحة من السكينة بعد فصول المدرسة الثانوية المزدهمة الصاخبة.

أما الآن، بعد مرور أكثر من عقدَيْن على تلك الزيارة الأولى، فقد صارت جون تُدرك أن مكتبة تشالكوت في الواقع صغيرة الحجم، حتى بمعايير المكتبات القروية. كان الزوار يشكون دوريًا من ضعف

الإضاءة، وعدم كفاية التدفئة، ورداءة الصوتيات. لكن المبنى عند جون ظلّ دائماً يحتفظ ببعض السحر الذي أحسّته في زيارتها الأولى. حتى بعد عشر سنوات من العمل هنا، عشر سنوات من نقص التمويل ونضوب الموارد، ظلّت المكتبة مكاناً للدهشة، خاصّة في الصباح الباكر، حين لا يكون هناك أحد سواها.

بدأت جون روتين الاستعداد اليومي: تشغيل الحواسيب، تختم الصحف اليومية ونشرها في أماكنها، إعادة تزويد الطابعات بالورق. وكانت عادة تستمتع بالطبيعة التأملية الصامتة لتلك المهمات، لكنها وجدت نفسها في هذا الصباح عاجزة عن الاسترخاء. كان اليوم منذراً بالحرّ اللاهب، فتمنّت جون أن تقرر العائلات الذهاب إلى المتنزّه أو النهر بدلاً من حضور فقررة الأناشيد هنا. ومع ذلك فحين فتحت الباب الأمامي في العاشرة، كان هناك عدد من الآباء ومعهم أطفال صغار ينتظرون الدخول، علاوة عن ستانلي.

«صباح الخير، عزيزتي. أليس يوماً بديعاً؟». لم يكن ستانلي يعتمر قبعة، لكن جون تخيلت أنه لو فعل لرفعها تحية لها. «يؤسفني أنني فقدت أثرك وسط الهرج يوم السبت. لعلك سمعت بأن مسز برانزورث كادت أن تُعتقل بتهمة تكدير السلم العام؟». «أهي بخير؟».

«بالطبع - أنتِ أدري بحبها للشجار. هلا تعينيني بكرمك على تسجيل الدخول؟».

«طبعاً»، قالتها جون وهي تتبعه إلى مكان الحواسيب. كان ستانلي قد حصل مؤخراً على حساب بريد إلكتروني للتواصل مع ابنه في أمريكا، رغم أنه لم يتمكن أبداً من تسجيل الدخول من دون معونة جون، التي رقت له الآن كلمة المرور.

شكرها ستانلي، وقال: «هل أنت بمفردك اليوم؟».

«نعم، فمارجري عندها اجتماع، لهذا سأتولى أنا فقرة الأناشيد». ولا بد وأنه قد سمع رعشة صوت جون، لأنه منحها ابتسامة تشجيع. «لا شك عندي أنك ستكونين رائعة. سأدخر الكلمات المتقاطعة لما بعد انتهائك».

بحلول العاشرة والنصف كانت المكتبة قد امتلأت بعربات الأطفال، وارتفع مستوى الضوضاء بمقدار 10 ديسيبل. وحين لم تعد جون قادرة على أي مزيد من التسويف، اتجهت إلى قاعة الأطفال واختلست نظرة من وراء الباب. كانت معظم مساحة الأرضية مغطاة بأطفال وكبار، وجوهم جميعًا شاخصة إلى الأمام حيث يقف مقعد فريد وشاغر. وبرقت في ذهن جون صورة مباغثة لأمها جالسة في تلك البقعة بعينها، ترتدي شورت برمودا، على راحتها تمامًا وهي تعزف الغيتار وتغني لأطفال مبتهجين.

زفرت جون ببطء ومقبض الباب في يدها، ثم سارت إلى داخل القاعة بفم جف منه الريق، تتلمس طريقها إلى الصدارة. «لكنك لست مارجري»، صاح ولد صغير تعرف جون أنه مخرب للكتب.

«مرحبًا بالجميع، أنا جون». خرج صوتها ضعيفًا أشبه بالنقيق. فصاحت إحدى الأمهات من هوة استعارة روايات الإثارة السيكولوجية: «ارفعي صوتك يا حبيبتى، نحن لا نسمعك في الخلف». «أين مارجري؟»، تساءلت صديقتها التي تستعير في السر الروايات العاطفية الرخيصة.

فردّت جون: «مشغولة، فيما أخشى». وتصاعدت آهات الحسرة من عدد من الأطفال. «أريد الشاحنة الكبيرة الحمراء»، صاح مخرب الكتب. فقالت جون: «سنُخرج صندوق الألعاب بعد الفقرة».

«لاااااا، أنا أقصد الأغنية».

«آه، أنا آسفة. لا أظن أنني أعرفها». وعندئذ سمعت مصمصة شفاه، وأحسّت بوجنتيّها تتضّرّجان. «ما رأيكم في مكدونالد العجوز؟ واحد، اثنان، ثلاثة...».

كانت كل الأعين عليها، وحين لم يبدأ أحد في الغناء أدركت جون أنها ستضطر للبدء بنفسها. لكنها لا تسمع إلا نبض الدم في أذنيها. «مكدونالد العجوز كانت عنده مزرعة...».

لم تكن جون قد غنّت أمام الناس منذ سنوات، فخرج صوتها في زقزقة خفيفة عديمة التناغم. رأت امرأة لا تعرفها ترفع حاجبيها، كما سمعت ضحكات استهجان من الأطفال. «يا إيا أو».

ومع ذلك لم يشاركها أحد في الغناء، فمسحت جون العرق عن شفتها العليا. كان قلبها يخفق بعنف، وحين أغمضت عينيها وجدت نفسها قد عادت إلى المدرسة، تقف أمام فصلها وتسمع همسات زملائها المراهقين وضحكاتهم الساخرة. «وفي المزرعة كان هناك...».

ثم مرّ فاصل من الصمت المؤلم، قبل أن يصيح أحد الأولاد: «بقرة!». ورأت جون أنه جاكسون فردّت عليه بـ«يا إيا أو» مليئة بالامتنان. بدأت قلة من الحضور تشارك في الغناء الآن، وعند الوصول إلى الشطر الثاني كانت معظم القاعة تغني، فخفّضت جون صوتها. غنى الجمع بعض أغاني الأطفال الأخرى: عجلات الحافلة، العنكب الصغير، تلالئي يا نجمتي الصغيرة. لكن الأطفال ظلّوا يطلبون أغاني لم تسمع بها من قبل، أغاني عن رواد الفضاء وعن أرانب نائمة، وحين اعتذرت جون للمرة السادسة، كانت ترى بعض الآباء يتبادلون النظرات.

سألها هاوية الرومانسيات الرخيصة: «هل تعرفين أية أغان فعلية للأطفال؟».

«أنا آسفة لكنني عادة لا أشارك في هذه الفقرة».

«لكن ما فائدة الفقرة إذا لم تغني أغانيها؟».

«أنا فعلاً آسفة». وبدأت الدموع تخز عينيّ جون. أرجوك، أرجوك ألا تبكي أمام كل هؤلاء الناس.

«بحق السماء»، صاحت هاوية روايات الإثارة السيكلوجية، ووقفت وشدت ابنتها المتذمرة إلى خارج القاعة.

وكان بقية الصغار قد بدأوا يتململون، والآباء يتكلمون مع بعضهم البعض. بحثت جون حولها عن شيء، أي شيء، يعيد لها السيطرة على القاعة. فوقعت عينها، فوق أحد الصناديق الواطئة، على نسخة مهمة من اليرقة الجوعانة جدّاً، واحدة من القصص المفضلة عند جون في طفولتها. تناولت جون الكتاب وبدأت تقرأ منه، رغم أن أحداً لم يكن يلقي إليها سمعاً.

وحين وصلت جون إلى الصفحة الأخيرة، رفعت عينها لتدرك أن القاعة كلّها قد صمتت، مأخوذة بالقصة. ومرّت برهة من السكينة الرائعة. ثم انفك الرّصد على يد طفلة قالت: «أريد واحدة أخرى. أريد حكاية الغرافالو».

«اعذروني لكن وقتنا اليوم لا يتسع لأكثر من هذا». ووقفت جون وبدأت ترتب المكان قبل أن يتمكن مخلوق من الشكوى.

تقاطرت العائلات خارجة، وشقت جون طريقها نحو المكتب لتناول كوب من الماء، وقلبها لا يزال في سباق. كانت تسمع من خلفها ضحكات اثنتين من الأمهات أثناء خروجهما، فضاق صدرها من فكرة أنهما تضحكان عليها. لكنها تنفّست الصعداء لغياب مارجري، وأنها لم تشهد الكارثة، رغم أن أحد فاعلي الخير سيتطوّع بإبلاغها من دون شك.

وسوف يكون على حق، طبعًا. فما هي نوعية مساعدة المكتبة التي لا تستطيع تقديم فقرة بسيطة للأطفال من دون أن توشك على البكاء؟ ثم أتت الظهيرة، موعد استراحة الغداء. لم يكن في المكتبة الآن سوى ستانلي النعسان خلف صحيفة في مقعده، ومسز برانزورث التي تعسّس حول الأرفف وهي تدمدم لنفسها. جلست جون إلى المكتب وأخذت بضعة أنفاس عميقة، فملأت رئتيها من رائحة المكتبة المطمئنة. كانت في طفولتها تعتقد بأن لكل كتاب رائحة مميزة، متعلقة بالقصة التي يرويها، وأن رائحة المكتبة عبارة عن خليط من روائح الآلاف من القصص المختلفة. وقد شرحت هذه النظرية لأُمها ذات مرّة، فقالت لها إن قاعة الأطفال تتمتع بأفضل الروائح، لأن كتب الأطفال، كما يعرف الجميع، فيها قصص أكثر إثارة من قصص الكبار. وبعد هذا بشهور ظلتا تلعبان لعبة كلما قرأنا كتابًا معًا، للتوصل إلى النكهة المميزة للقصة. الحديقة السريّة، على سبيل المثال، يفوح برائحة الطين والورود، بينما ينبعث من تشارلي ومصنع الشوكولا أريج السكر وشورية الكرنب على السواء.

«بعد إذنك، هل أستطيع أن آخذ هذه الكتب لو سمحت؟».

رفعت جون عينيّها لترى صفاً عاليًا من الكتب أمام المكتب. ومن فوقه عINAN تطرفان لها. «طبعًا تستطيع يا جاكسون».

كان حفيد ليندا ابن الثامنة من زوار المكتبة المفضلين عند جون. كان يتعلّم منزليًا، ومنذ نعومة أظفاره بدأ يأتي إلى المكتبة بمفرده، قابضًا في يده على بطاقة الاشتراك كأنها أئمن مقتنياته. وكان قارئًا نهمةً، يأتي من الآن على كتب مخصّصة للأطفال في ضعف عمره.

«آه، سيد الذباب اختيار ممتاز»، قالتها جون وهي تتناول منه الكتب. «إذا أعجبك فربما يروق لك ووترشيب داون أيضًا».

«قرأته وأنا في السابعة». ومسح جاكسون أنفه في كمّ البلوفر الذي

اشتغلته له ليندا من دون شك. «عندك نسخة من أوليفر تويست؟ أعدّ مشروعا مدرسياً عن العصر الفكتوري وستانلي قال إنه سيروق لي». «دعني أتأكد لك». ورقنت جون الاسم على الحاسوب. «هل كنت تعرف أن هذه المكتبة كانت في يوم من الأيام مدرسة فكتورية؟ بوسعي مساعدتك في إجراء الأبحاث عنها، فلا بد وأن لدينا بعض الصور القديمة في الأرشيف».

فقال جاكسون: «أجل، لو سمحت. أتعرفين أنهم في العصر الفكتوري كانوا يودعون الأيتام في أماكن العمل، من دون حتى أن يعلموهم القراءة والكتابة؟ قرأت هذا في الموسوعة هنا».

كثيراً ما كانت ليندا تشكو من جاكسون، وأن الأفضل له أن يخرج للعب مع أطفال من سنه، بدلاً من قضاء كل هذا الوقت في المكتبة. لكن الولد بالنسبة لجون كان شقيق روحها، إذ كانت تعرف نظرة عينيه كلما دخل المكتبة، نظرة الترقب والتشوّف للوعود التي تحفل بها الرفوف. كما كانت تدرك معنى أن يستريح المرء إلى الكتب أكثر مما إلى البشر، وأن يفضل المغامرة والسفر بين صفحاتها على مغامرات الحياة الواقعية وأسفارها.

ثم جاء صوت هادر من الباب الأمامي، واندفع شاب يرتدي بدلة سيئة التفصيل إلى داخل المكتبة، بوجه مليء بالبشور الحمراء. «سمعت الخبر؟».

فقالت جون: «عفوًا، أي خبر؟ ومن أنت؟». «اسمي ريان ميتشيل، من صحيفة الدنغشاير غازيت. ألم تسمعي عن إعلان المجلس البلدي؟».

«ما هذا الذي يقال عن المجلس؟». كانت مسز برانزورث تخطو نحوهما قادمة من رفّ العلوم والتكنولوجيا. «أصدر المجلس تصريحاً صحافياً يقول إنهم بصدد إغلاق ست مكتبات في المقاطعة، وتشالكووت إحداها».

فانحبست أنفاس جون في صدرها. «ماذا؟».

فقال ريان: «لهم سنوات يهدّدون بهذا، لكنهم جعلوا الأمر رسميًا الآن. سيجرون بعض المشاورات ثم يعلنون قرارهم». وصاحت مسز ب. بقوة جعلت ستانلي يقفز من مقعده: «هؤلاء الأندال!».

قال ريان لجون وهو يخرج هاتفه من حقيبته: «كنت أرجو الحصول على تصريح من أحد أمناء المكتبات». فتلعثمت جون: «آسفة... أنا مجرد مساعدة». كانت تحسّ بالدوار، فتشبّثت بالمكتب لاستعادة توازنها. سيغلقون المكتبة؟

وقال ستانلي: «هل يستطيعون فعلاً إغلاقها بتلك البساطة؟ الكثيرون منا يعتمدون على الخدمات المتوفرة هنا». قالت مسز ب. بما يشبه الزئير. «المجلس من حثالة المحافظين. هذا كلّه جزء من خطة تقشفهم الملعونة، إنهم يغلقون المكتبات في جميع أنحاء البلاد».

فقال ستانلي: «لكن أين أذهب إذا اختفت المكتبة؟». وردّ الصحافي: «يقول المجلس إن هناك مكتبات أكبر حجمًا في وnten ونيوكاولي». «لكنها على بعد أميال».

«هل كنت تعرفين بهذا الأمر؟». كانت مسز ب. ترمق جون بنظرات نارية.

«كلا، أنا آسفة... هذه أول مرّة أسمع فيها بالخبر». قال ستانلي: «لا يمكن أن نسمح بحدوث هذا». ضربت مسز ب. بقبضتها على المنضدة حتى أجفلت جون. «سنشكل مجموعة لإطلاق حملة. لقد قضيت حياتي في الاحتجاج، ولن أستسلم بلا مقاومة».

فقال ريان وهو يدوّن في مذكرته بسرعة: «أسمحين للصحيفة بنقل هذا التصريح عن لسانك؟».

«ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟».

التفتوا جميعًا ليروا مارجري تقف في مدخل الباب وحقيبة يدها مثبتة أمام صدرها كالدرع الواقية. «هذه مكتبة وليست سوقًا للمواشي. كنت أسمع أصواتكم من الخارج».

قال ريان: «مارجري سبنسر؟ هل تسمحين بالإدلاء بتصريح لصحيفة الدنغشاير غازيت؟».

«ما لم تكن هنا من أجل فعالية مكتبية مشروعة فإن عليك أن ترحل».

«هل يمكنني...».

«قلت لك اخرج!».

بدا ريان وكأنه يوشك على التفوّه بكلمة ما، لكنه أحنى رأسه وخرج. وساد الصمت المكان لبرهة، فكانت جون تسمع صوت أنفاسها المتحشجة.

قالت مارجري: «نعم، علينا أن نتحلّى بالهدوء جميعًا. كنت لتؤي في اجتماع مع المجلس البلدي، وقد أبلغوني بالخبر. أعرف أنه خبر صادم، لكن لا يصح أن نصاب بالهلع».

فقالت مسز برانزورث بنبرة تهكم: «الكلام سهل عليك، فقد اقترب موعد تقاعدك». كانت علاقتها بمارجري قد ساءت منذ سنوات حين وجّهت مارجري اتهامًا إلى مسز ب. بتشويه نسخة من سيرة حياة مرغريت تاتشر.

قالت مارجري: «أنت تعرفين أن زوجي هو رئيس مجلسنا البلدي، وواحد من أكبر مؤيدي المكتبة. وهو ينوي ترتيب اجتماع مفتوح مع مجلس المقاطعة يوم الخميس للإجابة عن جميع استفساراتنا».

فقال ستانلي: «هذه مهلة غير كافية للاستعداد».

اندفعت مسز ب. تردّ عليه. «طبّعًا لا. المجلس يريد الخلاص من هذا الأمر بأسرع ما يمكن، حتى تنصرف عنه الأضواء».

قالت مارجري: «لا شك عندي في أن المجلس سيصغي إلى كل همومكم في الاجتماع. والآن لو سمحتم، أرجو منكم الهدوء والعودة إلى ما كنتم تفعلونه».

ظلت مارجري واقفة عند المكتب حتى انصرف ستانلي ومسز ب.، ثم استدارت لتسير إلى مكتبها. في تلك الأثناء رأت جون أن وجهها كان في بياض الورق.

«المعذرة يا جون؟».

التفتت جون لترى من أين صدر الصوت الصغير، ففوجئت برؤية جاكسون لا يزال واقفًا عند المكتب. كانت وسط الهرج والمرج قد نسيت أنه هناك.

«ماذا هنالك؟».

كان الجبين الصغير مقطّبًا. «صحيح أنهم سيغلقون المكتبة؟».

عضّت جون على شفتيها في محاولة للسيطرة على انفعالها. «أنا آسفة يا جاكسون، لكنني فعلاً لا أعرف».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

«طلبك المعتاد؟»، سألها جورج فيما كانت جون تخطو إلى داخل التّين الذهبي في مساء ذلك اليوم.
«نعم لو سمحت يا جورج».

فاتجه جورج إلى المطبخ وتهاوت جون على واحد من كراسي المطعم الصيني البلاستيكية، ورأسها ينبض ألماً. كان خبر إعلان المجلس قد انتشر في القرية، فكان كل من يدخل المكتبة يستفسر منها عنه. وقد حاولت جون أن تحتفظ بنظرتها الإيجابية، فتطمئن الناس أن الخبر لم يتأكّد بعد، بينما كانت تنهار من الداخل. ماذا ستفعل إذا أغلقت المكتبة أبوابها؟ سيكون عليها أن تجد عملاً آخر، مما قد يعني الاضطرار إلى بيع بيت أمها والرحيل عن تشالكوت و...
مدّت جون يدها داخل حقيبتها وأخرجت كتاباً، في محاولة مستميتة لإسكات عقلها.

«جون جونز؟».

رفعت جون عينيها لكنها لم تتعرف على الرجل مشعث الشعر الواقف خلف نضد المطعم. أترأه من زوار المكتبة؟ حاولت أن تتخيّل نوعية الكتب التي يستعيرها، لكنها عجزت عن تحديد هويته.
«هذا أنا، أليكس».

لم تكن جون قد رأت أليكس تشن منذ أن كان مراهقاً قصيراً وسميماً، يقرأ سلسلة لعبة العروش في حافلة المدرسة. كانا في صف واحد في المدرسة الثانوية، وكانا يتشاركان أحياناً في المشاريع التعليمية. لكنه صار الآن طويل القامة عريض الكتفين، وله ابتسامة دافئة.

«أوه.. مرحبًا، أليكس. كيف حالك؟».

«أنا بخير حال، شكرًا لك. لقد عدت لقضاء بضعة أشهر فقط حتى يتعافى أبي من جراحة مفصل الفخذ».

«جراحة؟ متى موعدها؟». لم تكن جون تعرف أن جورج بسبيله لدخول المستشفى، لكن محادثتهما الأسبوعية لم تتجاوز قط حدود «طلبك المعتاد» و«7 جنيهات و40 بنسًا، لو سمحت».

«يوم الخميس القادم. ما أعجب رؤيتك من جديد. أما زلت تعيشين هنا؟».

«نعم، أنا مساعدة المكتبة». وسدّدت نظرة إلى أليكس، متوقّعة أن يبدو عليه الاستهانة والاستخفاف، لكن وجهه أشرق بالسرور. «هذا رائع. أذكر أنك كنت دائمًا تدسّين وجهك في كتاب أيام المدرسة. ألم تكوني تكسبين جائزة القراءة كل عام؟».

«ليس كل عام، ثلاث مرات فقط»، قالتها جون وخداها يلتهبان. «كنت دائمًا أحاول التغلّب عليك، لكنني لم أفلح قط». وضحك أليكس. «إذًا، هل عندك ترشيحات لكتاب جيد يروق لي؟».

كان الناس دائمًا يوجهون هذا السؤال حين يعرفون طبيعة عمل جون، وكانت بينها وبين نفسها فخورة بقدرتها على تخمين الكتاب المناسب لكل شخص. «يمكنني أن أجرب. أما زلت متعلقًا بجورج ر. ر. مارتن؟».

بدا على أليكس الخجل. «يا إلهي، كم كنت ضيق الأفق أيام المدرسة، أليس كذلك؟ أخشى أن آفاقي لم تتسع كثيرًا هذه الأيام، فقراءاتي الآن منحصرة في أدب الخيال العلمي والرعب».

«لا أعرف الكثير عن تلك الأنواع الأدبية، لكنني سأفتش من أجلك». «في الواقع، كنت دائمًا أنوي توسعة نطاق قراءاتي، لكنني لا أدري من أين أبدأ». وأشار أليكس إلى الكتاب الراقد في حجر جون، الذي

كانت قد خطفته من على مائدة المطبخ في طريقها للخروج صباح اليوم.
«ماذا تقرأين؟».

«أوه، لا أعتقد بأنه سيناسب ذوقك»، قالتها وهي تحاول إعادة الكتاب إلى حقيبتها.

«بل سيناسبه من دون شك، جرّبيني».

على مضض رفعت جون الكتاب حتى يرى أليكس غلافه الأمامي المضطرب، وكانت متأكدة من أنها رأت نظرة خيبة أمل تعلو وجهه، لكنه سارع إلى إخفائها.

«كبرياء وهوى؟ رائع، لم أقرأه من قبل. رغم أنني قرأت كبرياء وهوى والموتى الأحياء».

«ماذا؟» اشتد وقع المفاجأة على جون حتى لم تتمالك نفسها ضحكًا.
«كيف لم أسمع بهذا من قبل؟».

«إنه كتاب مذهل، أعتقد بأن حبكة في الأساس هي حبكة الرواية الأصلية، ولكن في عالم أبوكاليسي تعمل الأخوات بنيت فيه على محاربة الموتى الأحياء، بعد تدريبهنّ على فنون القتال الصينية. كما سيتضح أن ويكام، الذي هو في الحقيقة ميت حيّ يقتات على أدمغة الخنازير، يحشد جيشًا من الموتى الأحياء للاستيلاء على انجلترا، وتقع مهمة إيقافه على عاتق إليزابث ودارسي». توقف أليكس عن الكلام حين رأى النظرة التي علت وجه جون.

«هذه أعجب حبكة سمعت بها في حياتي. هل تسخر مني؟».

«كلا، أقسم بالله. اسمعي، ما رأيك لو قرأت أنا كبرياء وهوى وقرأت أنت كبرياء وهوى والموتى الأحياء ثم قارنا انطباعاتنا؟».

«أشكرك بشدة، لكنني لم أقرأ رواية رعب منذ درسنا فرانكنشتاين في المدرسة، واضطرت للنوم مع ترك الأنوار مضاءة لمدة أسبوع».

ضحك أليكس. «يا إلهي، أنا أذكر قراءة ذلك الكتاب. ماذا كانت تدعى معلمة الإنجليزية المملة تلك؟ كانت دروسها فظيعة».

في واقع الأمر، كانت ميس تاونزند معلمة جون المفضلة، إذ كانت دائماً ترشح لها كتباً جديدة وتلكأ معها بعد الدرس للتناقش فيها، لكن جون فضلت ألا تعترف بهذا.

خرج جورج من المطبخ وفي يده كيس. «7 جنيهات و40 بنساً لو سمحت».

«شكراً يا جورج. وحظاً سعيداً لك في...». بدأت جون تتكلم لكن أليكس اتجه إلى المطبخ.

«عظيم، لقد سرّرتني رؤيتك مجدداً»، قالها أليكس وهي تحمل الكيس وتجه نحو الباب. «أبلغيني إذا غيرت رأيك بشأن كبرياء وهوى والموتى الأحياء. من يدري، ربما تروق لك».

عادت جون إلى بيتها وجلست لتناول وجبتها الجاهزة. كان الدجاج بصلصة الفاصولياء السوداء عشاء أمها المفضل، فصارت جون الآن تطلبه لنفسها ليلة الاثنين من كل أسبوع. غرزت الشوكة ثم رفعتها إلى فمها فيما كانت حوادث اليوم تدور في ذهنها: فقرة الأناشيد، خبر المجلس بشأن المكتبة، وجه مارجري الممتقع. أممكناً حقاً أن تغلق المكتبة أبوابها؟ بالطبع كانت جون تدرك أن هناك مكاتب تغلق أبوابها في جميع أنحاء البلاد، لكنها تخيلت دائماً، على نحو ما، أن مكاناً بضالة تشالكووت سيكون بمأمن، وأن وظيفتها ستظل محفوظة لها طالما ظلت تريدها. ارتعدت جون برغم دفء المساء، ثم انتفضت حين سمعت طرقة على باب المنزل.

«سمعت الخبر لتوي»، قالتها ليندا فور أن أدخلتها جون. ثم فتحت ذراعَيْها على وسعهما ولفتهما حول جون. «أيتها المسكينة، لا بد وأنت في حالة صدمة».

همهمت جون في كتف ليندا: «يريدون إغلاقها يا ليندا، مكتبة أمي».

«لكننا لن نسمح لهم، أليس كذلك؟». أطلقت ليندا سراحها واتجهت إلى المطبخ. «هل فكرت في ما تنوين فعله؟». فتبعتها جون وتهاوت على مقعد أمام المائدة. «لا أدري، لا أعتقد أن هناك ما يمكنني فعله».

قالت ليندا: «لو كانت أمك معنا فإنني أتخيلها تنقضّ على مكاتب المجلس، وتمسك بتلابيبهم ولا تتركهم قبل أن يغيروا رأيهم». «يقال إن هناك اجتماعًا مع المجلس يوم الخميس». «لا بد وأن عندك لهم أسئلة لا أول لها ولا آخر. احرصى على كتابتها كلّها حتى لا تنسيها ساعة الاجتماع».

عبثت جون ببعض حبات الأرز على طبقها ولم ترد. صحيح أنها كانت تريد توجيه الكثير من الأسئلة، لكن لم يكن باستطاعها أبدًا أن تقف أمام قاعة مليئة بالناس لكي تنطق بها. ومجرّد التفكير في كل تلك الأعين المسلطة عليها كان يصيبها بالغثيان، فوضعت الشوكة من يدها، وقالت بصوت خفيض: «كم أتمنى لو كانت أمي معنا».

«أعرف يا حبيبتي. وأنا أيضًا». منحتها ليندا ابتسامة تعاطف. «لكن أمك ليست هنا، وإذا فعليك خوض هذه المعركة نيابة عنها».

الفصل السادس

كانت جون ترقب امرأة تجلس وأمامها نسخة مفتوحة من الإسبانية للأغبياء، امرأة لطيفة المعشر من رواد المكتبة، بدأت تزورها قبل شهور قليلة. قرأت المرأة في البداية دليل المبتدئين إلى الروسية، وبعد ذلك علّم نفسك الألمانية. واستنتجت جون من هذا كله أنها زوجة شابة لها أطفال صغار، لكنها تعيش حياة مزدوجة كجاسوسة، فبعد أن تُنزل الأطفال عند المدرسة كل يوم، تقوم بتنفيذ من قبيل ملاحقة المافيا في بلدة ونتن، أو اغتيال جاسوس روسي يتحلل صفة سائح في فيفرينغ. وأنها حين قالت لزوجها إنها ستقضي العطلة الأسبوعية عند أختها، كانت في الواقع في غمار علاقة ملتهبة مع عميل آخر من عملاء جهاز المخابرات البريطانية هو...

«مسخرة في مسخرة!». كانت مسز ب. ترمق جون من فوق حامل المجلات. «لم أقرأ في حياتي مثل هذه الترهات».

فسألتها جون: «ما الحكاية هذه المرة؟»، وبعد لحظة لوّحت مسز ب. في وجهها بنسخة من مئة عام من العزلة. «يؤسفني أنك لم تستمتعي بالكتاب يا مسز برانزورث، فأنا أحبيته كثيرًا».

«اسمعي، لقد فكرت وقررت - علينا أن نتحد مع غيرنا من المكتبات المهذّدة، بحيث نكوّن حملة واحدة كبيرة. وستخذ لها عنوان 'سته من دنغشاير'».

«فكرة ممتازة».

تابعت مسز ب. حديثها، ووجهها يكاد يلاصق وجه جون فوق حامل

المجلات: «وعلى كل العاملين في المكتبات الدخول في إضراب، مع تنظيم مسيرات بلافتات. لعلك تعرفين أنني قضيت ستة أشهر في ويلز تأييداً لإضراب عمال المناجم سنة أربع وثمانين. كانت فترة عصيبة، لكنه من رابع المستحيلات أن نسمح لتأثير الملعونة بالقضاء على تلك المجتمعات الأهلية، ولن أسمح بتكرار هذا هنا أيضاً».

قالت جون: «لعل الأفضل أن ننتظر ما سيقوله المجلس في الاجتماع أولاً؟ ربما يستمعون إلى صوت العقل ويقون المكتبة مفتوحة».

«هل أنت فعلاً بهذه السذاجة؟». وهزت مسز ب. رأسها مستنكرة.

«حين بلغت سنك، كنت قد اعتُقلت ثلاث مرات بتهمة العصيان المدني. لكننا لم نكن مثلكم يا أبناء جيل الألفينات، آكلي الأفوكادو وشاربي حليب الصويا، بل كنا مؤمنين بمعتقداتنا، ومستعدين للنضال دفاعاً عنها».

وهنا توقفت مسز برانزورث وغامت ملامحها بتعبير غير مألوف. فتخيلت جون كل الذكريات التي فاض بها عقل المرأة، كل التظاهرات التي هتفت فيها، كل الناس الذين عرفتهم وتعاملت معهم، والذين لعل أكثرهم قد رحل عن عالمنا الآن.

قالت مسز برانزورث وقد أفاقت من حلم يقظتها: «علينا أن نناضل. إذا لم نفعل فسوف يأتي يوم يستيقظ فيه أطفالنا فلا يجدون مكتبة واحدة باقية».

سرت رعدة في جسم جون من هذه الفكرة.

«آه، أنتما بالضبط اللتان كنت أبحث عنهما». كان ستانلي يتجه إليهما، ورأت جون أن على رأسه ضمادة صغيرة.

«ستانلي، أنت بخير؟».

لمس الضمادة على رأسه. «أوه، ليس بالأمر الخطير. وقعت وقعة صغيرة ليلة أمس، لكن الطبيب قال إنه لم ير رجلاً في الثانية والثمانين

بمثل صحتي الممتازة». ورفع ذراعيه مثل أبطال كمال الأجسام، متخذاً وضعية لا تتماشى مع شيخ في نحافة عود الكبريت يرتدي البايون. «والآن، ما أخبار مخططات المجلس الخبيثة تجاه هذا المكان المقدس؟».

قالت مسز ب.: «كنت أقول لجون حالاً إن واجبنا الديمقراطي يحتم علينا أن نناضل من أجل المكتبة. يجب أن نرفع أصواتنا يوم السبت لسمعها كل من له أذنان».

«وأنا أتفق معك اتفاقاً لا مزيد عليه. كنت أفكر أنني سأقول...». استدارت جون وتسَلَّلت مبتعدة. كانت احتمالات إغلاق المكتبة هي الموضوع الوحيد لكلام الجميع طوال اليوم، وكانوا كلهم مثل ليندا، ينتظرون من جون أن تتولى قيادة الهجوم في اجتماع المجلس. لكن جون لم يغمض لها جفن ليلة أمس من فرط قلقها، وها هو رأسها الآن ينبض ألماً، فسارت نحو الخلف لشرب كوب من الماء. في أثناء مرورها لمحت باب المكتب ينفتح وتخرج منه مارجري وفي أعقابها شابة ترتدي تاييراً غالي الثمن، وفي يدها لوح مشبكي للأوراق. كان شعرها أسود اللون لامعاً، وقد صبغت شفتيها بطلاء قاني الحمرة جعلها تشبه مسز كولتر في كتاب مواده المظلمة. بل إن جون توقعت ظهور فرد ذهبي اللون يقفز على كتفها.

قالت المرأة: «سؤال أخير، هل هناك مساحات خارجية؟». فردت مارجري: «هناك موقف صغير لسيارات العاملين في الخلف، نضع فيه صفائح القمامة»، وهنا دوّنت المرأة بضعة سطور، ولاحظت جون أن أظافرها مقلّمة بعناية، ومطلية بلون أحمر برّاق يضاهي الشعر الأحمر على اللوح المشبكي.

لمحت مارجري جون وهي ترقبهما. «هل انتهيت من ترتيب الدوريات؟».

«ليس بعد، اعذريني». وانزوت جون حين وجدت الاثنتين تتفرسان فيها.

التفتت مارجري إلى المرأة وبالغت في التنهد. «بصراحة إذا احتجت إتمام شيء هنا فلا بد وأن أتمه بنفسي».

«أعتقد أنني جمعت ما أريده حتى الآن؛ سأتصل بك إذا خطرت لي أسئلة أخرى».

تصافحتا، ثم مضت المرأة نحو الباب من دون أن تتجشم حتى عناء النظر إلى جون.

وفور انصراف المرأة أسرع مارجري إلى جون: «يجب أن أتكلم معك في أمر عاجل».

تبعته جون إلى المكتب وراقبت مارجري وهي تعبث بقدرح على المكتب تعلوه عبارة 'أفضل أمينة مكتبة في العالم'. كانت تبدو أكثر توترًا من المعتاد.

«هل أنت بخير يا مارجري؟».

«أريد أن أتناقش معك في مسألة بالغة السرية، لكن عليك أن تقسمي ألا تخبري مخلوقًا».

هل قالت مسز كولتر لمارجري شيئًا عن مستقبل المكتبة؟ استعدت جون لسماع الخبر الحزين.

«الأمر يتعلق بحفل عزوبية غايل».

وضاق صدر جون لسماع اسم صديقة طفولتها. غايل هي ابنة مارجري وبرايين، وقد صار زفافها المقبل شغل مارجري الشاغل منذ شهور. لكن جون ضاقت ذرعًا بكل تفصيلة من تفصيلاته، من مشهد طلب اليد المسرحي في جزر المالديف إلى اختيار هدايا الحفل إلى مشكلات المتعهدين. وها هي الآن تحاول كتم زفرة ضجر.

«ما مشكلة حفل العزوبية يا مارجري؟».

«حسنًا، قلت لك إنهم سيقومونه في آخر الشارع في متزّه أو كفرد، ألم أفعل؟ لكنني كنت أتكلّم بالأمس مع صديقتي برو، التي تعمل ابتها في الفندق، فقالت إنها سمعت الكثير عن ترتيبات حفل عزوبية غايل، ولا تدري ما هو شعوري تجاه فكرة وجود...». -وهنا تمهلت مارجري، واحمر خذاها وانخفض صوتها- «.. وجود راقص تعرّ في الحفل. رجل من دون ثياب!».

«لا شك عندي في أنه مجرد لهو بريء»، قالتها جون بأشدّ نبراتھا دبلوماسيّة، لأن دخول مارجري في حالة هستيرية كان آخر شيء ينقصها الآن.

«لا يبدو أنك تدريكين دلالة هذا الأمر تمامًا. أنت تعرفين أن زوجي رئيس مجلس البلدية، وبينني وبينك، حينما يحين موعد التجديد له في العام القادم، سيجري النظر في اختياره لمنصب فخامة اللورد النائب. هل تعرفين معنى هذا يا جون؟ إنه ممثّل الملكة في المقاطعة. الملكة شخصيًا!».

لم تتمكّن جون من إيجاد العلاقة بين تلك الأمور كلّها، لكنها قرّرت أن التحلّي بالصمت هو خير السبل. «أنا متأكّدة من أن الأمر كله لهو بريء».

«تخيّلني لو ذاع خبر وجود راقص تعرّ في حفلة غايل. الأمر كفيل بتدمير سمعة براين، وأنا لا يمكن أن أخاطر بشيء كهذا».

كانت المكتبة متروكة بغير إشراف منذ وقت أطول مما يجب. فقالت جون وهي تنظر في ساعتها: «ربما يجدر بك التباحث في الأمر مع وصيفات العروس؟».

«لا جدوى من هذا، فليس هناك أي ودّ بيني وبين تارا وبيكي -الأرجح أنهما فعلتا هذا لمجرد إغاظتي».

لم تُدلّ جون بأي تعليق، لكنها فكرت للمرة الأولى أن مارجري

قد تكون على حق. كان التفريق بينها وبين غايل مستحيلًا وهما في المدرسة الابتدائية، منذ تصادقتا في السادسة بفضل هوسهما المشترك بملدر د هابل. لكن عند بلوغ المرحلة الثانوية تصاحبت غايل مع تارا وبيكي، اللتين تعتقدان بأن الأولاد أكثر تشويقًا من الكتب، واللّتين تنتقيان ملابسهما وكأنهما خرجتا من صفحات سلسلة روايات سويت فالي هاي. وفي يوم وليلة تخلّت غايل عن جون من أجل صديقتها الجديدة تين فصارَت تتجاهلها في ردهات المدرسة، وتغضّ الطرف عن سخرية تارا وبيكي من جون داخل الفصل.

قالت مارجري الغافلة عن حرج جون: «أنت لا تعرفين الصداق الذي سببه لي هذا الأمر. أعرف أنك عزباء، والأرجح أنك لن تضطري أبدًا للخوض في ما أخوض فيه، لكن صديقي، إن ترتيب حفل زفاف من أكثر الأمور إرهاقًا في الكون».



عادت جون إلى المجلات التي كانت قد هجرتها، ووجهها لا يزال ملتهبًا من ألم ذكريات المدرسة. مارجري تثير الحنق ولا شك، ولطالما كانت تذكر جون بمسز بنيت في كبرياء وهوى، لكن ما حدث الآن أكد شكوكها على نحو قاطع. فها هم جميعًا بإزاء تهديد موجّه إلى مستقبل المكتبة وإلى وظائفهم ومصدر رزقهم، ومع ذلك فإن كل ما يشغل مارجري هو حفل عزوبية ابتتها السخيف. خبطت جون بنسخة من مجلة حياة الريف على الحامل بقوة، وفي أثناء هذا لمحت أليكس متجهًا إليها. «أيّا يكن ما فعلته لك هذه المجلة، فلا يمكن أن يكون بهذا السوء؟». ابتمست جون على الرغم منها. «آسفة، لكن رئيسي تدفعني إلى الجنون». ثم خفضت صوتها واختلست نظرة من وراء كتفها للتأكد من أن مارجري لم تزل في مكتبها.

«ليتك تجربين العمل تحت رئاسة أبي. إن أبي يتصرّف كما لو كنت سأنوب عنه في إدارة دولة صغيرة، لا مطعم وجبات جاهزة في قرية».

«كيف حاله؟».

«لا بأس، رغم أنني غير واثق من قدرتي على إخراجه من المطبخ إلى المستشفى». تراجع أليكس بمقدار خطوة ودار بعينه حول المكتبة. «يا ربي، لم آت إلى هنا منذ سنوات. أقسم أنها كانت أكبر حجمًا في طفولتنا. وأقل رثانة».

«لدينا مشكلات في التمويل»، فقالت جون وهي تنظر إلى أليكس المأخوذ بالستائر العتيقة المتربة، والجدران المقشورة الطلاء، والمناضد المخربشة.

«كم تحزنني رؤيتها في هذه الحالة. عندي الكثير من الذكريات السعيدة هنا. كم كنت أحب جلسات الألعاب التي كانت تديرها أمك». فانحسبت أنفاس جون في صدرها، كما يحدث دائمًا كلما تطرّق الحديث فجأة إلى أمها.

قال أليكس: «كما أنها هي التي عرفتني على عالم الخيال العلمي. لعلها قضت ساعات في اختيار كتب ترشحها لي».

«ما زلنا نحتفظ بقسم صغير للخيال العلمي، إذا شئت إلقاء نظرة؟». «في الواقع، كنت آمل أن يكون عندك نسخة من كبرياء وهوى تصلح للاستعارة».

«أنت متأكد؟». ونظرت جون إلى أليكس لتبين ما إذا كان يعابثها. «هناك كتب أخرى ربما تفضلها».

«كلا، أريد قراءة كبرياء وهوى لو سمحت. سمعت أنها ممتازة». وجدت جون نسخة على الرف وعادت بها إلى المكتب، فناولها أليكس بطاقة اشتراك قديمة مطوية.

ثم قال: «أنا أيضًا عندي كتاب لك»، ومدّ يده داخل حقيبة ظهره ليخرج منها كتابًا قديمًا ورقي الغلاف. «أعرف أنك أبديت التوجس من كتب الرعب، لكن هذا كتاب شديد الخصوصية. والمؤلفة من المفضلات عندي».

بوغنت جون حتى لم تدر ماذا تقول. نظرت إلى الغلاف الأمامي
فرأت أنه شقة المقبرة بقلم ماريكو كويكي. «شكرًا يا أليكس، هذه رقة
منك».

«لا عليك، والشكر لك على هذا». قالها ملوِّحًا بنسخته من كبرياء
وهوى فيما كان يمضي نحو الباب. «أرجو أن تستمتعي بهذا الكتاب.
أنصحك فقط بعدم قراءته وأنت بمفردك ليلاً».

رفعت جون صوتها من خلفه، «إذا اضطرت للنوم تحت الأنوار
مرة أخرى فأنا أعرف لمن أوجه اللوم»، ثم أحسَّت بالحرج الشديد حين
استدار عدد من الأشخاص للنظر إليها.

تمعّنت جون في الكتاب. لا بد وأن عمره عشر سنوات على الأقل.
وحين فتحته رأت اسم 'أليكس تشن' منقوشًا على الصفحة الأولى.
انتابتها رغبة مفاجئة في رفعه إلى أنفها وتشمّمه، لكنها وضعت الكتاب
على المكتب. ونظرت إلى الباب لترى إن كان أليكس لا يزال واقفًا
هناك، لكنها رأت بدلًا منه شخصية محنية الظهر تعرج نحو المكتب.
«أريد التقدم بشكوى».

بعينيها الصغيرتين وتعبير الاشمئط على وجهها وبدنها الغليظ،
كانت فيرا كوكس تذكّر جون دائمًا بالعمة سبونج من كتاب جيمس
والخوخة العملاقة. كانت تزور المكتبة عدة مرات أسبوعيًا لاستعارة
الروايات البوليسية والتنغيص على جون.
«ما المشكلة يا فيرا؟».

«عاد الأطفال يثيرون الصخب المفرط حتى أعجز عن سماع نفسي».
«أنا آسفة، لكن كما سبق وقلت لك، لا يمكننا توقّع الصمت من
الأطفال. إنهم يستمتعون بقاعة الأطفال ليس إلّا».

عبس وجه فيرا، وتعمّقت أخاديه. «اللوم كله على أمهاتهم، تأتين
بهم إلى هنا وتركنهم يعيشون فسادًا».

«لا أعتقد أن هذا صحيح».

«وهناك قضية أخرى. هل سمعت بوجود عائلة من المهاجرين استقرت في الحارة الجنوبية؟ رأيتهم بنفسي صباح اليوم».

فأخذت جون نفساً عميقاً. «أهناك ما يمكنني مساعدتك فيه يا فيرا؟».

شمخت العجوز بأنفها. «أعتقد بأنّ المرحاض تعطل مرّة أخرى. لا أستطيع الدخول».

فقامت جون من على المكتب وذهبت إلى المرحاض، متنفسة الصعداء لابتعادها عن فيرا. كان الباب موصداً حين دفعته. «مرحباً، أهناك أحد بالداخل؟».

لم يأتها ردّ على سؤالها.

«هل أنت بخير؟ أنا جون».

وهنا سمعت جرجرة أقدام على الجهة الأخرى، وصوت الترباس وهو يُسحب. ثم انفرج الباب عن شانتال، ابنة السادسة عشرة التي تأتي إلى المكتبة لإتمام فروضها المنزلية. كان أمل شانتال أن تحصل على منحة للدراسة في الجامعة، وكانت جون تساعدُها في المذاكرة أحياناً. لكن عيني شانتال اليوم كانتا محمرتين، والماسكارا ملطخة حول حوافهما.

«شانتال، هل أنت بخير؟».

«لا عليك، الأمر لا يستحق»، قالت وهي تمسح وجهها في كمّ البلوفر.

«متأكدة؟ هل حدث شيء في البيت؟».

«لا».

«ما المشكلة إذًا؟».

«ستظنينني بلهاء».

«لا يمكن طبعاً»، قالتها جون وهي تصطحب شانتال خلف أحد الأرفف للخصوصية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

عبثت يد المراهقة في ضفيرة من صفائرها الطويلة. «الأمر وما فيه هو.. عندي امتحان في الإنجليزية الأسبوع القادم، وأنا على يقين من إخفاقي فيه».

«أنا متأكدة من أنك لن تخفقي. وبوسعي مساعدتك في المراجعة إذا شئت؟».

«لقد ساعدني ستانلي، لكن الامتحان نفسه هو ما يقلقني. أنا جد متوترة، وأعرف أنني سأحملق في الأسئلة من دون أن أتذكر شيئاً من الإجابات. والشّد العصبي يمنعني من النوم».

قالت جون وهي ترى القلق في عينيّ الصبية. «أوه، أنا أتفهمك، صدقيني ربما يمكنك أن تجربتي بعض تمارين الاسترخاء؟ أو البحث عن شيء آخر يشغل ذهنك عن الامتحان».

«مثل ماذا؟».

«حسناً، أنا شخصياً عادة ما أقرأ أحد كتبي المفضلة، لكن قد يكون هذا آخر شيء تريدينه الآن». تفكرت جون برهة، ثم قالت: «وجدتها. لماذا لا تحضري اجتماع المكتبة يوم الخميس؟ سيفيدنا كثيراً وجود ممثلة عن الشباب، كما سيكون في هذا إراحة لذهنك».

«أي اجتماع وأي مكتبة؟».

«اجتماعنا مع المجلس بشأن اقتراح الإغلاق». وهنا رأت جون عينيّ شانتال تتسعان. «يا ربي، أنا آسفة يا شانتال، كنت أظنك تعرفين».

«المجلس يريد إغلاق المكتبة؟».

«ربما، لم يتأكد القرار بعد».

قالت شانتال وصوتها يرتفع. «لكنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا. أنا أحتاج إلى هذا المكان، لا أستطيع المراجعة في البيت، لا يوجد مكان».

«المسألة لم تصبح نهائية بعد، سنعرف المزيد في الاجتماع».

وأحست جون بموجة جارفة من الشعور بالذنب، فشانتال فيها ما يكفيها.

«سيكون كل شيء على ما يرام، أنا متأكدة».

«ماذا عن طلبات التحاقى بالجامعة؟ لقد وعدتني بالمساعدة، ثم إن أمي تحتاج إلى الحاسوب للحصول على الإعانة الشهرية». «فلماذا لا تأتي إلى الاجتماع يوم الخميس لتقولي هذا كله للمجلس؟».

«لا أستطيع، يجب أن أجالس التوأمن نيابة عن أمي»، قالت شانتال وأحنت رأسها. ثم رفعت عينيها إلى جون، وقالت: «هلا تكلمي المجلس نيابة عني؟».

فأحسّت جون بالانقباض المألوف في صدرها. «لا أعتقد أنني أنسب شخص يقوم بهذا».

«لكنهم سيصفون إليك. أنا وأمى في أمس الحاجة إلى هذا المكان، أرجوك يا جون، يجب أن تقولي لهم».

الفصل السابع

وصلت جون إلى قاعة الكنيسة مساء الخميس، فوجدتها قد ازدحمت بالفعل. كانت صفوف من الكراسي قد وضعت أمام منصة مرتجلة، ووقعت عينا جون على ستانلي جالسًا في الصف الأمامي، بجواره مسز برانزورث ترتدي ما يبدو وكأنه تيشيرت منزلي الصنع عليه عبارة 'أنقذوا مكتباتنا' بالقلم الفلوماستر، وليندا وياكسون جالستين خلفهما ببضعة صفوف. نظرت جون حولها على أمل أن تجد شانتال، لكنها لم تر للمرافقة أثرًا.

لمحها ستانلي فلوح لها بيده، مشيرًا إلى كرسي خال بجواره، لكن جون تظاهرت بأنها لم تره وشقت طريقها نحو خلفية القاعة. كان الأمر كله يذكرها بالمدرسة على نحو يفوق احتمالها، فاتخذت لنفسها مقعدًا في الركن البعيد، حيث كانت ترجو ألا يلحظها أحد الليلة.

رأت جون أثناء تأهبها للجلوس امرأة ورجلين يدخلان القاعة، كان أحدهما براين زوج مارجري، الذي لا يقرأ سوى سير حياة قادة العالم. قال براين: «حضرات السيدات والسادة»، وانتظر برهة حتى تصمت القاعة. «كلكم تعرفون سبب اجتماعنا هنا الليلة. في الأسبوع الماضي أعلن مجلس بلدية دنغشاير عن رغبته في إعادة هيكلة خدمة المكتبات في المقاطعة. وكما تدركون من دون شك، فإن مكتبتنا جدّ عزيزة على قلبي...». وهنا أشار براين إلى منتصف القاعة، فلمحت جون مارجري تبسم مثل القط تششاير. «ولهذا فقد طلبت من بعض ممثلي المجلس الحضور للتناقش معنا بالأمر مساء اليوم. ستتاح لحضراتكم فرصة طرح

الأسئلة في نهاية الجلسة، لكن اسمحوالي أولاً بتقديم ريتشارد دونيلي، عضو المجلس، وسارا ثوايت، مسؤولة خدمات المكتبات والمعلومات في المجلس».

وهنا، تحت ناظرِي جون، نهض الرجل الأصغر سنًا. كان في منتصف الثلاثينات، يلبس بنطلونًا من قماش التشينو وقميصًا ورديًا مكويًا بعناية، وبشرة مسمرّة تنم عن عودته من إجازة أو من صالون للتسمير، ومظهره كله يوحي بأنه لم يقرأ كتابًا منذ سنوات، ناهيك عن زيارة المكتبة. بجواره كانت تجلس المدعوة سارا، بابتسامة لا تتجاوز شفيتها. خمنت جون أن قراءتها المفضلة هي كتب المساعدة الذاتية.

قال ريتشارد: «شكرًا على التقديم يا براين. يسرني كثيرًا أن أرى الكثيرين منكم هنا لمناقشة مستقبل مكتبة ليتل ويذام».

سعلت سارا سعلة صغيرة، وحدثت ريتشارد بنظرة نارية، لكنه تابع حديثه غافلًا عن غلطته.

«والآن سأدخل مباشرة إلى قلب الموضوع. بسبب تقلص التمويل من الحكومة المركزية، وتزايد الأعباء المالية الواقعة على المجلس، فإننا بحاجة لتخفيض موازنة المكتبات بواقع ثلاثين بالمئة على مدار السنوات الثلاث القادمة. وفي هذا الصدد ينوي المجلس إطلاق برنامج لترقية وترشيد خدمات المكتبات».

تمتم أحدهم بالقرب من جون: «ما معنى هذه المصطلحات العرجاء؟».

«لقد حدّدنا ست مكتبات في المقاطعة نعتقد بأنها مؤهلة لإعادة الهيكلة، وهي مكتبات: فيفرينغ ومولي وديدام وليتل ويذام وتشالكوت وليف-إند. على مدار الشهور الثلاثة المقبلة سنشرع في إجراء تحليلات معمّقة لأداء تلك المكتبات، بغية تحديد أيّها تقدّم للمجلس أفضل قيمة في مقابل النقود».

«قيمة مقابل النقود؟ إنها مكتبة وليست علبة فاصولياء»، قالتها واحدة من جماعة التريكو والثروة، فسرت في الحضور موجة من الضحك المكتوم. قال براين: «الهدوء لو سمحتم».

وواصل ريتشارد حديثه بغير انزعاج: «لمساعدة المجلس على التوصل إلى قرار، تم التعاقد مع شركة للاستشارات الإدارية ستتولى إجراء التحليلات المعمّقة نيابة عنا. ومن المتغيرات التي سيجري فحصها، عدد الزبائن المتردّدين، وعدد الكتب الصادرة. وعندئذ ستمكن من تحديد المردودية لكل مكتبة».

«كيف يمكنك تحديد قيمة كل ما تقدّمه المكتبة؟». لم تكن جون بحاجة للنظر حتى تعرف أن المتكلّمة هي مسز ب. «مهارات القراءة، والشمول الاجتماعي، وغرس حب القراءة في النشء، هل تقدّر هذه الأمور بالمال يا سيد دونيلي؟».

فقال براين: «قلت إن التعليقات مفتوحة في نهاية الجلسة. والآن أرجو منك الجلوس يا مسز برانزورث وإلا اضطرت لدعوتك إلى الانصراف».

وهنا شمخت مسز ب. بأنفها.

قال ريتشارد: «شكرًا يا براين. في نهاية العملية الاستشارية سيتولى المجلس فحص النتائج، ومن ثم يتخذ قراره بشأن مستقبل كل مكتبة على حدة. وأمامنا ثلاثة اختيارات قيد النظر. الأول هو إبقاء المكتبة مفتوحة بحالتها الراهنة من دون تغييرات. والثاني إبقاء المكتبة مفتوحة لكن تحت إدارة أهلية».

فصاحت امرأة: «ما معنى هذا؟».

«معناه أن يتولى المجتمع المحلي الأهلي مسؤوليات إدارة المكتبة، بما في ذلك تأجير المبنى والكتب والمعدات، من دون تكلفة على المجلس».

فقال ستانلي: «تقصد أن تصبح الخدمة تطوُّعية؟»، وهنا سرت همهمة خفيفة وسط الحضور. «وماذا سيحدث لأمناء المكتبات؟». قال ريتشارد: «المكتبات الأهلية تُدار بواسطة متطوِّعين لا يتلقون رواتب».

كانت مسز ب. قد عاودت الوقوف. وقالت، «إذا فلن تكون مكتبة، بل مجرد قاعة مليئة بالكتب. المكتبة تحتاج إلى أمينة مكتبة، حاصلة على مؤهلات تخصصية وسنوات من الخبرة. هل تقصد أن تقول إن امرأة مثلي قادرة على تقديم الخدمة نفسها التي يقدمها المهنيون المحترفون؟».

امتقع وجه ريتشارد من تحت اسمراره. «الإدارة الأهلية لا تناسب كل المكتبات، ولهذا فإننا في سياق العملية الاستشارية سنقرّر أي المكتبات ستحقّق أكبر استفادة من هذه الفرصة».

تساءلت فيرا: «وما هو الاختيار الثالث؟». «الاختيار الثالث هو إغلاق المكتبة والاستعاضة عنها بخدمة مكتبات متنقلة».

وهنا اندلعت الأصوات في صخب متنافر. وصاح براين: «هدوء! هدوء!»، لكن أحدًا لم يسمعه وسط الضوضاء. «بعد إذنكم جميعًا؟». وقفت سارا بابتسامة مشرقة وانتظرت حتى سكّت الجميع، بينما عاد ريتشارد إلى مقعده. «أرجوكم أن تصدقوني حين أقول لكم إننا لا نحبذ الاضطرار إلى إعادة هيكلة مكتباتنا. لكن في ظل التخفيضات المفروضة علينا من الحكومة، يجب أن نكون عمليين. هناك تراجع ملحوظ في زيارات المكتبات عامًا بعد عام، في كل أنحاء البلاد». صاحت مسز ب.: «أنتم أيها المحافظون الملاعين، نحن نعرف ما تدبّرونه هنا، إنكم تخربون الخدمات العامة بمئات التخفيضات الصغيرة، حتى يتسنى لكم تسهيل الخصخصة والإدارة التطوُّعية».

تظاهرت سارا بأنها لم تسمع هذا. «ونحن بكل تأكيد نثمن الحوار المجتمعي والتشاور مع المجتمعات المحلية، ونريد الإصغاء إلى ما تقولون. ولهذا فسوف نوزع عليكم استبيانًا تبلغوننا فيه بما تريدونه من خدمات المكتبات. إلى جانب نتائج العملية الاستشارية، سيساعدنا الاستبيان على اتخاذ القرار المناسب بشأن مستقبل كل مكتبة من المكتبات الست».

ثم جلست سارا، وهمست بكلمة في أذن ريتشارد الذي هزّ رأسه موافقًا.

قال براين: «شكرًا لكما، ريتشارد وسارا. والآن حانت فرصة جميع الحضور لطرح الأسئلة. لكنني أحذركم، الالتزام بأداب الحوار ضروري وإلا فلا حوار».

ارتفع عدد من الأيدي في الهواء، لكن قبل أن يختار براين إحداها كانت فيرا قد وقفت.

«كيف سأتمكن من تجديد اشتراك الأوتوبيس؟».

فردّ ريتشارد: «أعتقد بأنه يتم على الإنترنت هذه الأيام».

«لكنني لا أعرف كيف أستخدم الحاسوب».

«حسنًا، لا بد وأنك تستطيعين تجديده هاتفياً».

«لكنها خدمة من تلك الخدمات المؤتمتة، وأنا دائماً ما أكبس الزر

الخطأ. ولهذا أستعين بجون لتجده لي في المكتبة».

اقشعرت جون حين سمعت اسمها، لكن أحداً لم ينظر إليها.

واقترح ريتشارد: «ربما يمكنك الاستعانة بصديق؟».

فجلست فيرا عابسة، وأحسّت جون بلذعة إشفاق عليها، إذ كانت

شبه متأكدة من أن العجوز ليس لها أصدقاء تستعين بهم.

«السؤال التالي»، قالها براين وهو يهزّ رأسه في اتجاه جاكسون.

«أنا جاكسون فلتشر، تعليمي كله منزلي، ولهذا أزور المكتبة كل يوم.

أين أذهب إذا أغلقت؟».

تغيّرت ملامح وجه سارا في تعبير مليء بالتفهم وقالت: «مرحبًا يا جاكسون. نحن نأخذ مصالِح كل الأطفال في المقاطعة بمنتهى الجدية، ولهذا فسوف نقوم في سياق العملية الاستشارية بدراسة كيفية إتاحة المرافق للعائلات. أعتقد بأن هناك مركزًا للطفولة في وِتن، ملحقًا بالمكتبة هناك؟».

«لكنه على بعد أميال، وأبواي لا يملكان سيارة. لأن السيارات ضارّة بالبيئة».

«تستطيع أخذ الأتوبيس؟».

«لكن أبي يقول إنه مكلف جدًا».

«إذاً فربما يمكن لأبويك إلحاقك بمدرسة محلية، مثل سائر الأطفال في سنك؟».

وهنا بدأت ليندا الجالسة بجواره تقف على قدميها: «لحظة واحدة لو سمحت...».

فقاطعتها براين: «حان موعد السؤال التالي. أجل يا مستر فيليبس». «مساء الخير سيدتي وسادتي»، قال ستانلي وهو ينهض واقفًا. «كنت أريد فقط أن أقول إن ما تفعلونه هو عملية إجرامية لا أكثر ولا أقل». وشاهدت جون الابتسامة تشحب على وجه سارا.

«منذ سنوات وأنتم تضطهدون هذه المكتبة. إنني أزورها كل يوم وقد لمست الاضطهاد بعيني: لقد قللت ساعات الزيارة، وخفّضتم أعداد الكتب الموجودة على الأرفف، وتركتم المبنى يتداعى من قلة الصيانة. وبالتالي فمن الصحيح أن المكتبة تعاني، لكن الذنب في هذا ذنبكم أنتم بالكامل».

«إننا نواجه مشكلات في الموازنة و...».

«سيدتي، لم أنته من كلمتي»، قالها ستانلي فصمتت سارا. «إن المجلس البلدي يدمّر هذه القرية، فقد أدخلتم تقليلصات على خدمة الأتوبيس، وقمتم ببيع أراضي الحزام الأخضر للمطوّرين العقاريين

الذين يتحرّشون بالسكان المحليين، وها أنتم الآن تطاردون مكتبتنا. ماذا سيبقى من تشالكوت بعد انتهاء مهمّتكم؟».

ردّت سارا: «أؤكد لك أننا نضع المصلحة العليا لكل المجتمعات المحلية نصب أعيننا. لكن علينا التحلي بالواقعية. المجلس يحتاج إلى ضغط النفقات».

قال براين: «بالضبط، حان وقت الانتقال إلى البند التالي».

وهنا قامت مدمنة الروايات الرومنسية الرخيصة وهي تستشير دفتر مذكرات في يدها. «هل هذه العملية قانونية أصلاً؟ لقد أجريت بعض الأبحاث. أليس المجلس ملزماً بتوفير خدمات المكتبات بموجب قانون المكتبات والمتاحف العامة لسنة 1964؟».

ردّت سارا وهي تتقي كلماتها بحذر شديد: «مع حضرتك حق، فالمجلس يضطلع بمسؤولية إلزامية لتقديم خدمات المكتبات. لكن القانون لا يحدّد متطلبات بعينها لهذه المسؤولية. والكثير من المجتمعات المحلية تثنى خدمات المكتبات المتنقلة».

كانت مسز برانزورث تتململ في مقعدها، وتبدو كأنها على وشك الانفجار، فتنهد براين وأوماً لها برأسه.

«طيب، أنا أرى أن هذا كله مجرد كومة من الهراء».

فقال براين: «ألفاظك لو سمحت!».

«لقد قضيت حياتي في مقاومة الظلم، فذهبت إلى متزّه غرينهام في الثمانينات، وذهبت لتأييد عمال الفحم في ويلز، وبالتالي فأنا أعرف كيف أميّز واقع الحال من الاحتيال. وهذه العملية الاستشارية المزعومة احتيال في احتيال. لقد أوضحتم لنا تمامًا أن المجلس لا يرغب في تمويل المكتبة، فلماذا تتظاهرون بأننا نملك تغيير هذا الواقع؟».

قال ريتشارد: «أؤكد لك أننا لم نتخذ أية قرارات بعد بشأن مستقبل تلك المكتبات. ولهذا فقد استعنا بالمكتب الاستشاري، ولهذا نحرص

على سماع آرائكم جميعًا. لن نتخذ القرار إلا بعد انتهاء فترة التشاور، في اجتماع المجلس بكامل هيئته يوم الرابع والعشرين من سبتمبر». فقال براين: «أظن إذا أن الوقت قد حان لاختتام الاجتماع. أية أسئلة أخيرة؟».

جالت جون ببصرها حول القاعة، فوجدت نظرة تسليم حزين بالقضاء على وجوه غالبية الحضور. لكنها تذكّرت شانتال ودموعها، وفكرت في أمها، التي كان من شأنها في لحظة كهذه أن تقف وتوبّخ المجلس، وتسرد كل الأسباب التي تجعل المكتبة مهمة. ماذا قالت ليندا قبل يومين؟ لكن أمك ليست هنا، وإذا فعليك خوض هذه المعركة نيابة عنها.

ملأت جون صدرها بنفس بطيء ورفعت يدها في الهواء، نصف رفعة.

فتنهد براين: «نعم؟».

والتفتت كل عين في القاعة للنظر إلى جون. كان قلبها يدقّ في صدرها، وحين فتحت فمها للتكلم لم تخرج منه كلمة. فقال براين: «هيا لو سمحت، لا نملك الليل بطوله». بدأت جون تتكلّم: «أنا... نحن...».

لم يكن في القاعة صوت، والكل يصيح السمع إلى ما تقول. أمامها ببضعة صفوف من المقاعد كان ريان الصحافي الشاب يشير بهاتفه نحوها. ومن خلفه رأت مارجري، وقد تجهّم وجهها. أحسّت جون بانقباض بين ضلوعها، كأن هناك من يعتصرها، فتهاوت في مقعدها وأغمضت عينيها.

ثم سمعت براين يقول: «إذا كان هذا كل ما هنالك فإنني أنادي برفع الجلسة»، وجاء بعد ذلك صوت احتكاك المقاعد بالأرض، وجلبة الأصوات المتصاعدة. ظلت جون جالسة، بعينين مغمضتين، تتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتها.

الفصل الثامن

في عصر اليوم التالي وصلت جون إلى مناوبتها في المكتبة برأس محنيّ، فقد كان ما حدث يفسّر بالتمام والكمال لماذا لا يجب عليها أبدًا أن تتحدّث أمام الناس؛ والآن سيعتقد كل من في المكتبة بأنها بلهاء. لكن جون دخلت من الباب الأمامي لتجد القاعة تموج بالنشاط، فلم يلتفت إليها أحد.

«ماذا هنالك؟»، توجّهت جون بسؤالها إلى ستانلي الذي كان جالسًا في مقعده المعتاد، يتفرّج على الجلبة باستمتاع.

«ألم تسمعي بالخبر؟ سنشكل جماعة احتجاج، جماعة بعنوان 'اصمكتش'».

«ماذا؟».

«وأول اجتماع سيعقد مساء اليوم في حانة 'المحراث'. لقد اخترت المشاركة بشطائر السجق، بماذا ستشاركين؟».

«اصمكتش يا ستانلي؟».

«لن يفيدك هذا الموقف يا عزيزتي - فالمشاركة هي قوام الاحتجاجات. كنت أقول إنني أصلح لمنصب أمين خزانة الجماعة، وسوف أرشحك لمنصب السكرتيرة بطبيعة الحال».

«أوه، لا أعتقد بأنني أصلح لهذا المنصب».

فقال لها: «كلام فارغ، أنت مثالية للمنصب. أليس هذا رائعًا ومثيرًا؟ سنحارب المجلس كلنا معًا. سنريهم أن هذه المكتبة حيّة تدب فيها الروح».

جلست جون إلى مكتبها وبدأت تفرز كومة الحجوزات التي فات موعدها. كانت سعيدة بعزم الناس على تشكيل جماعة للنضال من أجل المكتبة، مهما كان من غرابة اسمها؛ لكن قيامها بأعمال السكرتارية كان مستحيلًا، لأنه سيعني اضطرارها للتحدث أمام الجميع، وهو ما لم تقو عليه قط. كلا، سوف تحضر الاجتماع لكنها ستختبئ في الخلف وتلتزم الصمت. كانت مسز برانزورث تمضي بخطى سريعة نحو المكتب وهي تلوح بورقة في يدها. «صنعت لافتات لرفعها حول المكتبة بخصوص اجتماع الليلة»، قالتها ودفعت إلى جون بإحدى اللافتات. «وبهذه الطريقة سيتعرف الزوار جميعًا على جماعة الأصص مك تش».

«آه، بخصوص هذا الاسم...».

«ما الذي لا يروقك في أصص مك تش؟ إنها الأحرف الأولى من أصدقاء مكتبة تشالكوت».

فرمشت جون بعينها. «آه، فهمت».

«يقول ستانلي إنك ستولين أعمال السكرتارية، كما أنه ينوي ترشيحي لرئاسة مجلس الإدارة. سبقت لي إدارة مجموعة تشالكوت لتأييد عمال المناجم، فليس في الأمر جديد علي».

«المسألة وما فيها أنني لا أرى نفسي مناسبة لأعمال السكرتارية يا مسز ب. ربما أستطيع بدلًا من هذا تحرير قائمة كتب عن الاحتجاجات؟».

«يمكنك الجمع بين هذا وبين أعمال السكرتارية. سأتولى أنا إدارة الأمر كله، فلن يكون عليك سوى تدوين الملحوظات وإتمام الأعمال الإدارية السخيفة».

«لكنني...».

صاحت مارجوري من الخلف. «جون، أريدك في كلمة، حاليًا». اتجهت جون إلى المكتب وكأنها طفلة مشاغبة استدعتها ناظرة المدرسة.

سألتها مارجري بعد أن أغلقت الباب: «عم كنت تتحدثين مع مسز برانزورث؟».

«لا شيء».

«هل كان الحديث عن جماعة الاحتجاج التي ينوون تشكيلها؟ لأنه لو صح هذا فإنني أقول لك من الآن، لا يمكنك التدخل معهم بأية صورة من الصور».

«ماذا؟ ولم لا؟».

«منذ دقائق كانت تلك المرأة الفظيعة من المجلس، سارا ثوايت، معي على الهاتف - لقد تعرّفت عليك في اجتماع ليلة أمس، وقالت لي، بعبارات لا لبس فيها، إن موظفي المكتبة ممنوعون من التكلّم ضد المجلس أو الإغلاق المزمع بأي شكل من الأشكال».

«ولم لا؟ ليس هذا من حقها!».

«ليتك سمعت أسلوب كلامها معي أنا، تلك السمجة. قالت إنها تذكر جميع العاملين في المكتبة بأن المجلس هو الذي يدفع أجورنا، وإذا تورّطنا في أي تصرف مناوئ لإغلاق المكتبات فإن عقودنا، وهذا نصّ كلامها، 'ستخضع للمراجعة'».

«لكن هذا مخالف للقانون بغير شك؟».

«صفيه كما تشائين، لكن آخر ما ينقص هذه المكتبة هو تعرّضك للطرد بدعوى إحراج المجلس. أنا آسفة، لكن علينا أن نتجنّب لفت الأنظار ونحاول رفع أعداد الكتب الصادرة».

فتردّدت جون، ثم قالت: «هل تقولين فعلا إننا لا نستطيع النضال من أجل وظائفنا؟».

«هذا بالضبط ما أقوله. وإياك وأن تخبري مخلوقًا بفحوى هذه المحادثة بيننا. إذا طلب منك أحد التورط فعليك أن تخبريه بأنك لا تريدن هذا، مفهوم؟».

«ما زلت أرى أن هذا...».

«إنني أسألك، مفهوم؟».

«نعم يا مارجري».

«عظيم. أريد منك الآن إزالة تلك الملصقات المتعلقة بالاجتماع. لا يصح بأي حال من الأحوال أن تبدو وكأننا نشجعهم».

قضت جون ما بقي من النهار في محاولة تجنب الحوارات الدائرة حولها عن اجتماع تلك الليلة. كان جزء منها في حالة من الغيظ: كيف يجروء المجلس على منعها من الانضمام إلى جماعة أص مك تش أو النضال من أجل وظيفتها؟ لكن جزءاً آخر، الجزء الذي تكرهه، كان يشعر بارتياح سرّي. فمعنى هذا أنها لن تضطر للتعامل مع الناس خارج إطار العمل، ولن تضطر للتحدث العلني أو المخاطرة بإحراج نفسها أمام الناس مرّة أخرى. كان كل أملها الآن هو أن تعود إلى البيت فترتدي بيجامتها وتختبئ من العالم بين صفحات كتاب.

في الخامسة إلّا الربع بدأت جون ترتيب المكتبة حين دخلت شانتال مندفة من الباب.

«لقد سمعت بحوادث ليلة أمس».

«أنا آسفة يا شانتال. كنت أريد التكلم نيابة عنك لكن...».

«أخبرني ستانلي بأنكم تشكّلون جماعة لإنقاذ المكتبة. وأنا مستعدة لتقديم المساعدة على مواقع التواصل الاجتماعي».

«لكن المسألة هي أن...».

«سيبدأ الاجتماع في الثامنة، صح؟ سأراك حينذاك».

فتحت جون فمها كي تخبر شانتال بأنها لن تذهب، لكن الصبية كانت قد انصرفت.

في الثامنة إلّا خمس دقائق كانت جون تجلس إلى مائدة مطبخها، تقرض أظافرها وتحقق في ساعة الحائط. لا يمكنها حضور الاجتماع. فهي إذا ذهبت ستعرض نفسها لخطر الطرد، وعواقب هذا أفظع من مجرد التفكير فيها. تناولت جون قسمة من البطاطس المشوية الفاترة. لقد خرج الأمر من يدها، فهي لا تستطيع الذهاب حتى ولو أرادت.

في الثامنة وأربع عشرة دقيقة، بعد أن قرضت ظفرها حتى نزف، انتقلت جون إلى غرفة المعيشة. كانت رواية ماتيلدا تنتظرها على الصوفا حيث تركتها ليلة أمس. في أوقات الشد العصبي كانت جون تعود دائماً إلى كتب طفولتها: روالد دال، ومالوري بلاكمان، وفيليب بولمان، فقد كانت تجد الراحة والعزاء حين تنسى نفسها في القصص التي تعرفها جيداً، الروايات التي كانت تقرأها مع أمها على هذه الصوفا نفسها. لكنها اكتشفت الآن، وهي تحاول التركيز في الصفحة أمامها، أن ذهنها يشرد عنها ويعود إلى مكتبة تشالكوت. لا بد وأن اجتماع أص مك تش قد بدأ الآن، فمن تراه سيحضر؟ مسز برانزورث وشانتال، وبعض الآباء من رواد قاعة الأطفال. وسيحضر ستانلي أيضاً، بالطبع. ترى ماذا سيقول حين يكتشف أن جون لم تحضر؟

ألقت جون بالكتاب من يدها وصعدت إلى الطابق العلوي لإعداد الحمام. لم تكن تفهم الناس حين يقولون إنهم يستحمون للاسترخاء، فقد كانت دائماً تشعر بالحرّ سريعاً، وكلما قالت لنفسها إن الاستحمام باعث على الاسترخاء، زاد تصبّب عرقها وانزعاجها. لكنها الليلة تحتاج إلى الانشغال بأي شيء، ولهذا فقد ملأت المغطس بالماء وأضافت إليه قطرات من سائل الفقاقيع وبدأت تخلع ثيابها.

صعد آلان بنيت إلى الحمام، وقد أثار فضوله هذا التغير غير المسبوق في روتينها المسائي، والتفّ حول قدميها.

ف قالت وهي تدفعه نحو الباب: «إليك عني يا آلان». كشر آلان عن

أنياه وقفز فوق مقعد المرحاض بغطائه الوردي، حيث ألقى يرمقها بنظرات نارية.

نزلت جون إلى المغطس وحاولت أن تغمر نفسها في فقايع الفراولة الصناعية. في طفولتها كان هذا المغطس يبدو لها هائل الضخامة، أما الآن فقد صار يكشف دائماً عن جزء من جسمها. حاولت الاستلقاء على جنبها، لكنها وجدت نفسها تنظر إلى بساط الحمام البني الكئيب. أين كان عقل أمها حين اختارت هذا اللون الكريه لبساط أرضية الحمام، ناهيك عن كونه حماماً وردي الجدران، بمغطس بلون خضرة الأفوكادو؟

كانت جون تعرف تمام المعرفة أين كان عقل أمها. لم تكن بيفرلي جونز تولي أدنى اهتمام للتصميم الداخلي أو الموضة أو ما شابههما من أمور، بل كانت تزين بيتها وابتنها على السواء بما يقع تحت يدها في المتاجر الخيرية ومحلات المستعمل، في خليط عجيب من الألوان والأشكال والطرز. وقد ظل كل سطح من أسطح البيت مكسواً بالقطع العشوائية التي جلبتها بيفرلي إلى البيت من نصبة الفيل الأبيض، وبينما كانت زميلات جون في المدرسة تلبسن الجينز الواطئ الخصر والتشيرتات المقصوفة، كانت ثيابها هي مزيجاً غريباً من قطع الملابس التي تخلق عنها أصحابها من متفاعدين.

فإذا طلبت جون ثياباً أكثر عصرية، كانت أمها تجيبها: «ومن يبالي بنوعية الثياب التي ترتدينها؟ ليس ما تلبسينه هو المهم يا جون يا حبيبتى، بل ما تفعلينه».

كانت بيفرلي صادقة مع نفسها، إذ تتذكر جون واقعة بعينها، حين حاولت المدرسة إلزام الفتيات بارتداء سراويل رياضية بدلاً من الشورتات في حصص التربية الرياضية، فأعلنت أمها أن هذه السياسة تنطوي على تحيز جنسي، وتظاهرت بمفردها عند بوابة المدرسة.

كانت بيفرلي تهتف: «أنا أمينة مكتبة، وأعرف كل واحد من أولياء

الأمر هنا، وقد ساعدت معظمهم على مرّ السنوات. صدّقوني إذا حين أقول لكم، إذا طلبت منهم مقاطعة هذه المدرسة فسوف يفعلون».

ثابت أم جون على هذا لمدة أيام ثلاثة، حتى اضطر المدير إلى تغيير سياسة المدرسة. ومع أن جون أحسّت بالخجل من الاهتمام غير المرغوب فيه الذي تسلّط عليها في المدرسة، إلّا أنها كانت أيضًا في غاية الفخر بأمها.

نظرت جون الآن إلى آلان بنيت، الرابض فوق مقعد المرحاض. «كان من شأن أمي أن تتوقّع ذهابي إلى الاجتماع، أليس كذلك؟».

ظلّ القط يحملق فيها من دون أن يطرف له جفن.

«إنني أريد الذهاب وتأييد المشاركين بالفعل، لكن مارجري منعتني. ليس الذنب ذنبي إذا».

ضيق آلان عينيه وتشاءب.

«وحتى إذا ذهبت فالأرجح أن أتجمّد فزعًا وأخرج نفسي مرّة أخرى. لا فائدة إذا، صح؟».

ردّا على هذا، قفز آلان من فوق مقعد المرحاض برشاقة مدهشة من قط عجوز، وتبختر خارجًا من الحمام وذيله مرفوعًا في الهواء. راقبته جون وهي تتنهد، ثم غادرت المغطس وعادت إلى ماتيلدا والأنسة هني.

الفصل التاسع

حين فتحت جون باب المكتبة في العاشرة من صباح الاثنين، كان ستانلي واقفاً في انتظارها على عتبة الباب.

بادرها فقال، وهو يذلف إلى الداخل: «فاتكِ نصف عمرك في اجتماع يوم الجمعة. أين كنتِ يا عزيزتي؟».

كانت جون قد قضت العطلة الأسبوعية في محاولة التوصل إلى عذر مقنع. «أنا آسفة لكن قطي انحسرت في حلقة قطعة من عظام الفراع». «يا حرام، عسى أن يكون بخير؟».

فبدأت جون ترتب بعض الكتب حتى لا يرى ستانلي وجهها. «إنه بخير الآن، شكرًا».

«طيب، اسمحي لي أن أطلعك على مستجدات الاجتماع. تصادمت مسز برانزورث مع امرأة أخرى تنافسًا على مقعد الإدارة، وفازت بفارق صوت واحد، لكنهما كادت أن تشتبكا بالأيدي. ليتك شهدت الموقف - كانت مسرحية ممتعة. أما أنا فقد فزت بمنصب أمين الخزانة بالإجماع». وشدّ ستانلي تلايب سترته في فخر. «وكذلك تم ترشيحك لمنصب السكرتيرة غيابيًا، والأوراق جاهزة مع مسز ب.».

«لا أعتقد بأنني أستطيع يا ستانلي».

«كلام فارغ، المسألة في غاية البساطة. تدوين محاضر الاجتماعات وما إلى ذلك، وسوف أساعدك في هذا».

«لا أقصد هذا، بل لا أعتقد بأنني أستطيع المشاركة في الحملة من الأساس».

«ماذا تعنين؟».

انكمشت جون تحت نظراته. «أنا آسفة لكن مشاغلي تمنعني من المشاركة في أص مك تش».

فارتخى وجه ستانلي وانعقد لسانه لوهلة. «يجب أن أعترف بأنك تفاجئيني يا جون، كنت أتخيل أن... حسنًا، لا عليك. افعلي ما تريه صائبًا».

«آسفة يا ستانلي لكن...».

«لا داعي للتفسيرات». وابتسم لها ابتسامة باردة، فأحسّت جون بوخزة الذنب وهو يسير مبتعدًا.

بعد عشر دقائق دخلت مسز برانزورث واتجهت إليها رأسًا. «أين كنت يوم الجمعة؟».

«آسفة لكن قطي...».

«لا عليك، لقد كتبت لك كل الملحوظات هنا».

تردّدت جون. «أخشى أن مشاغلي تمنعني. لا يمكنني الالتحاق بجماعة أص مك تش».

حدّجتها مسز ب. بنظرة نارية. «بحق الجحيم يا جون. هناك نساء ألقين بأنفسهن تحت سنابك الخيل حتى تتمتعن بحقوق مساوية للرجال، ثم تأتين الآن لتقولن لي إن الخوف يمنعك من النضال من أجل وظيفتك؟».

فغمغمت جون: «لا أعتقد بأنني أملك الكثير حتى أقدمه».

«بل لديك الكثير والكثير، لا تتحجّجي بهذا. أنت جبانة، لا أكثر ولا أقل». واستدارت كي تنصرف غاضبة، تاركة جون تلتهب احمرارًا عند المكتب.

واستمر الحال على هذا طوال الصباح، فكلما دخل إلى المكتبة شخص ممن شاركوا في الاجتماع، كان يحاول التحدث مع جون عن

أص مك تش. وفي كل مرّة كانت ترى خيبة الأمل في أعينهم حين تخبرهم بأنها لن تلتحق بالجماعة. بحلول ساعة الغداء كان معظم أعضاء الجماعة قد يؤسوا من محاولة إقناعها بالانضمام. فوجدت جون نفسها، وهي تدفع عربة الكتب المرتجعة حول المكتبة، في مواجهة صمت غير معتاد من الرواد المنتظمين. حاولت التصرف وكأن شيئاً لم يكن، لكنها كانت تحسّ بنظرات مسزب. النارية تقع عليها أينما ذهبت، وكلما دخلت إلى قاعة الأطفال كان الآباء يسكتون عن الكلام، سكوتاً له مغزى. بل إن جاكسون نفسه امتنع عن النظر في عيناها عند دخوله لإعادة بعض الكتب. الوحيدة التي تحدّثت إليها هي فيرا، وهي آخر شخص تودّ جون سماعه الآن.

قالت فيرا، وهي تمطر جون بوابل من فتات الكعك: «لا أملك أبداً على عدم التورط، فهذا المكان في خبر كان - لا فائدة من محاولة إنقاذه». أحسّت جون برغبة مستميتة في أن تسأل فيرا، ما دامت تكره المكتبة إلى هذا الحدّ فلماذا تُصرّ على المعجىء كل يوم؟ لكنها ابتلعت لسانها ودفعت العربة من جوارها.

في الثالثة والنصف انفرج الباب عن شانتال التي دخلت مندفة.
«لماذا لم تحضري يوم الجمعة؟»
«أنا آسفة يا شانتال».

«هل أخبروك بما حدث؟ أنا المسؤولة عن ملف التواصل الاجتماعي، وقد انتخبوك لمنصب السكرتيرة. ربما يمكنك في الاجتماع التالي أن...».

«لن أحضر الاجتماع التالي».
«ماذا؟ لماذا؟».

«لا أستطيع. آسفة جدّاً فأنا مشغولة».

ورأت جون وجه الصبيّة وهو ينقبض، فاضطّرت للإشاحة بوجهها.

«كيف لا تشعرين بالاهتمام بالمكتبة؟ أنت لا تختلفين عن أوغاد المجلس في شيء».

«المسألة ليست كذلك، إنها أعقد بكثير».

«لا تعقيد هنالك. إذا لم يكن الأمر يعينك فلا بأس. لا فارق عندي. بل إنني لا أحب هذا المكان أصلاً».

في الخامسة هرعت جون من المكتبة. لم يسبق لها أن أحست بكل هذا الارتياح بعد انتهاء يوم العمل. أبقت عينيها مثبتتين على الرصيف وهي تقطع شارع باراد، لكنها ظلت تحسّ بأعين الناس عليها وهي تمشي. بل إنها تخيّلت سماع شخص يهمهم بكلمة 'خاتنة!'، حين رفعت عينيها لم تر إلاّ أمّا شابة تدفع عربة طفل. ومع هذا فقد أسرعت جون الخطو في اتجاه التنين الذهبي.

تنفست جون الصعداء عند الوصول إلى المطعم. كانت تثق دائماً بأن جورج لن يفتح معها أية حوارات، ولن يطلق الأحكام عليها. لكنها اليوم وجدت أليكس واقفاً خلف النضد، يغني لنفسه بصوت نشار. حين رآها قال: «أهلاً، كنت أرجو أن تأتي اليوم. لقد انتهيت من كبرياء وهوى».

«رائع». وابتسمت جون ابتسامة باهتة، على أمل أن يدرك أليكس أن مزاجها لا يسمح بالثرثرة.

«كانت أفضل من توقعاتي. لعل بعض الأجزاء بطيئة قليلاً، لكن إليزابيث شخصية رائعة، حتى ولو كانت لا تمارس فنون القتال».

«يسرّني أنها أعجبتك. من فضلك أريد الدجاج بصلصة الفاصولياء السوداء مع الأرز الأبيض».

«ماذا تقرّأين حالياً؟ إنني أتطلع إلى ترشيح منك لكتاب جديد».

«أنا جد آسفة يا أليكس، لكنني أرجوك أن تسرع بطلبي، فأنا في عجلة من أمري».

علّت وجهه نظرة خذلان. «تحت أمرك».

سجل أليكس الطلب وبدأ يمسح النضد، فجلست جون وأخذت نفساً عميقاً، استنشقت معه رائحة الثوم المقلي. على الجدار المواجه كانت هناك صورة لامرأة صينية قاسية الملامح، تقطب جبينها لجون منذ بدأت تترتد المطعم مع أمها في الطفولة. واليوم كانت المرأة تبدو أشد سخطاً من المعتاد.

بعد برهة قالت جون لأليكس: «أنا آسفة. لم أقصد أن أكون فظة».

«لا عليك، أنا آسف على ميلي للثرثرة. لكن وحدثي هنا تدفعني للجنون».

«أما أنا فربما أقتل من أجل وظيفة أتمتع فيها بالوحدة».

«هل الأوضاع سيئة في المكتبة؟».

سألته جون: «ألم تسمع؟». هز أليكس رأسه نفيًا. «المجلس يهددنا بالإغلاق».

«مستحيل! لم أكن أعرف». ونظر أليكس إليها مستنكرًا. «ما الذي يدفعهم لهذا؟».

«يقولون إنها تخفيضات موازنة. وليست تشالكوت وحدها».

«الوضع مشابه في لندن. أنا آسف، إنه وضع رديء. هل تقاومون؟».

«هناك حملة مضادة بعنوان أصمكتش».

«أص ماذا؟».

قالتها جون وهي ترفع حاجبًا: «هذا كان ردّ فعلي! إنها اختصار لعبارة أصدقاء مكتبة تشالكوت».

«ما موعد الاجتماع القادم؟ سترني المساعدة طوال وجودي هنا».

حملت جون في المرأة الممتعضة داخل الصورة. «في الواقع، أنا لم أشارك معهم».

«ولم لا؟».

فتحت فمها لكي تردّد الإجابة التقليدية التي كرّرتها مرارًا اليوم، لكنها منعت نفسها. هل ستقلب الدنيا إذا أخبرت أليكس بالحقيقة؟ لقد قال إنه سيبقى في تشالكوت شهورًا قليلة لا غير، ولهذا فمن المستبعد أن ينقل كلامها إلى أحد. ثم إن هناك شيئًا في أليكس يشعرها بأنه جدير بالثقة.

سألها: «ماذا هنالك؟».

«إذا أخبرتك فهل تعذني بآلا تبوح بالأمر لمخلوق؟».

«بشرف الكشافه». ورفع ثلاثة أصابع في الهواء.

ابتلعت جون ريقها. «لقد حظر المجلس على جميع العاملين في المكتبات إبداء أي رأي مناوئ لعمليات الإغلاق. إذا تورّطت مع أص ملك تش، أو حتى إذا عُرف عني أنني أساعدهم، فإنني أخطر بفقدان وظيفتي».

«خسئوا!».

«كما أنني ممنوعة من إطلاع أي مخلوق على سبب امتناعي عن المشاركة، ولهذا فقد افترض الجميع أنني غير مهتمة بأمر المكتبة وهم الآن يكرهونني. لقد كان اليوم في غاية الصعوبة». وتدققت الكلمات من فم جون كأنها المياه من ماسورة منفجرة. «لقد اشتغلت في المكتبة عشر سنوات كاملة، واشتغلت فيها أمني من قبلي. لا يمكن لي أن أتركها تغلق أبوابها». ثم تهاوت إلى الأمام ووضعت رأسها بين يديها.

«لا بد من وجود شيء يمكنك تقديمه للمساعدة؟».

ف قالت من بين أصابعها: «إذا فعلت أي شيء فسوف أفقد وظيفتي. وحتى إذا استطعت، فلن أكون مفيدة كثيرًا على أي حال».

رد أليكس برقة: «هذا غير صحيح».

«بل هو صحيح. ألا تذكر كم كنت خجولة في المدرسة؟ إنني الآن أسوأ حالًا: جبانة تهرب من أية مواجهة».

مرّت برهة صمت قبل أن يتكلّم أليكس. «إنني أتذكّر فتاة كانت هي الأذكى في فصلنا. وكانت تساعد أي زميل متعثر أو عاجز عن فهم نقطة معيّنة. فتاة كانت موضع إعجاب الجميع واحترامهم».

نظرت جون إلى أليكس مدهوشة، لكن في تلك اللحظة علا رنين جرس، فاختفى أليكس داخل المطبخ، وعاد بعد لحظة وفي يده كيس بلاستيكي.

قالت جون وهي تحاول ألا تتلعثم بينما تتناول منه طلبها. «شكراً لك، لعلك لن تخبر أحداً بما قلته لك عن حظر المجلس؟ إذا انتشر الخبر فسوف تقتلني مارجري».

«أعدك بأن سرّك معي في سرّ. وإذا شعرت برغبة في التحدث فأنت تعرفين مكاني».

قالت جون: «أشكرك يا أليكس»، وأحسّت بالدموع تتجمع في عينيها، من أول كلمة عطف تسمعها طوال اليوم. واستدارت نحو الباب قبل أن يراها أليكس، ثم توقفت. «بالمناسبة، أنا أقرأ ماتيلدا».

«نعم، إنها بطلتي المفضّلة على الإطلاق. سأحجز لك نسخة في المكتبة».

بعد عودتها، جلست جون تتناول وجبتها الجاهزة. كانت تشعر بارتياح لإطلاع شخص واحد على حقيقة وضعها في المكتبة؛ فهي لا تذكر متى كان عندها شخص تأتمنه على أسرارها. ومع ذلك فقد ذكرت نفسها سريعاً بأن أليكس سيعود إلى لندن قريباً.

كانت قد أوشكت على الانتهاء من طعامها حين سمعت طرقة على الباب. فتحته فوجدت ليندا تقف خلفه، وهي تحمل آلا بنيت في حالة سخط ظاهر.

«انظري من الذي عاد إلى خزانة الغسيل. أعتقد أنه تبوّل على مناشفي الغالية».

«يا ربي، كم أنا آسفة. سأشتري لك غيرها».

أطلقت ليندا سراح آلان فاندفع إلى داخل المنزل. «بالمرة وأنا هنا، لعلك محتفظة بنسخة أمك من رواية الفرسان؟ لقد حان الوقت كي يتعرّف جاكسون على روايات جيلي كوبر».

«لا بد وأنها هنا في مكان ما، فأنا أحتفظ بكل كتبها». وقادت جون ليندا إلى غرفة المعيشة. كانت تفكر في أن تقول لليندا إن ابن الثامنة قد يكون صغيراً على جيلي كوبر، لكنها توقّعت أن تكتفي ليندا بتجاهلها.

سألته ليندا: «هل احتفظتِ فعلاً بكل كتب أمك؟»، فيما كانت ليندا تتفقد رفّ حرف الكاف. مكتبة سر من قرأ

«طبعاً، لم أتخلص من أي شيء يخصّها».

«ولا قطعة واحدة؟».

وجدت جون الكتاب وناولته إلى ليندا. «أخذتُ بعض ثيابها القديمة إلى المتجر الخيري، لكنني احتفظت بكل شيء عدا ذلك». وهنا رأت وجه ليندا يتغير، فسألته: «ماذا هنالك؟».

«ألا تظنين أن بوسعك التخلص من بعض متعلقاتها الآن؟ لا أقصد الكتب، لكن ماذا عن بعض التحف القديمة؟». والتقطت ليندا تمثالاً صغيراً الفتاة تقرأ كتاباً ولوّحت به. «ماذا عن هذا؟».

أجفلت جون. «أنا أحب هذا التمثال»، قالتها وهي تختطفه من يد ليندا وتعيده إلى مكانه على رفّ المدفأة.

«صحيح؟ لكنه لا يتمتع بقيمة أثرية أو شيء من هذا. إنني أذكر يوم أتت به بيفرلي من نصبة الفيل الأبيض - أعتقد بأنها أخذته مجاناً».

«ليس هذا مصدر قيمته يا ليندا».

«أعرف هذا، لكن أمك لم تكن تتعامل مع هذه الأشياء بعاطفية».

وأشارت ليندا إلى أرجاء الغرفة، إلى تشكيلة الحيوانات الخزفية، والأقداح التي على هيئة أشخاص، وكريات الثلج التي تغطي كل سطح. «لا أريد أن أكون فظة يا حبيبتي، لكنني لا أعتقد بأن أمك كانت تتوقع منك الاحتفاظ بكل شيء، كأنه ضريح أو مزار. كانت لتريد لك فتح صفحة جديدة، وصنع البيت بطابعك الشخصي».

«لكنني لا أريد صبغه بطابعي». اندفعت الكلمات من فم جون بقوة أكبر مما كانت تقصد، فرأت ليندا تجفل. «أقصد أنني أحب وجود متعلقات أُمي من حولي. إنها تُشعرنني.. بالأمان».

تأملت فيها ليندا برهة. «طيب، الأفضل لي الآن أن أعود».

«شكرًا لك على إحضار آلان»، قالت ليندا وهي تتبعها إلى الباب.

كانت تشعر بالذنب لانفجارها بوجه ليندا.

«لا عليكِ». خطت ليندا خارج الباب ثم التفتت إلى جون. «أرجو

منك فقط أن تتذكري أن أمك لم تأبه يومًا بالممتلكات والمتعلقات. صحيح أنها كانت تحب هذه الأشياء كلها، لكنها كانت أكثر اهتمامًا بالخروج والعمل والتمتع بالحياة. وأعتقد بأنها تريد لك مثل هذا».

الفصل العاشر

كانت جون ترقب الرجل وهو يضع متعلقاته في شنطة شبكية. كان يزور المكتبة كل بضعة أسابيع، مرتديًا معطف المطر وبدلة بنية من القطيفة المضلّعة، وكان يتصرف دائمًا بخجل وإن بتهذيب كبير، ويستعير روايات لي تشايلد وجون غريشام البوليسية. لكنه اليوم سأل جون بصوت خفيض أين يجد قسم المواعيد والعلاقات. وحين أرشدته جون إلى المكان، قضى فيه ساعات طوال قبل أن يختار كتابًا بعنوان لغات الحب الخمس: سرّ الحب المستديم، وها هو الآن يضعه في شنطته، إلى جوار فطيرة لحم معلّبة وموزة واحدة. قررت جون أن الرجل يعمل على الصندوق في سوبرماركت، ويعيش وحيدًا منذ وفاة أبويّه الطاعنين في السن، إذ كان الخجل يمنعه من مفاتحة النساء، لكنه وقع في غرام مطلقة تعمل على الصندوق المواجه لصندوقه. وبما أنه لم يخاطبها قط ولو بتحية الصباح، فقد قضى شهرًا يستجمع شجاعته لدعوته إلى الخروج. وأخيرًا اقترب منها ذات يوم، قائلاً:

«آسف للمقاطعة، لكن هل بوسعك مساعدتي في مسألة فنية صغيرة؟». كان ستانلي يقف بجوار المكتب، ناظرًا إلى جون. «أحتاج إلى طباعة ورقة، لكنني عاجز عن تشغيل الطابعة اللعينة».

«بالطبع»، قالتها وهي تتبعه نحو الحاسوب. ستانلي هو الوحيد من أعضاء أصم مك تش الذي يخاطب جون، رغم أنه توقف عن طلب مساعدتها في الكلمات المتقاطعة. «كم نسخة تريد؟».

«عشرين لو سمحت، فهي عريضة التماس بشأن المكتبة».

حافظت جون على حياد ملامحها، لكنها أحست بدفعة ارتياح. لقد مرّت أربعة أسابيع على بدء العملية الاستشارية، لكن جماعة أصمك تش لم تفعل شيئاً، حتى الآن، سوى عقد اجتماعات لا تنتهي. وقد حاولت جون التنصّت على خطّتهم، لكنهم كانوا دائماً يتوقفون عن الكلام كلما اقتربت منهم.

قال ستانلي: «إنها فكرة مسز برانزورث»، بينما كانت جون تناوله الورق المطبوع. «ستترك نسخاً من الالتماس في الحانة وفي متجر ناريش، بحيث يراه كل أهل القرية».

نظرت جون من خلف كتفها للتأكد من أن مارجري ليست قريبة، ثم خفضت صوتها. «لن أحاسبك على تكاليف الطباعة».

فشكرها ستانلي مبتسماً. «عندنا اجتماع آخر للجماعة الليلة، ولم يفت أوان الانضمام».

يا إله السموات. «أخشى أنني مشغولة الليلة».

«أعرف أنك تصابين بالقلق وسط التجمعات، لكنك غير مضطّرة للتكلّم. ستكون ملحوظاتك موضع تقديرنا الكبير».

«أسفة يا ستانلي لكنني مشغولة».

فأطلق تنهيدة. «لا عليك يا عزيزتي».

عادت جون إلى المكتب. لشّد ما كانت تكره الكذب على ستانلي،

الذي كان دائماً رقيقاً معها، لكنه إذا عرف بالخطر المفروض عليها فقد

يخبر مسز ب.، وعندئذ فقد يصل الخبر إلى المجلس بأن جون أفشت

السّرّ وحينها فسوف...

«جون!».

أجفلت جون من صوت رئيستها المدوّي عبر المكتبة. هل سمعتها

مارجري وهي تكلم ستانلي عن أصمك تش؟ «نعم يا مارجري؟».

«أريدك في كلمة».

اتجهت جون إلى المكتب بفم جفّ منه اللعاب. لكنها دخلت فوجدت مارجري جالسة خلف مكتبها وعلى وجهها تعبير غريب.

«مرحبًا يا جون. تفضلي بالجلوس لو تكرّمت».

خلال سنوات عملها العشر في المكتبة، لم يسبق لجون أن سمعت مارجري تخاطبها بهذه الرقة. لا بد من وجود مشكلة.

«تفضلي»، كررتها مارجري وهي تبتسم ابتسامة مشدودة.

جلست جون وقد ازدادت توترًا على توتر.

ف قالت مارجري: «لقد استدعيتكِ إلى هنا لأنني بحاجة إلى مساعدتك في مسألة شخصية. سأكون شاكرة إذا أبقيتها طي الكتمان التام. مسألة متعلّقة بغايل».

فكتمت جون أنين الضجر، متخوّفة من مهمة أخرى تتعلّق بحفل الزفاف. بالأمس فقط أجبرت مارجري جون على التخلي عن استراحة الغداء من أجل البحث عن شركة محلية مستعدة لتوفير طيور الحمام الحيّة، بغية إطلاقها عند تبادل العهود.

سألت جون من بين أسنانها: «ماذا تريد مني؟».

«لعلك تعرفين أن حفل عزوبية غايل خلال أسبوعين. وكما تعرفين أيضًا فإن فكرة وجود راقص التعري جعلت القرحة في معدتي تنتكس».

«أتحبين أن أخرج لشراء المزيد من مضادات الحموضة؟».

«كلا»، وتمهلت مارجري في حديثها. «بل أريد منك حضور حفلة غايل وإيقاف الراقص».

شرقت جون من المفاجأة. «ماذا؟».

«اسمعي لي للنهاية. ألم تكوني أعزّ صديقات غايل؟».

«في المدرسة الابتدائية فقط».

«لكنها قالت لي ليلة أمس على الهاتف إن العديدات من صديقاتها اعتذرن عن الحفلة، فلم تعد الأعداد كافية للفعاليات المزمعة».

«أجل، لكن...».

«ولهذا فقد أخبرت غايل بأنك مستعدة للحضور بكل سرور، ووافقت هي على صلاحيتك لاستكمال العدد».

نظرت جون إلى رئيستها في ذهول. «مارجري، أنا وغايل لم نعد صديقَيْن منذ كنا في الحادية عشرة، ولم أرها منذ سنوات. ما الذي يدفعني لحضور حفل عزوبيتها؟».

«بالله عليك، أنا وأنت نعرف جيدًا أن حياتك الاجتماعية صحراء جرداء. هذه فرصة ممتعة بالنسبة لك».

«كلا، ولا فرصة ولا...»، أسكتتها مارجري بيدها المرفوعة. اختفت ادعاءات الرقة والتهذيب كلها.

«جون، إنني أمرك بصفتي رئيستك أن تحضري حفل العزوبية. لا يمكن أن أخطر بوجود راقص تعرّخيص، ووصول الخبر إلى لجنة اختيار فخامة اللورد النائب، وتلوّث سمعة براين وسمعتي. يجب أن تمنعي حدوث هذا».

«لكن كيف لي أن أفعل هذا؟».

«ستخطر لك فكرة من دون شك». وقفت مارجري واتجهت إلى باب المكتب. «لن أنسى لك هذا الصنيع، سيكون موضع تقدير كبير». ووقفت بجوار الباب كالديدبان حتى انصرفت جون.

في نهاية مناوبتها، أسرعّت جون إلى مغادرة المكتبة ورأسها يدور. كانت قد روّضت نفسها طوال سنوات على عدم التفكير في المدرسة أو في غايل سبنسر، لكن ها هي كل الذكريات الأليمة تعود لتهاجمها.

كانت جون قد تألمت كثيرًا من تخلي غايل عنها بمجرد أن بدأت الدراسة الثانوية. وكان ردّ فعلها هو أن تدفن نفسها تحت الكتب، نائية بنفسها عن كل من حولها. لقد أدركت جون أن الناس قادرون على

الإيلام، على نحو لا تقدر عليه شخصيات الروايات. توّسلت إليها أمها أن تترك الكتب جانبًا لكي تكتسب صداقات جديدة، لكن جون اكتسبت صديقة واحدة فلم تجد منها إلاّ العقوق. وعلى هذا فقد قرّرت أن تختفي عن الأنظار حتى تترك هذه المدرسة وتنسى غايل وما كان منها. ستختلف الأمور من دون شك في الجامعة، كما كانت جون تقول لنفسها بين الحين والآخر: سيكون هناك أناس أكثر، وسوف تعثر على أصدقاء يشاركونها اهتماماتها. وحتى ذلك الحين فإنها ستجد الأُنس والرفقة مع بطلات كتبها، مع إليزابث بنيت وجو مارش.

لكن الآن، بعد كل تلك السنوات، ها هي مارجري تنتظر من جون أن تحضر حفلة غايل وتتظاهر بأنهما لا تزالان صديقتين، بينما تسخر منها تارا وبيكي وكل الأخريات وراء ظهرها، تمامًا كما كان الأمر في الماضي. ثم إن المأساة لا تنتهي هنا، فالمفروض أن تتمكّن جون أيضًا بطريقة ما من منع راقص التعري من أداء فقرته. تجهّمت جون من تخيل الفكرة؛ لا بد لها من الخروج من هذه الورطة، أيّا كانت الطريقة.

أسرعت جون الخطو في اتجاه بيتها وكتاب مزرعة كولد كمفرت الذي ينتظرها هناك. لكنها عند المرور من أمام المخبز سمعت من ينادي باسمها. وحين استدارت، رأت ستانلي يخرج من المكتبة ويلوّح بذراعه في الهواء. انتظرت جون حتى يلحق بها، وهي تدعو الله ألاّ يعيد محاولة إقناعها بالانضمام إلى أصص مك تش.

قال ستانلي حين وصل إليها: «مرحبًا، عزيزتي. يسرني اللحاق بك، فقد غلبتني الكلمات المتقاطعة اليوم وخطر لي أنك قد تساعدينني». وأخرج صحيفة من حقيبته.

ف قالت جون باستنكار زائف: «ستانلي، أهذه الصحيفة مسروقة من المكتبة؟».

«بل مستعارة، لا مسروقة. سأعيدها أول شيء في الصباح».

ابتسمت جون وتناولت منه الصحيفة، سعيدة بأنه قد عاد يطلب مساعدتها.

فقال: «سبعة رأسية. اعتراض الضحايا الغاضبين، من ستة أحرف». نظرت جون إلى فراغات الكلمات المتقاطعة ورأت أن بعض الخانات فيها حروف بالفعل. «أعتقد أنها مناضلة يا ستانلي». «صحيح؟». ونظر إلى الصحيفة عابسًا. «ما أشد بلاهتي، إنها كذلك فعلاً. هل تمضين في هذا الاتجاه أنت أيضًا؟».

فانطلقا جنبًا إلى جنب، من دون أن ينبس أحدهما بكلمة وهما يمضيان بطول شارع باراد. كانت لجنة تشالكوت للتشجير والتزهير قد نشطت في الأسابيع الماضية، فظهرت سلال الزهور الملونة معلقة من كل أعمدة الإنارة وتندت المحلات، لكن جون وجدت نفسها عاجزة عن التمتع بها اليوم. كانت تحسّ بالصمت المحرج يقوم بينها وبين ستانلي، فذكرت نفسها مرة أخرى بأن هذا الوضع إنما يشرح لماذا لا يجب عليها التحدث مع الرواد خارج المكتبة.

«لعلمك، إنني أذكر أول أيام عملك في المكتبة»، قال ستانلي وهما يدوران يسارًا عند مكتب البريد، للانحدار مع التل.

«أما أنا فلا أذكر، اليوم كله غائم في ذهني».

«كنت هادئة كالقارة، لم أسمعك تنطقين طوال اليوم. وكنت تبدين مذعورة».

«كنت مذعورة فعلاً».

«كم كان عمرك؟».

«ثمانية عشر عامًا».

قال ستانلي: «يا للهول. اسمح لي بسؤال، لماذا قررت العمل كمساعدة لشؤون المكتبة؟».

فأخذت جون برهة للتفكير قبل أن تجيب. «مرضت أُمي أثناء

امتحاناتي النهائية، ولهذا فبدلاً من دخول الجامعة أصبحت ممرضة لها. كنا بحاجة للمال، فعيّنتني مارجري في وظيفة مساعدة لشؤون المكتبة بدوام جزئي لحين تعافي أُمي وعودتها إلى عملها في المكتبة. لكن هذا لم يحدث...».

وانقطع كلام جون، وحين عاود ستانلي التكلّم كان صوته خفيضاً بحيث كادت جون ألا تسمعه.

«وها أنت هنا لا تزالين، بعد مرور عشر سنوات.»

«أعرف هذا.»

تابعا المسير في صمت، من أمام متنزّه القرية، حيث رأت جون أباً وطفله يطعمان البط في البركة الصغيرة. وعند بلوغ التين الذهبي اختلست جون نظرة من النافذة لترى إن كان أليكس هناك، فكثيراً ما كان يخرج لإلقاء التحية والثرثرة معها عن الكتب، لكنه لم يظهر اليوم. ولم يتكلّم ستانلي حتى اقتربا من الكنيسة.

«لقد قابلت الكثير من أمماء المكتبات في حياتي، وأعتقد بأن أمك كانت من خيرة الأمماء.»

سألته جون وهي تبتسم: «ألم تكن رائعة؟»، كانت تبدو وكأن الأمر كله سهل عليها، كأنها ولدت للعمل في مكتبة.»

«ولعلك أنتِ أيضاً ولدت لهذه الوظيفة، واضح أنها تجري في دمك.»

«كلا، أبداً. أنا أعشق العمل في المكتبة، لكنني لا أتمتّع بعفوية أُمي وتلقائيتها. إنني خجولة، أكره التكلّم أمام الناس، ولهذا لا أستطيع إدارة الأنشطة والفعاليات كما كانت أُمي تفعل. أنا بلا فائدة، في حقيقة الأمر.»

رفع ستانلي حاجبه متعجباً، لكنه لم يتكلّم، فتابعت جون حديثها. «يخطر لي أحياناً أن السبب الوحيد الذي منع مارجري من تنحيتي هو الولاء لأُمي. وها هي ستتقاعد في الكريسماس، والله وحده أعلم بمصيري بعد هذا.»

سألها ستانلي: «أهذا هو ما تعتقدينه فعلاً؟». وأحنت جون رأسها إيجاباً. «عزيزتي، مارجري لم تطردك لأنها تعرف جيداً أن المكان كله سينهار من دونك. أنت الملاط الذي يمسك مكتبة تشالكوت بعضها ببعض».

فلم تملك جون إلا أن تضحك. «هذا هراء، فمارجري هي التي تقوم بكل العمل الشاق».

«أنت فعلاً عاجزة عن رؤية الحقيقة؟». وتوقف ستانلي والتفت حتى يواجهها. «قولي لي لو سمحت، من الذي سيشجع جاكسون الصغير في كل مشروعاته في غيابك؟ من الذي سيطيّب خاطر العجائز رغم كل الشكاوى والتأفف؟ من الذي سيساعد الناس للحصول على إعاناتهم؟ ومن الذي سيحل الكلمات المتقاطعة مع شيخ أبله مثلي؟ إنك تقومين بما يتجاوز حدود الواجب بكثير من أجل رواد المكتبة».

«لكن أُمي كانت دائماً تقول إن مهنة أمين المكتبة تشبه مهنة الأخصائي الاجتماعي، وبالتالي فإن أي شخص يمتنها سيفعل ما أفعله. وربما يفعل الكثير مما أعجز عنه بسبب الخوف والخجل».

فأطلق ستانلي تنهيدة مسموعة. «ماذا عن جيم تكرر؟». لم يخطر مستر تكرر على بال جون منذ سنوات، لكن ذكر اسمه أصابها بغصة في الحلق.

كانت قد تعرّفت على جيم بعد قليل من بدء عملها في المكتبة. في ذلك الوقت كانت المكتبة لا تزال تفتح أبوابها صباح السبت، فكان يأتي ومعه حفيده في معظم الأسابيع. ولم تلق جون إليه بالاً، فيما عدا ملاحظتها أنه كثير التذمر، وأنه كان يسفّه اختيارات الطفلين للكتب كلما عرضها عليه. لكن ذات يوم، بعد ستة أشهر من العمل في المكتبة، كانت جون عائدة إلى بيتها حين لمحت جيم يجلس على دكة ويحملك في الفراغ. قاطع ستانلي أفكار جون قائلاً: «قبر جيم هناك أمامنا، كما تعرفين».

كان يشير عبر الطريق إلى باحة الكنيسة، وكانت جون ترى الدكة نفسها التي جلست عليها مع جيم طوال تلك السنوات.

لم تستطع جون أن تذكر كيف بدأ حديثهما في ذلك اليوم، لكنها تذكّرت جيم وهو يحكي لها عن تلقّيه خبراً سيئاً من طبيبه، وأن صحته ليست على ما يرام. قدّمت له جون كلمات المواساة التقليدية، وحيثُ قال لها ما شلّ تفكيرها. هل تعرفين أكثر شيء أندم عليه؟ فنظرت جون إليه وهي تتساءل عما سيعترف لها به. إنني لم أقرأ قصة لحفيدتي قط.

فقالت له جون إنها مشكلة بسيطة، وإن بوسعه أن يقرأ لهما يوم السبت، وسوف تساعد على اختيار كتاب جيد. وهنا هزّ جيم رأسه، وأطلع جون على أخفى أسرارها: إنه لا يعرف القراءة. قال لها إن زوجته كانت تعرف، لكنه تمكن طوال حياته من إخفاء الأمر عن بقية الناس جميعاً: عن أرباب عمله، عن أصدقائه، بل حتى عن أبنائه. لقد منعه العناد والحرص من الاعتراف سابقاً، لكن الأوان قد فات الآن، ولن يتمكن أبداً من أن يقرأ لهما.

عندئذ قال ستانلي: «لعلك تعرفين أنني كنت أراك مع جيم عند النهر».

«كان عزيز النفس، رفض أن يعرف مخلوق بمساعدتي له، فكنا نتقابل سرّاً بعد انتهائي من العمل».

استمرت الدروس طوال تسعة أشهر. كان جيم يعاني من عسر القراءة، فكانت أبسط الكلمات تثير حيرته. لكنه في النهاية، وببطء شديد، بدأ يتغلب على مشكلته.

قال ستانلي: «أذكر أنني دخلت المكتبة ذات يوم قبل الكريسماس، ورأيت جيم هناك. كان حفيده معه، وكانا يشاغبان قليلاً. وفجأة سحب جيم العجوز كتاباً من على أحد الأرفف وبدأ يقرأ لهما. ولن أنسى ما حييت النظرة التي علّت وجهي الطفليْن».

كانت جون تتذكّر تلك النظرة أيضًا، فابتسمت. «كان كتاب الأرنب بيتر. كانت حفيدته تحب الأرنب، ولهذا ظل جيم يتمرن على الكتاب لأسابيع متصلة».

قال ستانلي إن جيم خطر على باله كثيرًا في الأيام الأخيرة. «لقد دفعني كل ما حدث إلى التفكير فيمن عرفتهم من أهل هذه القرية، وكيف تلقوا المساعدة من المكتبة. بل كيف تلقوا المساعدة منك أنت».

ثم تردّد للحظة، وهو ينظر في اتجاه باحة الكنيسة. «وهذا أكثر ما يضايقني في حكاية المجلس وتهديده. إن ما لن يدركه هؤلاء الاستشاريون المتخصصون في علوم الإدارة، بآلاتهم الحاسبة وجداولهم الإلكترونية، هو أن المكتبة شيء أكبر بكثير من الكتب. إن المكتبة أشبه ما تكون بشبكة الأمان، شبكة ممدودة كي تحمي هؤلاء المعرضين لخطر السقوط من بين الشقوق. وهذا هو ما نناضل من أجل حمايته».

ثم توقّف ستانلي، وانتظرت جون الجملة التالية، جملة 'ولهذا يتعين عليك الانضمام إلى أص مك تش'. لكنها حين نظرت إلى ستانلي رأت أن عينيه مخضلتان بالدموع. سارع ستانلي إلى تجفيفهما، وأشاحت جون بنظرها بعيدًا حتى تحفظ له كرامته. وحين عاودت الالتفات إليه كان قد تمالك نفسه.

«لقد أخذت ما يكفي من وقتك يا عزيزتي. لا بد وأن عندك مكانًا تريد الذهاب إليه».

«صحيح؟».

فمدّ ستانلي يده ووضعها على كتفها. «أنت مشغولة، ألا تذكرين؟ وهذا هو ما يمنعك من حضور اجتماع أص مك تش الليلة». استدار ستانلي كي يصعد التل، كما جاء قبل قليل. وفي هذه الأثناء كانت تراه يتمتم لنفسه. «مناضلة، كان المفروض أن أعرفها لوحدي».

الفصل الحادي عشر

في صباح الجمعة كانت جون تجهّز المكتبة حين سمعت طريقة خافتة على الباب. فتحته لتجد أمامها امرأة واقفة بالخارج، في ثوب طويل وحجاب يغطي رأسها.

فقلت لها جون: «صباح الخير، أخشى أننا لن نفتح قبل عشر دقائق أخرى».

نظرت إليها المرأة في حيرة.

«عشر دقائق أخرى»، قالتها جون وهي ترفع عشرة أصابع.
«كتب طبخ؟».

كانت جون على وشك أن تكرر عبارة عشر دقائق لكنها أمسكت نفسها. كانت مارجري تشدّد في عدم السماح للرواد بالدخول قبل موعد العمل الرسمي، لكن ربما يجوز لجون أن تلتف حول القواعد هذه المرة. قالت جون وهي تتنحّى جانباً: «أكيد، تفضلي بالدخول. أنا جون، مساعدة شؤون المكتبة».

فردت المرأة بصوت خفيض: «ليلي».

«مرحباً يا ليلي، كتب الطبخ في هذا الاتجاه».

فقلت ليلي: «الكعك.. بعد إذنك».

«عندنا الكثير من كتب الحلويات، ما رأيك في هذا؟». انتقت جون واحداً من كتب بول هوليوود وعرضته على ليلي. لكن المرأة هزّت رأسها، ووقفنا كلتاهما تتأملان الرفّ.

«هذا؟». وأشارت ليلي إلى وجه ماري بيري المبتسم لهما على غلاف كتاب.

«أنا شخصيًا لا أجد صنع الحلويات، لكن ماري ييري تتمتع بشعبية واسعة، وتظهر على التلفاز». وبدأت جون تقلد حركات مقامي برامج التلفاز. «لا ينقصك سوى بطاقة اشتراك وبعدها يمكنك العودة به إلى البيت». عاودت ليلي تقطيب جبينها.

«لا عليك، يمكنني مساعدتك في هذا. هل معك إثبات لمحل الإقامة؟ عنوان بيتك؟».

أحنت ليلي رأسها إيجابًا فقادتتها جون إلى المكتب. بعد خمس عشرة دقيقة كانت ليلي تغادر المكتبة ومعها دليل ماري ييري لخبز الحلويات، فأحست جون بلذة الرضا. لذة دامت نحو عشر ثوان، ثم ظهرت فيرا عند المكتب.

«ماذا كانت تريد؟».

«صباح الخير يا فيرا».

«هذه هي المهاجرة التي حكيت لك عنها. هل من حقها استخدام المكتبة؟».

«طبعًا، فالمكتبة مفتوحة للجميع»، قالتها جون بأشد نبرات صوتها صلابة.

«وهل استعارت كتابًا لوصفات الطبخ؟».

«كتاب ستيفن كينغ الأخير سيصلنا هذا الأسبوع - هل أحجزه لك؟». فما كان من فيرا إلا أن شمخت بأنفها والتفتت كي تغادر المكتبة متكئة بكل ثقلها على عكازها.

راقبتها جون وهي تنصرف. لطالما كانت فيرا زبونة صعبة، لكن سلوكها بدا مؤخرًا وكأنه يزداد عدوانية، فعزمت جون بينها وبين نفسها على مفاتحة مارجري بالأمر.

ثم أحست بشيء ينتفض في جيبها، فمدت يدها وسحبت الهاتف. ووجدت على الشاشة أيقونة البريد الإلكتروني، وحين نقرتها سقط قلبها في معدتها. كانت الرسالة من غايل.

مرحبًا بالغريبة، لم أراك منذ وقت طويل! قالت أمي إنك راغبة في حضور حفل عزوبيتي - هذه رقة كبيرة منك! سيقام الحفل في منزله أو كفرد، بعد أسبوعين يوم السبت، بدءًا من منتصف النهار. ارتدي ثيابًا تنكرية، فثيمة الحفلة هي نجمات السينما، وفي المساء ستجول بين الملاهي والمراقص. سمعت أن صديقتي وضعت خططًا كلها إثارة، فحاولي أن تتركي تحفظاتك كلها في البيت!!! أراك حينئذ.

قرأت جون الرسالة الإلكترونية مرتين، بإحساس متصاعد بالانزعاج. الأمر أسوأ مما تخيلت: ملابس تنكرية... ملاء ومراقص... كلها إثارة. يجب أن تجد عذرًا تتعلل به كيلا تذهب، حتى ولو جلبت على نفسها غضب مارجري. مدت جون يدها لتعيد الهاتف إلى جيبتها، فانزلق من بين أصابعها وسقط على الأرض. نزلت جون على ركبتيها وهي تلعن الحظ من بين أسنانها، لاستعادة الهاتف من تحت المكتب. «مرحبًا، أريد الخروج مع أمينة المكتبة».

انتفضت جون حين سمعت صوت أليكس، فخبطت رأسها في سطح المكتب السفلي. «أي!» ثم نهضت وهي تتحسس رأسها. «آنا آسفة... ماذا كنت تقول الآن؟».

«قلت إنني أريد الخروج مع أمينة المكتبة، لو سمحت؟».

فأحست جون بوجهها يتضرج. وفتحت فمها كي تتكلم، لكن أليكس رفع بيده نسخة من كتاب أمينة المكتبة بقلم سالي فيكرز. «من أجل عمتي، فقد أتت للإقامة معنا».

«آه طبعًا طبعًا»، قالتها جون وهي تقف وتختطف الكتاب من يده. هنا قال أليكس، غافلاً عن حرجها: «لقد انتهيت من غاتسبي العظيم. كنت على حق، إنه كتاب مذهل. لكن ما أعجب هؤلاء الناس. ربما كان غاتسبي يجيد إقامة الحفلات، لكنني لم أكن لأسعى إلى مصادقته».

كان جون وأليكس يتبادلان ترشيحات الكتب منذ شهر، فأطلعته

جون على بعض الكلاسيكيات الأثيرة إلى قلبها، من مغامرات أليس في بلاد العجائب إلى تس ابنة آل دربرفيل، وبعد بضع بدايات خاطئة مع كتب الرعب، صار أليكس الآن يعيرها كتب الخيال العلمي والفانتازيا التي أحبها في مراهقته.

«كيف تسير قراءتك لكتاب الهوية؟».

قالت جون وهي تتنفس الصعداء لعودة الحديث إلى برّ الأمان والكتب. «ممتازة، لم أتوقع أبدًا أن أستمع بتولكين، لكنه رائع فعلاً».

«أليس حكاية من الطراز الأول؟».

«إنني أدرك الآن لماذا يُقبل الناس على روايات الفانتازيا؛ فهي مهرب مثالي من الحياة الحقيقية».

«أما زالت الأمور مضطربة هنا؟».

خفضت جون صوتها: «أجل، لكنني لا أستطيع التحدث عن هذا الآن».

«ما رأيك إذاً لو خرجنا لتناول الشراب الليلة فتحكين لي؟». انتظرت جون كي ترى إن كانت قد أساءت الفهم مرة أخرى، لكن أليكس تابع حديثه: «ستشارك عمتي في إدارة المطعم الليلة، وبالتالي فقد حصلت أخيراً على ليلة إجازة. كنت أفكر أن نذهب إلى مولي لتغيير المناظر، ورفقتك ستسرّني إذا لم تكوني مشغولة».

شغلت جون نفسها في تختيم كتابه حتى لا تضطر للردّ الفوري. كانت ليلة الجمعة، مما يعني أن الحانة ستزدحم وتضطرب، وفور انتهاء الكلام عن الكتب، ماذا سيقى لهما كموضوع للحديث؟ تخيلت جون الصمت المتوتر الذي سيقوم بينهما، وأليكس يزدرد شرابه بسرعة حتى يستعجل الهرب منها.

فقالت: «لا أستطيع الليلة»، وهي تناوله نسخة أمينة المكتبة.

«أوه، خسارة».

«أنا آسفة، لكنني مشغولة بأمور شتى. يجب أن...».

«مرحى مرحى، ما هذا الذي أراه أمامي؟». كانت ليندا تقف خلف أليكس بابتسامة عريضة لهما معاً. «أنت ابن جورج؟ انظر كم كبرت! أبوك يقول إنك أصبحت محامياً».

«هذا صحيح. مرحباً يا...». ونظر أليكس إلى جون يطلب المساعدة. «هذه جارتى الملاصقة، ليندا».

«جارتك الملاصقة؟ أهذه هي طريقة تقديمي للناس؟». ورفعت ليندا حاجب الاستنكار. «إنني أعرف جون منذ كانت في الرابعة، كنت أعزّ صديقات أمها. في طفولتها كانت تجري حول حديقتي الخلفية عارية تماماً و...».

«هل تريدان إعادة هذه الكتب؟»، قالت جون وهي تشير إلى الكتب في يد ليندا.

«آه نعم لو سمحت يا حبيبتي. لعلني أخترتها قليلاً». والتفتت إلى أليكس. «دائماً ما تتنازل جون عن غرامات تأخيري».

فقال أليكس مبتسماً: «من المفيد أن يكون للمرء أصدقاء في مواقع السلطة».

رأت جون أن ليندا تغمز لها بجنون من خلف كتف أليكس، فدعت الله ألا يكون وجهها بنفس الاحمرار الذي تشعر به.

قال أليكس: «أخشى أنني مضطر للإسراع بالرحيل. يؤسفني أنك لن تستطيعي مرافقتي الليلة، لكن ربما يمكننا الخروج في وقت آخر؟».

فدخلت ليندا: «ماذا تقول؟ أنت لست مشغولة الليلة، أليس كذلك يا جون؟».

فقالت جون وهي ترمق ليندا بنظرة نارية على أمل أن تفهم: «بل أنا مشغولة فعلاً».

«وما الذي يشغلك؟ قراءة الكتب الروسية القديمة المملة؟ لا بد وأنك تستطيعين الاستغناء عنها ليلة واحدة». فتحت جون فمها للرد، لكن ليندا كانت تكلم أليكس: «جون خجولة كما لعلك لاحظت، ولذا

فهي تحتاج إلى بعض الاستدراج حتى تتخلى عن تحفظها. لكنني متأكدة أنها سترحب بالخروج معك لتناول كأسين الليلة، أليس كذلك يا حبيبتى؟».

كانت جون تريد أن تقاوم، لكنها تعرف أن ليندا لن تتنازل عن هذه المعركة بسهولة. «لا بأس، سيكون هذا جيدًا».

«عظيم»، قالها أليكس، رغم استمتاعه بالظاهر بالمحاوراة التي شهدتها لتوه. «هل نتقابل في السابعة عند المطعم؟».

بمجرد انصرافه، نظرت ليندا إلى جون بانتصار. «يبدو عليه أنه شاب مهذب، ووسيم جدًا».

قالت جون برنة غيظ في صوتها: «ليندا، لماذا فعلت هذا؟». «ما الذي فعلته؟ أنا أعرف تمامًا أنك تريدين الخروج معه في موعد، لكنك تتمنعين ليس إلا».

«هذا ليس موعدًا! لقد دعاني إلى الشراب فقط بدافع الشفقة، ولأن كل أصدقائه الحقيقيين في لندن».

«لا عليك يا حبيبتى، امسكي أعصابك. حتى لو كان هذا صحيحًا، متى كانت آخر مرة خرجت فيها؟».

لم تكن جون تريد الرد على هذا السؤال، ولذا فقد بدأت تتعامل مع الكتب. «ليندا، هذا الكتاب تأخر أربعة أسابيع»، قالت وهي تحمل نسخة من كتاب ماري كوندو، سحر الترتيب المُبدّل للحياة. «لا يجوز لك الاحتفاظ بالكتب كل هذا الوقت، ولو عرفت مارجري أنني أعفيك من الغرامات لثارت ثائرتها».

«دعك من تلك الشمطاء النكدة. لكنه كتاب جيد، أنصحك بقراءته». فضحكت جون. «أعرف أن عيوبي كثيرة، لكنني لا أعتقد أن قلة الترتيب واحد منها».

«لكن هذا الكتاب لا يدور حول ترتيب الأماكن فحسب، بل أيضًا عن تحسين جودة الحياة بالتخلص من غير الضرورييات، انظري...».

وأمسكت ليندا بالكتاب وبدأت تقلّب صفحاته. وحاولت جون أن تتجاهل طريقته الخشنة في قلب الصفحات. «تقول ماري إنك حين ترتبين بيتك فإنك تواجهين مشكلات لعلك كنت تتجاهلينها. وهي ترى أن الترتيب السليم يساعد الناس على بدء حياتهم من جديد». أدركت جون المغزى المقصود من هذا الحديث. «كلام مثير للاهتمام والله يا ليندا».

«اسمعي، لقد أطلت التفكير في الحوار الذي دار بيننا. أقسم لك أن روحك ستتتعش إذا تخلّصت من بعض كرايب منزلك، وأدخلت عليه بعض التجديدات. يمكنني أن أساعدك إذا شئت؟ ربما يمكننا التخلص من بعض تحف أمك القديمة ببيعها في نصة الفيل الأبيض المقبلة؟». فقالت جون وهي تتجنب نظرة ليندا: «أنا سعيدة بالبيت كما هو الآن».

«كما تشائين يا حبيبتي». لكن الكلمات غير المنطوقة كانت معلقة في الهواء حولهما. «والآن، بخصوص هذا الذي ليس موعدًا مع أليكس تشن، ماذا ستلبسين له؟».

الفصل الثاني عشر

في الساعة إلا عشر دقائق غادرت جون بيتها متّجهة إلى مطعم عائلة أليكس، وهي تحاول أن تتجاهل تقلّص أمعائها. فيم سيتكلمان بحق كل شيء؟ لم يكن بينهما أي شيء مشترك، فقد التحق أليكس بجامعة بعيدة، وهو الآن محام في العاصمة، عاد إلى تشالكوت لشهور قليلة فقط، أما هي فإنها مساعّدة لشؤون المكتبة لم تغادر قريتها الصغيرة قط. ربما يمكنها، بعد الكأس الأولى، أن تتظاهر بالصداع فتستأذن بالانصراف. عند اقتراب جون من المطعم رأت أليكس ينتظرها خارجه. كان قد استبدل بالتيشيرت القديم المعتاد قميصًا بياقة، فندمت جون فجأة على أنها لم تبذل جهدًا أكبر في مظهرها.

قال لها حين رآها: «مرحبًا بك»، ففوجئت جون بانتفاض معدتها. «هناك أتوبيس في الساعة وخمس دقائق، سنلحق به إذا أسرعنا». في أثناء سيرهما نحو محطة الأتوبيس، أطلع أليكس جون على مستجدات نقاهة أبيه. «المفروض أن يستريح في السرير، لكنني ضبطته يحاول ممارسة اليوغا صباح اليوم»، قالها فيما كان الأتوبيس رقم 36 يدخل المحطة.

صعد الاثنان إلى الحافلة ووجدا مكانًا في المنتصف. ولم تلاحظ جون وجود فيرا، زبونة المكتبة، في المقعد المواجه لهما، بوجهها العابس، إلا بعد جلوسهما. حوّلت جون ناظرها وتظاهرت بأنها لم ترها.

«لقد جهّزت لك الكتاب التالي». ومدّ أليكس يده إلى جيبه الخلفي ليخرج نسخة مضغضعة من رواية تيري براتشت لون السحر. «لقد وقعت في غرام سلسلة العالم القرصي وأنا في التاسعة أو العاشرة. هل قرأت شيئًا منها؟».

«كلا، اعذرني».

«أنت مقبلة على مفاجأة سارة. تدور الحوادث في كوكب مستقر فوق أربعة فيلة، على ظهر سلحفاة عملاقة. وهناك شخصية أمينة مكتبة تنتمي إلى جنس الأورانغوتان و...».

حاولت جون أن تصغي لكنها لم تستطع التوقف عن اختلاس النظر إلى فيرا، التي كانت ترقب أليكس بفم مزمووم من فرط الاستياء. ما مشكلة تلك المرأة؟

قال أليكس: «كما تحتوي سلسلة الكتب على واحدة من شخصياتي المفضلة في عموم الأدب، شخصية 'ممات' خفيفة الظل إلى أبعد حد». توقف الأتوبيس عند إحدى المحطات فقامت فيرا من مقعدها، وبينما كانت تستدير للنزول، همهمت بكلمة لم تبيّنها جون. راقبتها مع أليكس وهي تذرع ممر الأتوبيس وتنزل منه. ولم يعاود أليكس التكلّم قبل انغلاق الأبواب وانطلاق الأتوبيس.

«مسكينة مسز كوكس».

فنظرت إليه جون في ذهول. «هل تعرف فيرا؟».

«كنا نسكن المنزل الملاصق لها في طفولتي».

نظرت جون حولها للتأكد من عدم وجود شخص قريب قبل أن تهمس: «إنها كابوس مرعب في المكتبة».

فقال أليكس بجبين مقطب: «لا تقول لي هذا».

«إنها تقلب حياتي جحيماً بشكاواها، ثم إنني متأكدة من أنها عنصرية».

«لعلك تدرकिन أنك قد تكونين الشخص الوحيد الذي تكلمه طوال اليوم؟».

«ومع ذلك...».

«لقد عاشت حياة صعبة».

«ماذا تقصد؟».

حافظ أليكس على انخفاض صوته. «قبل طلاق أبي وأمي، كان الاثنان

يعملان لساعات طويلة في المطعم، فكانت فيرا تستضيفني عندها بعد المدرسة. كانت تعدّ لي الشاي وتسمح لأصدقائي بالحضور للعب معي». «فيرا؟ لكنها تكره الأطفال - لا تتوقف عن الشكوى منهم في المكتبة».

هز أليكس كتفه. «أنا لا أعرف تفاصيل الحكاية، لكنني أعرف أنها هي وزوجها فريد كانا يريدان الإنجاب، لكنهما لم يستطيعا لسبب أو آخر. ومن ثم فقد تبنيتني حفيدًا شرفيًا لهما. كانت فيرا تقضي ساعات في ركل الكرة معي بحديقتهما الخلفية، كما كانت تصنع كعكات أعياد الميلاد لكل الأطفال في شارعنا». «عجيب. وماذا حدث إذًا؟».

خفض أليكس صوته أكثر وأكثر، فاضطرت جون أن تميل عليه حتى تسمعه. «حين بلغتُ العاشرة أو نحوها، تخلى فريد عن فيرا. حدث الأمر فجأة: كان يجز العشب ذات صباح، ويثرثر معي عن فرص فريق مانشستر يونايتد في الفوز بدوري الأبطال، وفي الصباح التالي كان قد رحل. فانهارت فيرا تمامًا، وأنا أذكر بكاءها على كتف أمي. ثم أرسل فريد خطابًا يطلعها فيه على عنوانه لتحويل بريده، ويخبرها بأمر استقراره مع عشيقته وأطفالهما».

انفجرت جون: «ماذا؟»، والتفت عدد من الركاب للنظر إليها. «آه يا ربي».

«نعم نعم، أليس كذلك؟ اتضح أن فريد كان يخونها منذ سنوات، وقد أنجب من العشيقة طفلين. كان يعيش حياة أخرى كاملة، وفيرا لا تعرف عنها شيئًا».

«لا أكاد أصدق. مسكينة فيرا».

«وبعد هذا لم تعد تسمح لي بالذهاب إلى بيتها، فبدأت تتشكى لأبي وأمي من أنني مفرط الصخب. كما كَفَّت عن صنع الكعك ولم تعد تغادر البيت، وفقدت كل أصدقائها. غيرنا سكننا بعد ما يقرب من عام، عند

انفصال أبويّ، ومنذ ذلك الحين لم أكد أراها. بل إنني لست متأكدًا من أنها تعرفت عليّ».

فكرت جون في فيرا وهي في المكتبة، ترقب الحركة في قاعة الأطفال بوجه ملتو مكفهر. لطالما افترضت جون أن فيرا تنفر من الأطفال، لكن ربما كان شيئًا آخر هو ما أكسبها كل تلك المرارة - شيئًا اسمه الحسرة. «ها قد وصلنا»، قال أليكس. فنظرت جون من الشباك لترى أنهم يتوقفون في الشارع الرئيسي ببلدة مولي.

تبعته من الأوتوبيس، وعبرا الطريق نحو حانة 'تشيكرز'. لم تستطع جون أن تذكر آخر مرة زارت فيها الحانة، أو أية حانة أخرى إن شئت الحق، وأصابها انزعاج فوري من مستوى الضجيج وعدد الحضور. لكن أليكس وجهها نحو منضدة في ركن هادئ، ثم مضى كي يأتي بالشراب. وفي غيابه، شرد ذهن جون عائداً إلى فيرا، فبدأت تتخيلها في بيتها، تخبز كعكة عيد ميلاد لواحد من أطفال الجيرة، وفريد يدخل عليها بشنطة ثيابه ويقول لها إنه سيتركها. كان من شأن فيرا أن تتوسل إليه أن يبقى، أن تبكي وتحاول انتزاع الشنطة من يده، لكن فريد كان ليقول...

«تفضلي إذا». ووضع أليكس كأسًا كبيرة من النبيذ على المنضدة. «هل أنت بخير؟ كنت على بعد ملايين الأميال الآن».

«آسفة، إنه حلم يقظة. شكرًا على المشروب».

قال أليكس وهو يجلس بجوارها. «إنني أذكر أحلام يقظتك من أيام المدرسة، كنت تحلمينها في درس الإنجليزية، تحدّقين في الفراغ طويلاً وفجأة تبدئين بالكتابة. وكانت كتابتك الإبداعية أفضل كتاباتنا جميعًا».

ف قالت جون: «أوه، هذا غير صحيح». رغم أنها لم تملك إلا أن تبسم. «لكنني فعلاً أحب اختراع القصص في رأسي، وكنت دائماً كذلك. أحياناً وأنا في المكتبة أتأمل الناس والكتب التي يستعرونها، فأحاول أن أتخيل حياتهم خارج المكتبة».

وندمت جون على هذه الكلمات فور أن انطلقت من فمها، فهي لم

تخبر بها مخلوقاً غير أمها، وقد أدركت الآن، بعد أن قالتها بصوت عالٍ، كيف جعلتها تبدو بلهاء.

لكن أليكس قال: «أوه، دعينا نلعب هذه اللعبة الآن. ماذا عن تلك السيدة هناك؟».

«كلا، لا داعي لذلك، فهو مجرد تصرف سخيف مني».

«لا لا، هيا بنا. أترين تلك المرأة في ثوب الفراشة؟ ما حكايتها في ظنك؟».

«بجد؟».

«أجل!».

فالتفتت جون تتأمل المرأة. لعلها في منتصف العشرينات، في ثوب أنيق على طراز الخمسينات وفمها مطلي بطلاء قاني الحمرة. كانت مع رجل يلبس قميصاً من الكتان وبنطلوناً من التشينو. تفكرت جون برهة.

«اسمها هانا، وهي تقيم مع صديقتين لها في شقة مليئة بالثياب والضحك. تشتغل في وظيفة مكتبية مملة، لكنها تتألق وتخرج للرقص مع صديقاتها في العطلة الأسبوعية. وتحلم بالعمل في مهنة إبداعية، ربما تصبح رسّامة».

«والرجل؟ هل هو حبيبها؟».

«كلا، لكنها تسعى لجعله كذلك. إنهما يتقابلان منذ بضعة أشهر، لكنه يتهرّب من الالتزام».

«وما الذي يمنعه؟».

«إنه على علاقة طويلة الأمد بحبيبة أخرى، وهي لا تعرف أنه يتسلّى معها فقط».

«مسكينة يا هانا»، قال أليكس بصوت صادق الحزن. «أعتقد بأن هذا الرجل لا يبشر بأي خير. بل ربما كان مصدر خطر؟ قد يكون سفايحاً وهي ضحيته الليلة».

فرفعت جون حاجيها. «كان هدفي الرومانسية الحزينة، لكنك جنحت بنا إلى الرعب الدموي».

ضحك أليكس وابتسمت جون. لم يكن قد سبق لها مشاركة لعبتها مع شخص آخر.

«لا عجب في تفوّقك في فروض الكتابة الإبداعية. أما أنا فكان تقديري الدائم هو 'مقبول' لأنني كنت أقحم المسوخ والموتى الأحياء على قصصي. أما زلت تكتبين؟».

فقلت جون وهي ترشف من نبيذها: «في الواقع لا».

«آوه، خسارة كبيرة. كنت أتوقع دائماً أن تصبحي...».

فعاجلته قبل أن يكمل عبارته: «هل عندك أية هوايات يا أليكس؟».

فقال: «طبعاً، عندي هوايات يا جون». وتهيأ لها أنها ترى طيف ابتسامة على شفتيه. «أحب ممارسة التسلق، كما أَلعب الكرة مع فريق خماسي محلي: مستوانا في الحضيض، لكن الخروج للشرب بعد المباريات ممتع جداً. وأعشق الذهاب إلى السينما - هناك قاعة مستقلة غير عادية بالقرب من شقتي في لندن، متخصصة في أفلام الرعب القديمة من الستينات والسبعينات. وفي ليالي الثلاثاء أذهب...».

كانت جون تستمع إليه بدهشة متزايدة. كانت تتوقع أن يخبرها بشيء أو اثنين، لكن كيف لشخص واحد أن يشغل بكل هذا؟ نشاطات توحى بالإرهاق.

سألها أليكس حين انتهى من قائمة هواياته: «وماذا عنك أنت؟».

فقلت جون: «إنني أقرأ». ومرت برهة صمت، انتظر أليكس خلالها أن تضيف المزيد. «كما أحب المشي».

«رائع، فهل جربت المشي لمسافات بعيدة؟ كنت أمارسه مع أبي وأنا أصغر سنًا».

«طبعاً»، وأخذت جون جرعة من نبيذها، عساها تغطي على كونها لا تمارس المشي حقاً إلا من العمل وإليه.

سألها أليكس: «هل تحبين السفر؟ كنت أسافر بحقيبة الظهر كل صيف أيام الجامعة، تجربة مذهلة». «وماذا كان بلدك المفضل؟».

«آخ، سؤال المليون دولار. الهند كانت رائعة، كما أعجبتني فييتنام أيضًا. هل سبقت لك زيارتها؟».

فهزت جون رأسها نفيًا. كان أبعد مكان ذهبت إليه هو بلدة وايموث مع أمها.

«يجب أن تزورها، إنها رائعة. تاريخ ثري جدًا، والطعام هناك...». «أومأت جون برأسها مؤمنة وهي تستمع إلى أليكس، لكن دخيلتها كانت تموج اضطرابًا، فهذا بالضبط هو سبب عدم رغبتها في الخروج معه الليلة. لم يكن عندها حديث شائق تقوله، ولا هوايات مثيرة، ولا سفريات بعيدة تحكي عنها. كان كل ما فعلته في السنوات العشر الماضية هو العمل في المكتبة وقراءة الكتب. أغمضت جون عينيها، متمنية لو استطاعت أن تهرب الآن فتوقّر على نفسها مهانة إدراكه لحقيقة حياتها المثيرة للرتاء. «جون؟».

«فتحت عينيها. «عفوًا، ماذا هنالك؟». «سألتك إن كنت تقابلين رفاقًا من أيام المدرسة؟». «يا إله السموات، لقد حانت لحظة الحقيقة. اللحظة التي تصارح فيها أليكس بأنها بلا أصدقاء، بلا هوايات، بلا حياة. «حسنًا، الأمر وما فيه هو أنني...». ثم توقفت وقد خطرت لها فكرة. «في الواقع، سأحضر حفل عزوبية غايل سبنسر بعد أسبوعين». «غايل، غير معقول؟ وكيف حالها؟».

«إنها بخير، عقدت خطبتها في جزر المالديف يوم رأس السنة». «فقال أليكس: «جميل. لم أكن أعرف أنكما صديقتان مقربتان في المدرسة».

«إننا صديقتان منذ المدرسة الابتدائية». ولم تكن تكذب في هذا تمامًا، ومع ذلك فقد أحست جون بوجتيتها تتضرّجان. «عجبًا، لم أكن أعرف. كنت أشعر دائمًا أنكما مختلفتان»، قالها أليكس، فأجفلت جون من تذكيرها برثائها أيام المدرسة. قالت وهي ترشف جرعة قوية من النبيذ: «أتوقع هذا، فقد كانت غايل ملفتة أكثر مني بكثير».

فقال أليكس: «الحق أنني كنت أعتبرك أنت الملفتة. أولئك البنات لم يكن عندهن موضوع للحديث سوى الأولاد والحفلات، أما أنت فكنت تقرأين تلك الكتب المثيرة المشوّقة». فذهلت جون حتى غصّت بشرابها. «هل أنت بخير؟». «آسفة»، قالتها من بين سعلاتها.

فانتظر أليكس حتى تهدأ، ثم قال: «ربما تستغربين كلامي، لكنني كنت أتخيل صورة معيّنة لحياتك بعد المدرسة، تدخلين فيها الجامعة وتكتسبين صداقات كثيرة مع أناس أذكاء مثقفين، وتدور بينكم حوارات ذهنية عميقة». وكان وجهه قد احمرّ تمامًا الآن. «اعذريني، لعلك تستسخفين كلامي. لك مطلق الحرية في الضحك عليّ».

لكن جون لم تضحك، بل أحسّت بقلبها يغوص في معدتها. لأن ما وصفه أليكس هو بالضبط ما كانت تحلم به لنفسها: دخول الجامعة واكتساب صداقات وثيقة أخيرًا، والسهر طوال الليل للتحدث عن الكتب وتبادل النصائح عن الكتابة. مدّت يدها لتناول جرعة أخرى لكن الكأس كانت قد فرغت.

«هل تريد كأسًا أخرى؟»، سألته وهي تقف لاختطاف كأسه قبل أن يتمكن من الرد.

شقّت جون طريقها إلى البار. كيف استطاع أليكس تخمين أحلامها وهي في الثامنة عشرة بهذه الدقة؟ لم يكونا على معرفة وثيقة في

المدرسة، بل إنها ذهلت من مجرد ملاحظته لها، ناهيك عن هذا الفهم التام لمكنون صدرها. ورجعت بخيالها لحظة إلى ذلك الحلم، حلم الأصدقاء والحياة التي تخيلتها لنفسها، ثم نَحَتْه عن ذهنها سريعاً.

وصلت جون إلى البار فسمعت انفجاراً مفاجئاً للضحك خلفها، وتلفتت للتعرف على مصدره. يا للمصيبة. كان براين سبنسر، والد غايل، يجلس إلى مائدة مجاورة للبار مع رجلين أصغر سناً. فهل سمعها تكذب بشأن استمرار صداقتها مع ابنته؟ كان فم براين متسعاً بالضحك، بحيث رأت جون الطعام نصف الممضوغ بداخله، فاشمأزت وأعرضت عنه حتى لا يراها. وبينما كانت تنتظر تقديم طلبها على البار، كانت تسمع صوت براين المفعم بالثقة المبالغة والأهمية المصطنعة.

«ما يجب أن تدركه يا سادة هو قيمة الشحم اللازم لتليين العجلات». فسأله أحد الرجلين: «وفي الحالة التي نحن بصدددها، هل تعتقد بأن العجلات قابلة للتشحيم؟».

«نعم أعتقد هذا. لكن يجب أن أحذركم أنه لن يكون رخيصاً».

«بم آتيك يا عزيزتي؟». كانت الساقية تنظر إلى جون بصبر نافذ.

«قدح من البيرة وكأس نبيذ أبيض، لو سمحت».

وتهادى صوت براين إليها ثانية: «ليس بإمكانني تقديم أي وعود قاطعة، بطبيعة الحال. لكنني ألعب الغولف مع اثنين من أعضاء المجلس وهما يثقان بي. ولا شك عندي أن من الممكن 'تحفيزهما' لإدراك مزايا هذه الفكرة».

«ألم أقل لك يا فيل؟ إن براين استثمار مضمون العائد». كان صوت هذا المتكلم يوحى بسن أصغر وطبقة اجتماعية أعلى. «وأنا أدري الناس بهذا».

فضحكوا جميعاً على العبارة الأخيرة، ضحك القهقهة التي لا يضحكها الرجال إلا مع رجال آخرين.

دفعت جون ثمن الشراب وعادت إلى منصبتها، حريصة على إبقاء

وجهها معرضاً عن براين. وأثناء مرورها بجواره اختطفت لمحة من أحد الرجلين الجالسين معه، وقد احتقن خذاه بتأثير الخمر، وشعره شديد الشقرة إلى درجة تشبه دراكو مالفوي من سلسلة هاري بوتر.

«وماذا عن مارجري، ألن تمانع؟».

أجاب براين: «لا تشغل بالك بهذا الأمر. أنا قادر على التعامل معها». عند العودة إلى المنضدة، وجدت جون أن أليكس يبدو محرجاً. «آسف، لا بد وأنك تعتبريني غريب الأطوار لتفوّهي بكل ما قلته».

«على الإطلاق. كم كنت أودّ التمتع بتلك الحياة التي وصفتها، لكن الأمور لم تسر على النحو المأمول».

«وما السبب، إذا أذنت لي بالسؤال؟».

كانت جون قد سكبت بعض النبيذ على المنضدة، فأخذت ترسم فيه خطوطاً بإصبعها. «كان حلمي أن أدخل كمبريدج وأدرس الإنجليزية، لكن أمي أصيبت بالسرطان أنا في الصف الأخير. ومع ذلك ظلت تحثني على الذهاب، فأرسلت طلب الالتحاق وحصلت على مكان، لكنهم سمحوا لي بالتأجيل حتى أمرّضها. ثم حدث أنها توفيت، بعد عامين».

«أوه يا جون، كم أنا آسف».

«ربما كان بوسعي إعادة المطالبة بمكاني بعد ذلك، فهذا ما كانت أمي لتريده لي. لكن بعد رحيلها صارت فكرة ترك البيت تبدو مرعبة».

«ألا تساورك الرغبة في الدراسة الجامعية الآن؟ هناك دورات ممتازة للطلبة الأكبر سنّاً».

هزت جون رأسها. «كلا، لا أعتقد بأنها تصلح لي. كما أنني أحب حياتي هنا في تشالكوت».

«وأنا سعيد بأنك سعيدة هنا. أنت محظوظة بالعمل في وظيفة تحبينها».

«بصراحة لا أتخيل نفسي في أي مكان آخر، ولهذا ترعبني حكاية المجلس هذه».

«كيف تسير الحملة؟».

«ليتني أعرف. لقد مرّ عليها شهر الآن ومع ذلك لم تنظّم أية فعالية جماهيرية. حاولت التنصت في المكتبة، لكن الجميع يمتنعون عن التكلم أمامي».

تساءل أليكس بجبين مقطب: «ما الذي فعلته جماعة أص مك تش طوال هذا الوقت؟».

«لا أدري، لكنني التقطت هذا من متجر القرية قبل يومين». ومدّت جون يدها إلى حقيبتها لتخرج منشورًا مكرّمًا، فردّته على المنضدة. كانت عبارة أنقذوا مكتبتنا مكتوبة على رأس الصفحة، بينط 'كوميك سانس' العريض.

فقال أليكس: «بحق السماء، لن يصلح هذا لإنقاذ أي شيء. ما هي أنشطتهم على مواقع التواصل؟».

«لا أعلم، فأنا غير مشاركة».

أخرج أليكس هاتفه ورقن فيه بضع كلمات. «لا بد وأن يكونوا على تويتر حتمًا؟». ثم مسح الشاشة بعينه. «آه، ها هم».

وحين مرر الهاتف إلى جون رأت أن الحساب يحتوي على تغريدة واحدة.

أصدقاء مكتبة تشالكوت

@أص مك تش

شاركونا يوم السبت 7 أغسطس للاحتجاج في قاعة الكنيسة. يانصيب، رسم وجوه الأطفال، عرض ضاحك من ابن تشالكوت، المهرج كولن. مرحبًا بالجميع! #أنقذوا_مكتبة_تشالكوت.

«شيء أحسن من لا شيء، فيما أظن». وهمّت جون بإعادة الهاتف إلى أليكس، لكنها رأت رسالة واتساب تومض على الشاشة.

إيلي

وصلتني أخبار مثيرة - اتصل بأقصى سرعة! قبلاتي

أحسّت جون بقلبها يغوص في صدرها حين رأت القبلات، ثم شعرت بالبلادة: لا شأن لها بمن يرأس أليكس. نظر أليكس إلى الهاتف بسرعة وابتسم، فتجرّعت جون جرعة طويلة من النييد. سألتها بعد أن أعاد هاتفه إلى مكانه: «أنت متأكدة أنك لا تملكين شيئًا لمساعدة أصم مك تش؟».

«كلا، لا أستطيع المجازفة. سيتردني المجلس إذا قمت بأي تصرف علني، بكل بساطة».

«وإذا لم يكن علينا؟ ماذا عن مساعدتهم في السر؟».

«ماذا تعني؟».

«حسنًا، أنا أدرك أنك لا تستطيعين المجازفة بإظهار المشاركة تحت أعين المجلس، لكن ربما كان بوسعك التحول إلى عميلة سرية لحساب أصم مك تش؟».

فضحكت جون: «لا أعتقد بأنني سأجيد دور العميلة السرية، رغم أنني قرأت الجاسوسة هاريت ثلاث مرات في طفولتي».

لكن أليكس لم يضحك: «أعرف أنك لن تصدقيني يا جون، لكنني أعتقد بأنك قادرة على تقديم الكثير، ربما من غير أن تدركي».

فغمغمت جون: «كلا، لست قادرة ولا من يحزنون».

«أندرين، وأنا أقرأ ماتيلدا، ظللت أفكر كم تذكّرني بها».

«ماتيلدا؟».

«الشيء الواضح هو أنكما تحبان الكتب، لكن ماتيلدا أيضًا تتمتع بقدر كبير من النزاهة، وتهتم بالناس. وأنت كنت دائمًا كذلك في المدرسة». أخذ أليكس جرعة من قده قبل أن يعاود التكلم. «أعتقد بأن عليك أن تسألني نفسك: ماذا كانت ماتيلدا لتفعل؟».

في تلك الليلة نامت جون ملء جفניה، ولم تستيقظ قبل التاسعة من صباح الأحد. ثم استلقت في الفراش وهي تستعيد حوادث الليلة

السابقة: حياة أليكس الحافلة المثيرة، تعليقه العجيب عن كونها ملفتة، ورسالة الواتساب...

ثم نزلت إلى الطابق السفلي وأعدت لنفسها فنجان شاي. كان آلان بنيت يرقد تحت المائدة ويناوش قدمي جون كلما مرّت من جواره، لكن ذهنها كان أكثر شروداً من أن تحاول توييخه. ثم ماذا عن براين وأطراف الحديث التي استرقت السمع إليها في الحانة؟ ألم يقل شيئاً عن 'تحفيز أعضاء المجلس'؟ ولماذا سأله أحد الرجلين عن مارجري؟ لا بد إذاً وأنهم كانوا يتحدثون عن المكتبة.

أخذت جون رشفة من الفنجان ولعنت حظها حين أحرقت لسانها. إذا كان براين يدبّر أمراً مريباً للمكتبة، فإن عليها أن تخبر شخصاً ما - لكن من؟ ما كان بوسعها أن تتقدّم باتهامات جزافية للمجلس وهي لا تعرف شيئاً عن طبيعة ما يحدث.

مدّت جون يدها إلى الهاتف المحمول وبحثت عن تويتر، وبعد دقائق تمكنت من العثور على صفحة أص مك تش. وأخذت تحقق في التغريدة التي كتبوها عن احتجاج الأسبوع المقبل فبدأت الفكرة تتشكل في عقلها. فكرة لا تخلو من المخاطرة، فهي لا تملك أي دليل، ولعل من يقرأ الرسالة سيظنها مهووسة فقدت عقلها.

وضعت جون الهاتف من يدها: الأجدربها ألا تقحم نفسها في هذا الأمر.

ثم خطرت ببالها كلمات أليكس. ماذا كانت ماتيلدا لتفعل؟ وعندئذ أخذت نفساً عميقاً وتناولت الهاتف ونقرت لتسجيل الدخول. خلال دقائق كان الحساب قد اكتمل. كتبت جون رسالة قصيرة قبل أن تغير رأيها.

ماتيلدا @عثة الكتب

@أص مك تش عندي معلومات قد تفيدكم

كبت جون زر التغريد، وألقت الهاتف على المائدة وكأنه بات ساخنًا لدرجة التوهج. ثم التقطت كتاب الهوبيت وقرأت ثلاث جمل قبل أن تعاود النظر في هاتفها. لا شيء. واصلت القراءة لكنها لم تبلغ نهاية الصفحة قبل أن ترجع لتتفقد تويتر. ترى من الذي سيرى تغريدها، شانتال أم مسز برانزورث؟ وإذا ردّت إحداهما عليها، فماذا ستقول لها؟ كانت في أمس الحاجة إلى ما يشغل انتباهها، وإذا لم تفلح القراءة فليس هناك ما يمكن أن يفلح إلا شيء واحد: التنظيف.

ارتدت جون تيشيرتًا قديمًا وبدأت بغرفة المعيشة. كانت تعمل بدأب وتدقيق، بدءًا بخزانة الكتب الطويلة، ومنها تدور حول الغرفة. لمّعت جون كل واحدة من كريات الثلج الموضوعة على الرف أمام التلفاز، ثم انتقلت إلى التحف الخزفية الصغيرة على رف المدفأة: قدح تشارلز وديانا التذكاري الذي عثرت عليه مع أمها عند بائع جوال، ونموذج الأوتوبيس الأحمر الذي عادت به من رحلة لمشاهدة معالم لندن. وكانت جون تنفض التراب عن قارئة الكتاب الخزفية حين سمعت هاتفها يصفر، فهرعت إلى الغرفة كي ترى الرسالة. أصدقاء مكتبة تشالكوت يتابعك الآن. أغمضت جون عينيها برهة؛ ما زال بوسعها التراجع الآن، لم يفت الأوان بعد. فلعلّ براين لا يدبّر أمرًا مريبًا رغم كل شيء؟ فتحت جون عينيها وبدأت ترقن رسالة مباشرة.

أعتقد أن براين سبنسر يدبّر مكيده للمكتبة

ثم ضغطت زر الإرسال وأدركت أنها كانت تحبس أنفاسها. بعد هنيهة ظهر الردّ.

من أنت؟

أنا صديقة للمكتبة، أريد أن أساعدكم.

ماذا تعرفين عن براين؟

لقد التقى برجلين وتكلّم معهما عن قدرته على تشحيم العجلات وإقناع أعضاء المجلس بشيء ما. وتطرقوا إلى مارجري سبنسر، لذا أظن بأن الأمر متعلّق بالمكتبة.

من هما الرجلان؟

لا أدري.

ماذا يريدون بالمكتبة؟

لا أدري. المعذرة.

انتظرت جون الرّدّ إنما لم يأت. لكنها خمنت من نبرة محاورها المقتضبة أنها مسز برانزورث. ماذا تراها ستفعل بهذه المعلومات؟ ربما تدخل في مواجهة مباشرة مع براين لكن من شأنه أن ينكر كل شيء. يظل الأمل أن تتولى جماعة أص مك تش التحقيق فتوصل إلى أدلة ملموسة تثبت ما يدور. تساءلت جون لبرهة إن كانت مارجري متورطة، لكنها أبعدت الفكرة عن ذهنها. رئيستها لا تخلو من العيوب. فأمها كانت دائماً تقول إنك لو شققت مارجري نصفين لوجدت اسم مكتبة تشالكوت مكتوباً على الشق. ومع ذلك فربما يجدر بجون أن تراقب عملها عن كثب، على سبيل الاحتياط.

وهكذا عادت إلى التنظيف بحماسة متجدّدة. كانت تشعر بالرضا لقيامها أخيراً بشيء من أجل المكتبة. أليكس على حق إذاً، فربما لا تستطيع جون الانضمام إلى أص مك تش علناً، لكنها قد تتمكن من المساعدة من وراء الستار.

الفصل الثالث عشر

ناولت جون المرأة الشابة نسختها من الزوجة المفقودة وراقبتها وهي تغادر المكتبة. لم تكن قد رأتها من قبل، فتخيلت أنها حديثة الانتقال إلى تشالكوت لأنها أتتها هاربة.

كان أبواها زوجين محترمين من الطبقة الوسطى، عندهما سيارة ألمانية، ويقضيان الإجازات في التزلج في فرنسا. لكنهما خلف الأبواب المغلقة كانا لئيمين متنمرين، يتحكمان في كل جانب من جوانب حياة ابنتهما. وهكذا دبّرت الابنة لنفسها عملية اختطاف زائفة، فكتبت رسالة لطلب الفدية وتركت خلفها قرائن كاذبة كيلا يشك أبواها في شيء. لكن أباهما جاء إلى تشالكوت بالصدفة في مهمة عمل، ولمحها في المكتبة، فانتظرها في الخارج وتتبعها عند خروجها حتى حارة ضيقة، وقال لها بصوت مهدّد خفيض...

«أريد واحد كتاب جديدًا».

«مرحبًا يا ليلي»، قالتها جون وهي تبسم للزائرة أمام المكتب. «كيف وجدت كتاب HairyBikers الطاهيان المشعران؟».

فردّت ليلي بخجل: «أظن ماري بيرى أحسن». كانت تزور المكتبة الآن مرة كل أسبوع على الأقل، وفي كل مرّة كانت جون تساعدتها على اختيار كتاب طبخ جديد، كما اكتشفت أن ابنها محمود يساعدتها في ترجمة الوصفات إلى العربية.

«لقد حجزتُ لك كتابًا جديدًا - أتحبين إلقاء نظرة عليه الآن؟».

شكرتها ليلي، وانتظرت حتى تذهب جون لإحضاره.

«تفضلي».

«عندي... من أجلك...». مدت ليلي يدها في حقيبتها وأخرجت لفافة صغيرة ملفوفة بورق المطبخ. وحلّتها جون لتجد أمامها شريحة من الحلوى، مزوّقة بالفستق المفروم. كانت رائحتها شهية. قالت ليلي: «بسبوسة».

«أشكرك جزيل الشكر»، قالتها جون بغصّة في حلقها.

قالت ليلي وهي تستدير لتّجه إلى إحدى المناضد وعلى وجهها أمارات التركيز: «المرّة القادمة أجرب البسكوت الإنجليزي»، ابتسمت جون لنفسها وهي تضع قطعة الحلوى بجوار لوحة مفاتيحها، لتتلذذ بها في ما بعد.

«ما هذا؟». كانت فيرا تميل فوق المكتب بوجه مزمووم.

«اسمها البسبوسة».

فأشاحت برأسها في اتجاه ليلي. «أهي التي صنعتها؟».

طوال الأسبوعين، منذ حكى لها أليكس عن ماضي فيرا، كانت جون تبذل جهودًا إضافية للانفتاح على فيرا وتشجيعها على الانخراط في أنشطة المكتبة، لكنّ كلّ جهودها مُنيت بالإخفاق، حتى الآن. وها هي تأخذ نفسًا عميقًا.

«لعلمك، ليلي حريصة على تعلم المطبخ الإنجليزي. وقد سمعت إنك تجيدين خبز الحلويات، فربما يمكنك إذا ترشّيح بعض كتب الطبخ لها؟».

«من أخبرك بهذا؟»، سألتها فيرا والشك محفور على وجهها. ثم قالت من بين أسنانها: «لقد ضلّوك، فأنا لم أخبز منذ سنوات»، واستدارت لتعود إلى مقعدها. لكنها اصطدمت بجاكسون في الطريق، فسقطت كومة الكتب التي كان يحملها على الأرض. أسرعّت جِرن إليه، وسألته وهي تنحني لجمع الكتب: «أنت بخير يا جاكسون؟».

«أنا بخير».

ناولته جون مجلّدًا سميّكا بعنوان موسوعة اليابان. «لم تخبرني جدتك بأنك مسافر في إجازة».

«لن أسافر، إنه مجرد مشروع دراسي عن اليابان. هل كنت تعرفين أنها مكونة من 6852 جزيرة؟ وأن أهل اليابان يأكلون السمك أكثر من أي بلد آخر في العالم؟».

«نعم كنت أعرف هذا».

«وقد أخبرني ستانلي أيضًا بأن عندهم في اليابان ما يسمى بالهايكو، وهي قصيدة شعر من نوع خاص، مكونة من ثلاثة أبيات وسبعة عشر مقطعًا لا غير».

«معلومات مشوّقة جدّا يا جاكسون».

«لقد كتبت قصيدة هايكو، هل تحبّين سماعها؟».

«بكل سرور».

فوقف جاكسون وشدّ قامته وبدأ يرتل بصوت رتيب:

المكتبات سفن

والكتب سترات نجاة

من دونها نغرق.

تفاجأت جون فلم تحر جوابًا. «عجبًا يا جاكسون، إن هذا... في غاية القوة».

«هل أعجبتي؟ سألقئها في احتجاج المكتبة يوم السبت».

«لا بد وأنها ستعجب الجميع. وكم يؤسفني أنني لن أحضر لسماعها».

كانت جون حزينة فعلاً لعدم تمكنها من الحضور. كانت فعالية السبت في قاعة الكنيسة هي موضوع الحديث الأول لكل من جاء المكتبة طوال الأسبوع، وقد التقت جون أطراف أحاديث من تنصّتها. فمسز برانزورث على ما يبدو تقمّصت شخصية سيرسي لانيستر ودفعت بقية أعضاء أص مك تش إلى الجنون بطلباتها، من تجهيز اللافئات إلى

إنشاء إذاعة داخلية، إلى تنظيم «يانشيب خيرى يضارع ما ينظمونه في معرض فيفرينغ الصيفي». والخبر الوحيد الباعث على التفاؤل هو نجاح أحدهم في إقناع طاقم إخباري محلي بتغطية الفعالية. لم تحدث القرية عن شيء آخر منذ ذلك الحين، وقد ابتهجت جون بحصولهم أخيرًا على بعض الدعاية للحملة.

لمحت جون بركن عينها مارجري تهرع إليها، وفي عينيها نظرة تصميم.

«آسفة يا جاكسون، يجب أن أتابع عملي. حظًا سعيدًا في إلقاء الهايكو».

قالت مارجري عند وصولها: «كلمة لو سمحت يا جون»، فتبعت جون رئيستها خلف رف التاريخ المحلي. «تقول غايل إنك لم تردّي عليها حتى الآن بشأن حفلة العزوبية، فلماذا؟».

يا إله الكون. رغم كذبها على أليكس بشأن صداقتها مع غايل فإن فكرة حضور الحفل كانت تسبب لجون الكوابيس، فظلت تؤجل إرسال الرد. «آسفة يا مارجري، كنت مشغولة فقط».

«عليك أن ترسلي الرد الآن قبل أن تشك غايل في أنني حرّضتك على الذهاب».

«الآن؟».

«نعم، هيا، أخرجي هاتفك».

وكانت جون واعية بتدقيق مارجري في شاشة الهاتف، فبدأت ترقن وهي تدعو ألا يصلها إشعار مفاجئ من تويتر عن أص مك تش. وهكذا كتبت شكرًا يا غايل، سأكون سعيدة بحضور حفل العزوبية. أراك يوم السبت، وضغطت زر الإرسال.

قالت مارجري: «لم يكن هذا صعبًا، أليس كذلك؟ لكن عليك أن تذكرني أنك لن تذهبي لقضاء وقت ممتع، بل إن عندك مهمة تؤدّيها».

في الرابعة دلفت إلى المكتبة ميشيل والدّة شانتال. كانت جون تريد أن تسألها عن شانتال، التي ظنّت تتجاهلها منذ رفضت الانضمام إلى أص مك تش، لكن ميشيل كانت منهمكة في صب اللعنات على الحاسوب.

و حين اقتربت منها جون، قالت وهي تخبّط لوحة المفاتيح: «هؤلاء الأندال في المجلس. يرسلون لي رسالة نصيّة مفادها خلو أحد المنازل أخيرًا، فأترك كل شيء وأجري إلى هنا. لكن عند وصولي أجد موقعهم الإلكتروني يقول إن المنزل اختفى».

«مرّة أخرى يا ميشيل؟ كم أنا آسفة».

«وماذا سأفعل إذا أغلقوا هذا المكان؟ هل يظن المجلس أننا جميعًا نمتلك الحواسيب في بيوتنا؟».

«كنت أتساءل، كيف حال شانتال؟».

«الله أعلم. إنها حردانة، منذ مدة طويلة وهي كذلك. لا أدري ماذا دهاها».

فأحسّت جون بلذعة ذنب؛ كانت شبه متأكدة من أنها تعرف سبب غضب شانتال، واللوم على جون في بعض منه.

سألتها ميشيل: «هل أخبرتك بأنها تريد الانقطاع عن الدراسة؟».

«ماذا؟ هذه فكرة فظيعة. ماذا عن دخول الجامعة؟».

«تقول إنها لا تريد الجامعة. كانت دائمًا مهتمة بالتعلّم والمعرفة، لكنها الآن تزعم أنها تريد الحصول على وظيفة».

«مستحيل. هلا تطلبين منها المجيء إلى هنا حتى أتكلّم معها؟».

«سأحاول لكنني لا أضمن النتيجة. ستحضر ذلك الاحتجاج يوم السبت - يمكنك التكلّم معها هناك».

«أخشى أنني مرتبطة بحفلة عزوبية يومها». ورغم أن جون قالت الحقيقة إلّا أنها أحسّت بالحرج مع ذلك.

سجلت ميشيل خروجها من الحاسوب ونهضت للانصراف. «المرأة التي رأيته هنا في الصباح الباكر، أهي من فريق الاستشارات الإدارية؟». سألتها جون: «ماذا تعنين؟».

«رأيته مع مارجري. كنت آخذ التوأمن إلى الحضانة، فلا بد وأن الساعة كانت قبل الثامنة». «كيف كانت تبدو؟».

«كانت امرأة نحيفة بشباب فاخرة. ليست من هنا على ما أعتقد». فتذكرت جون شبيهة مسز كولتر التي رأيته هنا منذ أسابيع مع مارجري. «هل كان شعرها طويلاً وداكناً؟». «أجل، وكان يبدو عليها التكبر».

«خسئت!»، قالتها جون ثم أدركت أنها تكلم زائرة، فأضافت: «أسفة».

«ماذا هنالك؟».

«لا أدري، أرجو ألا يكون أمراً خطيراً».

كانت مارجري على الجهة الأخرى من القاعة، تساعد محمود في البحث عن شيء في قسم المراجع. تأملتها جون وهي تشرح الأمر للولد بكل صبر. ترى ما الذي تدبره؟ إذا كانت مسز كولتر من الاستشاريين الإداريين فلماذا تحاول مارجري إخفاء زياراتها عن جون وعن الآخرين؟ هناك شيء مريب يدور، وجون الآن على يقين من هذا.

ذهبت جون إلى المرحاض، وأغلقت الباب خلفها، وأخرجت هاتفها المحمول. وحين فتحت تويتر، رقت رسالة مباشرة إلى أصم مك تش من ماتيلدا.

مارجري سبنسر تعرض المكتبة على زوّار في السرّ. رأيته منذ أسابيع مع امرأة هنا، وأعتقد بأن نفس المرأة عادت صباح اليوم قبل أن تفتح المكتبة أبوابها. ربما تكون استشارية إدارية؟

وسُمعت خشخشة حين حاول أحدهم فتح الباب، فضغطت جون زر الإرسال. وبعد ثوان سمعت صفيراً في الخارج. فتحت جون الباب لتجد أمامها مسز ب.، تحديق في شاشة الهاتف.

قالت مسز ب.: «اللعة»، واستدارت لتعود عبر المكتبة.

كانت جون تراقبها وهي تذهب إلى مقعد ستانلي بجوار النافذة وترية الهاتف. كانت تتحرّق شوقاً لسماع ما يقولانه، لكنها عزفت عن إثارة شكوكهما إذا اقتربت أكثر مما يجب. ثم لمحت عربة المرتجع في منتصف القاعة، حيث تركتها من قبل، فأمسكت بها وبدأت توجهها نحوهما. لكن العربة كانت ترفض التعاون اليوم، فإذا دفعتها جون يميناً تنحرف تلك يساراً. وبينما كانت تحاول تحريكها حتى تقترب بها من النافذة، بدأت تسمع أطرافاً من الحديث.

كان ستانلي يقول: «أعتقد بأن علينا تمرير هذه المعلومات إلى...». فعاجلته مسز ب.: «لكن ماذا يدرينا بأن هذه الماتيلدا جديرة بثقتنا؟». اقتربت جون بالعربة أكثر.

«هل يهمننا من تكون؟ الواجب يحتم علينا أن...». «آخ!».

التفتت جون لترى فيرا محنية من الألم. «ماذا تفعلين أيتها الغبية؟ لقد مررت فوق قدمي». «كم أنا آسفة يا فيرا، هل أنت بخير؟». «كلا، لست بخير. أعتقد بأنك كسرت إصبع قدمي». «ما الذي يحدث هنا؟». كانت مارجري قادمة في اتجاههما. قالت فيرا: «تعمّدت جون المرور بالعربة فوق قدمي».

«أين كان عقلك يا جون؟». وحدّجتها مارجري بنظرة نارية وهي تساعد فيرا في الجلوس على مقعد ورفع ساقها. عضت جون على شفيتها. «إنه حادث غير متعمد».

فقلت فيرا: «لطالما كانت تريد إيدائي».

وقالت مارجري: «يجب أن نطلب عربة إسعاف».

«نعم. وأنا أفكر جدًّا في مقاضاة المكتبة - هذا إهمال جسيم».

فقلت مسز ب. في طريقها إليهن: «بحق السماء، كفي عن هذه الضجة الفارغة. هناك أوتوبيس اقرب موعده، سأساعدك حتى تصلي إلى مستشفى ونتن».

ف نظرت إليها فيرا بوجه عابس: «أعتقد بأن الأفضل أن نطلب الإسعاف».

«لا تكوني بلهاء، الخدمات الصحية محمّلة بما يفوق طاقتها ولا ينقصها إرسال الإسعاف من أجل قدم مكدومة. هيا، قفي وسوف أساعدك».

فتحت فيرا فمها للتشكي لكنها قررت أن السكوت أفضل لها. فنهضت واقفة وتفافزت خلف مسز ب.

فور رحيلهما، قالت مارجري لجون من بين أسنانها: «كأننا لم ننل كفايتنا من المشكلات اليوم. ألا تدركين ما قد يحدث إذا تقدّمت فيرا بشكوى رسمية إلى المجلس؟ إنهم يبحثون عن ذرائع لإغلاق المكتبة يا جون، وها أنت قد قدّمت لهم ذريعة على طبق من فضّة».

الفصل الرابع عشر

في صباح يوم حفل عزوبية غايل، استيقظت جون في السادسة صباحًا مغمورة بالعرق البارد. لماذا أخبرت أليكس بأنها ستحضر الحفل؟ والآن، إذا لم تحضر فسوف يدرك أنها كذبت عليه وأنها بلا أصدقاء. وإذا حضرت فسوف تضطر لرؤية غايل وكل البنات المرعات من أيام المدرسة، عدا أن مارجري ستطردها على الأرجح لفشلها في إيقاف الراقص.

تشكت جون لآلان بنيت الرائد على طرف السرير: «ماذا سأفعل؟». فنظر إليها باحتقار. «معك حق يا آلان، معك كل الحق».

ثم انتزعت نفسها من الفراش وفتحت دولاب ملابسها. كانت رسالة غايل الإلكترونية تأمرها بالحضور في ثياب بطلات السينما، فحملت جون في ثيابها استجلابًا للإلهام. بنطلونان من الجينز الأسود، وتنورة سوداء، وخمس بلوزات بيضاء متطابقة، كلها للعمل. العديد من الكنزات الرمادية، أيضًا للعمل. ثم فستانها الأسود اليتيم الذي ارتدته في جنازة أمها، وبعض التيشيرتات والبلوفرات حائلة الألوان. فكيف لها أن تستخرج من هذا زياً يليق بنجمة سينما؟

تلقت جون حولها وجرت بعينيها على خزانة الكتب في غرفتها. هنا كانت تحتفظ ببعض كتب طفولتها الأثيرة إلى قلبها، الكتب التي شعرها بالارتياح والأمان. فلقت نظرها كتاب بعينه.

«نعم يا آلان، هرميوني غرينجر!».

أسرعت جون إلى غرفة أمها وشدت باب الدولاب تفتحه، فواجهها

قوس قزح مزركش الألوان، من معطف طويل من قصاصات القماش إلى ثوب بالترتر الذهبي كانت أمها تحبّه. لم تكن في هذا الدولاب قطعة رمادية أو سوداء، عدا واحدة، نبشت جون في أكوام الثياب حتى وجدتّها. إنه رداء أمها في حفل تخرجها من الجامعة - وهو مثالي كزيّ تنكريّ مستوحى من عالم هاري بوتر.

عادت جون إلى غرفتها فارتدت الرداء فوق قميص أبيض وربطة عنق مدرستها القديمة وتنورة سوداء، ثم وقفت أمام المرأة. لم يبق الآن سوى شعرها. حلّت جون الضفيرة المحكمة التي كانت تنام بها كل ليلة، وتركت شعرها ينسدل حرّاً. ولم تستطع أن تتذكّر متى كانت آخر مرة تأملت فيها خصلات شعرها العصيّة على هذا النحو. لأنها في كل صباح كانت تمضي مباشرة من الضفيرة إلى كعكة مهندمة، والعكس بالعكس في المساء. لكن بقدر ما كان يسوّؤها الاعتراف إلّا أن كتلة شعرها الشموس كانت بالفعل تشبه شعر هرميوني في الحلقات الأولى من سلسلة الأفلام.

في الحادية عشرة، انتعلت جون حذاءها وخطفت حقيبة يدها وخرجت إلى قيث أغسطس الخائق، فشقت طريقها ببطء صعودًا إلى التل، مع التزام الجانب الظليل حتى لا تتعرّق فيزيد شعرها انتفاشًا على انتفاش. كان أليكس، لحسن الحظ، قد أخبرها بأنه سيقضي العطلة الأسبوعية في لندن، فلم يكن هناك خطر من أن يراها في زيتها المضحك. ومع اقتراب جون من قاعة الكنيسة، بدأت تسمع أصوات الموسيقى القادمة من الداخل. وهو أمر مبشّر بالخير، فمعناه أن فعالية أصم مك تش على قدم وساق من الآن. تمهّلت جون وهي تحاذي الكنيسة، حريصة على التقاط لمحة مما في الداخل.

لم يكن هناك سوى دزينة من الأشخاص في القاعة، معظمهم من أعضاء الجماعة وأقاربهم. فكان ستانلي واقفاً على منضدة اليانصيب،

التي رأت جون فوقها بضع زجاجات من النبيذ، وبعض مرطبات المربي منزلية الصنع، وفيلاً لعبة، بائس المظهر. وكانت شانتال تجلس بجوار نصبة الحلويات. ما أدهش جون هو وجود فيرا، التي كانت تعس حول القاعة بلا أثر لإصابة قدمها. كانت تتدلى على الجدار الخلفي لافتة كبيرة مكتوبة بخط اليد، إلا أن أربطتها انحلت فلم تر جون منها إلا 'نقدوا مكتبة تشالك'.

وكانت مسز ب. تقف قرب الباب، ترعق في جهاز لاسلكي: «هنا النسر، أجب يا عصفور. ستحضر جوقة المدرسة خلال عشر دقائق، أكرر، عشر دقائق. نريد أعداداً أكبر!».

أهذا كل شيء؟ بعد كل الجهد الذي بذله ستانلي ومسز ب.، كان المشهد من أكثر المشاهد التي رأتها جون إثارة للحنن. فاستدارت وأكملت طريقها، إذ منعها الحرج من رؤية المزيد. مع اقترابها من محطة الأوتوبيس، رأت أن هناك عربة رمادية واقفة، تستند إليها امرأة ببدلة زرقاء، واقفة تدخن. كانت تبدو مألوفة، وكانت جون تحاول أن تتذكر الكتب التي استعارتها، حين أدركت أنها الصحافية المحلية، تيسا فلان الفلاني. كانت تكلم امرأة أخرى، تعبت بكاميرا معقدة الطراز. كانت تيسا تقول: «هذه مضيعة تامة للوقت. مستحيل أن نخرج بقصة جيدة من هذا».

فسألتها المصورة: «أتحبين أن أجمع العدة؟». «دعينا نصور الصغار أثناء الغناء، ما دمنا قد أتينا، لكننا سنرحل بعد ذلك مباشرة».

توقف الأوتوبيس فصعدت إليه جون، وفيما كانت تجلس أخذت ترقب تيسا وهي تلقي بسيجارتها على الرصيف وتسحقها بقدمها، وعلى وجهها تعبير ضجر. هذه كارثة. كيف لهم أن ينقدوا المكتبة وهم عاجزون حتى عن استبقاء الصحافة المحلية؟

كانت الظهيرة قد اقتربت حين ترجلت جون من الأوتوبيس على درب ريفي ضيق، والرحلة التي قضتها في قراءة ربيكا لم تفعل شيئاً لتهدئة أعصابها. لا تزال أمامها مسيرة ميل لبلوغ الفندق، وسرعان ما شعرت بالعرق ينهمر من جسمها تحت الرداء الجامعي السميك.

ثم سمعت جون موسيقى راقصة هادرة الإيقاع تأتي من خلفها، وحين التفتت رأت سيارة رياضية مكشوفة صفراء اللون تزأر على الطريق. لم يكن هناك رصيف، فكان عليها أن تقذف نفسها بعيداً عن السيارة، فسقطت على وجهها فوق الحشائش الملتفة التي تحف بالطريق. سمعت جون السيارة تبطئ سرعتها، وحين اعتدلت بوجهها وجدتھا واقفة بجوار موضع سقوطها، والسائق يرمقها بنظرة غريبة. سألھا وهو يخفض صوت الموسيقى: «أنت بخير يا عزيزتي؟». كان يرتدي فائلاً بيضاء تستعرض بنيته العضلية المسمرة.

ردّت عليه جون وهي تحاول أن تنهض بطريقة عفوية: «أنا بخير، شكرًا».

«لعلك تعرفين مكان فندق أوكفرد؟ لقد ضللت الطريق».

فخطرت لجون فكرة، هي من السخف بحيث إنها أحسّت بوجهها يحمرّ منها خجلاً. كلا، إنها مفرطة الخطورة. ماذا لو كانت قد أساءت الفهم؟ وكان هذا الرجل سفايحاً؟ لكن إذا كان من تظنه فقد يمثل استجابة دعواتها. «إحم، كنت أتساءل... هل يمكن لحضرتك أن تكون.. راقص تعرف؟»، نطقت جون تلك الكلمات بوجه قرمزي.

فنظر إليها الرجل نظرة محمّلة بما ظنته الاستياء، لكنه كان قد حقن وجهه بالبوتوكس حتى صار عاجزاً عن رفع حاجبيه. فقال لها بأنفة: «أنا أفضل مصطلح الراقص الخلاب. من تكونين حضرتك؟».

فحبست جون أنفاسها برهة قبل أن تجيب. «اسمي ماتيلدا، من مدعوات حفل عزوبية غايل».

«الحمد لله. إنني أتعول بالسيارة منذ عشرين دقيقة محاولاً العثور على ذلك الفندق الملعون».

«يمكنني أن أريك الطريق إذا شئت؟».

«عظيم، اركبي... أنا روكي».

فنفضت جون الحشائش عن نفسها وجلست في مقعد الراكب. «عليك أن تستدير نحو الجهة الأخرى».

«متأكدة؟ أنا قادم لتوي من الاتجاه المعاكس».

«صدقني، سأدلك على الطريق الصحيح».

دار الرجل بالسيارة وأسرع على الطريق. لم تكن جون قد ركبت سيارة مكشوفة من قبل، فبدأت تندم على أنها لم تربط شعرها إذ تلاعبت به الريح. وبدأ روكي يحكي لها عن الفقرة التي سيقدمها، وكيف حصل على زي جديد لرجال الشرطة، جاء خصيصاً من أمريكا وكلفه مئة جنيه. «الجمهور لا يعرف أن هذه المهنة مكلفة جداً يا ماتيلدا. يتخيلون أننا نقص أرجل البطلونات ونثبتها بالدبابيس وانتهى الأمر، لكننا محترفون، نتابع أحدث التصميمات».

حاولت جون أن تبقي عينيها على الطريق، لكنها لم تملك إلا اختلاس نظرات إلى روكي بين الحين والآخر. كانت بشرته ملونة بأغرب لون وقعت عليه عيناها، البن ممزوجة بالبرتقال، ومكسوة بطبقة مما افترضت أنه الزيت. في إحدى اللحظات مدّ روكي يده لجلب شيء من صندوق القفازات فانتفضت جون من طريقه مخافة أن يلمسها.

«المكان هنا»، قالت له فيما كانا يعبران جسر تشالكووت المؤدي إلى

شارع باراد، مروراً بالمكتبة.

«كنت أظنه فندقاً ريفياً؟».

«تم تغيير المكان في اللحظات الأخيرة. خذ اليسار القادم لو

سمحت».

وتوقفا أمام قاعة الكنيسة، فتنفست جون الصعداء حين رأت عربية الطاقم الإخباري في مكانها، رغم أن المصوّرة كانت ترص صناديق سوداء في الخلف.

سألها روكي: «أهذا هو المكان؟ قالت لي الوكالة إنه حفل لعلية القوم، لكننا أمام قاعة ريفية حقيرة».

«الفكرة هي أن العروس تعشق المكتبة المحلية، والمكتبة مهذّدة بالإغلاق. ولهذا فقد جمعت بين حفل عزوبيتها وبين فعالية لدعم المكتبة». كانت جون تدرك تمامًا سخافة حكايتها، وكانت ترى عدم التصديق على وجه روكي أيضًا. «لقد أحضروا طاقمًا إخباريًا لتصويرك». فأشرق وجه روكي. «طاقم تلفزيوني؟ لماذا لم تقولي من البداية؟». وقفز من السيارة مختطفًا حقييته من على المقعد الخلفي. «هيا بنا نبدأ». «عظيم. عند الدخول اسأل عن مسز برانزورث وقل لها إن ماتيلدا أرسلتك».

«ألن تدخلني معي؟».

«عندي مهمّات أخرى متعلّقة بحفل العزوبية يلزم إنهاؤها أولاً. لكن بالتوفيق».

نزلت جون من السيارة وابتعدت قبل أن يراها أحد من داخل قاعة الكنيسة. وحين وصلت إلى عربية الصحافة كانت تيسا تتكلّم في هاتفها المحمول.

«أجل، فشل ذريع. لا يستحقّ عناء المونتاج حتى».

فسعلت جون سعلة صغيرة. «المعذرة؟».

قالت تيسا، من دون أن تكلف نفسها فترفع عينيّها: «لا أوقع على أوتوغرافات».

«لكنني لست... أعتقد أن عليكِ العودة إلى هناك واستئناف التصوير».

«لا فائدة، هذه القصة غير جذيرة بالظهور في الأخبار».

«في خلال دقائق ستصبح أكثر تشويقًا بكثير».
«لعلهم لن ينفخوا بالونات على شكل حيوانات؟».
«صدقيني، أرجوك. الأفضل لك أن تصوري ما يحدث في الداخل».
فقطبت تيسا جبينها. «أرجو ألا أفاجأ بالمزيد من الوقت الضائع».
تعالى يا كليو». وأومات برأسها للمصورة التي تنهدت وأعادت سحب الكاميرا من حقيبتها.

وقفت جون عند محطة الأوتوبيس حتى لا تجازف بالاقتراب أكثر من ذلك. وراقبت تيسا وكليو وهما تدخلان. وبعد برهة سمعت الموسيقى تصدح من قاعة الكنيسة، النغمات الأولى من إحدى أغاني الريذم والبلوز، متبوعة بصرخة عالية مصدومة. ثم اقتنصت جون لمحة من روكي وهو يتبختر من الباب، لا يستره شيء سوى إزار جلدي أسود وقبعة شرطي أمريكي، فلم تتمالك نفسها من الضحك. ليت أليكس كان هنا ليرى هذا المشهد.

«ألن تصعدي يا عزيزتي؟».

التفتت لترى أن الأوتوبيس قد توقّف، والسائق ينظر إليها من الباب المفتوح. صعدت جون إلى الأوتوبيس، وكانت لا تزال تضحك، بينها وبين نفسها، عند تحرّكه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس عشر

حين اقتربت جون من الفندق كانت الساعة قد جاوزت الواحدة، أي إنها تأخرت كثيرًا. وفيما كانت تسرع باجتياز الباب الأمامي، لمحت صورتها في المرآة فكتمت صرختها. كانت على بلوزتها بقعة خضراء هائلة الحجم، من جراء إلقائها بنفسها على جانب الطريق، كما أن الرحلة في سيارة روكي عاثت في شعرها فسادًا، فصار الآن هالة من الهواش تحيط برأسها. حاولت جون أن تصفّفه بيدها، لكن من دون جدوى؛ كان عليها أن تدخل بمنظرها هذا. إن الحفل تنكري بكل حال، وإذا سيكون هناك آخرون لا يقلّ منظرهم عنها سخافة.

لكن قلب جون غاص في صدرها فور أن دلفت إلى بار الفندق. كانت نحو عشرين امرأة تقفن وتشربن الشمبانيا، وكلهنّ تلبسن أزياء مذهلة في بريقها. ها هي بيكي التي جاءت في زي أودري هيبورن في الفطور عند تيفاني، وتارا المتقمصة مارلين مونرو في البعض يفضلونها ساخنة. وفي المنتصف تقف غايل، وشعرها الأشقر مكوم بعناية فوق رأسها، في ثوب منفوش من الكرينولين، نسخة متألفة من ماري أنطوانيت.

تساءلت تارا: «هل هذه جون جونز؟». فالتفت الجميع ناظرين إليها. «لا أصدق أنك هنا!».

تسمّرت جون بجوار الباب، متمنية لو أنها تبخّرت في الهواء. «يا إلهي، ما زال شكلك بالضبط كما كنت أيام المدرسة»، قالتها غايل وهي تأتي إليها لتقبلها على الخدين. «بل إنك ما زلت ترتدين زي المدرسة!».

«في الواقع أنا مرتدية زي...».

قاطعتها تارا: «أين تعيشين هذه الأيام؟».

قالت بيكي وهي تنضم إليهنّ: «هل أنت عزباء؟ متزوجة؟ نريد كل التفاصيل».

انكشمت جون وهنّ يتجمعن حولها، وعادت بذاكرتها فجأة إلى هؤلاء البنات وهنّ يضحكن على ملابسها عتيقة الطراز، أو على الكتاب الذي كانت تقرأه.

قالت جون وصوتها يفضحها بارتعاشه: «ما زلت مقيمة في تشالكوت».

سألت بيكي: «وماذا تفعلين؟».

«أعمل في المكتبة».

فقالت غايل وهي تكرمش أنفها ازدراء: «لا أصدق أنك ما زلت تعملين عند أمي».

قالت بيكي: «أحسنت عملاً، فأنا أحب المكتبات. إنها مثيرة للفضول».

قالت تارا: «لم أدخل مكتبة منذ سنوات. ولا أدري لماذا يتجشّم الناس العناء بينما تُباع الكتب بأرخص الأسعار في أمازون». قالت بيكي: «ماذا عن حياتك العاطفية؟ أهناك من يشغلها؟».

تداعى وجه أليكس إلى ذهن جون، لكنها سارعت إلى هزّ رأسها نفياً. كان قد أخبر جون بأنه سيقضي العطلة الأسبوعية مع أصدقائه، ومنذ ذلك الحين وهي تحاول ألا تفكر فيه مع فتاة الواتساب، إيلي.

قالت لهنّ: «كلا، أنا عزباء»، فرأت نظرة خيبة الأمل على وجوه النسوة الثلاث. مضت غايل للتحدث مع ضيوف آخرين، ومّرت لحظة من الصمت المخرج بينما كانت جون تفكر في شيء آخر تضيفه. «وإذاً، ماذا تفعلان أنتما؟».

ردّت تارا: «أنا محامية، وبيكي مصممة ديكورات».

فصّحت لها بيكي: «مصممة ديكورات ومدربة حياتية. رغم أنني في إجازة أمومة حاليًا مع ابني مونتي».

فقالت جون: «رائع». كيف تمكنت الاثنتان من التقدم في هذه المهن المرموقة في سن الثامنة والعشرين فقط؟

ثم جاءت امرأة في زي 'وندروومن' للانضمام إليهن، وقالت لتارا: «إنني أحاول الاتصال بالراقص منذ نصف ساعة لكنه لا يرد. أنت متأكدة من إعطائه العنوان الصحيح؟».

«طبعًا أعطيته العنوان الصحيح».

«ماذا سنفعل إذا؟ المفروض أن يقدّم فقرته بعد الغداء».

فقالت تارا: «ما علينا سوى التفكير في حلّ آخر»، ثم نادى الحاضرين: «هيا يا جماعة، حان موعد الغداء»، فتحرّكوا

جميعًا نحو الحديقة الزجاجية.

كانت قد مُدت مائدة طويلة بتشكيلة مذهلة من الأطعمة، وحدث تدافع لمحاولة الجميع تأمين مقاعد قريبة من العروس. أما جون فقد اتخذت مكانًا على الطرف البعيد من المائدة، لتجد نفسها بين 'وندروومن' وامرأة تتنكر في زي لارا كروفت.

سألتها 'وندروومن' وهي تجلس: «كيف تعرّفتِ على غايل؟».

كانت ركبة جون ترتعش، فضغطتها بيدها حتى تهدأ. «كنا معًا في المدرسة».

«وماذا تفعلين الآن؟».

«أنا مساعدة لشؤون المكتبة».

«تمام». ثم غامت عينا 'وندروومن' والتفت لتحدّث إلى الأميرة ليا على الجانب الآخر منها.

دارت جون بعينيها حول المائدة. كانت هناك صحاف مليئة بشطائر

منمنمة، وقطع من أفخر أنواع الكعك والبسكويت. ولم تكن قد أكلت شيئاً منذ الصباح، فأصدرت معدتها قرقرة عالية. مدّت يدها إلى طبق صغير وكوّمت فوقه ثلاث شطائر وكعكة وقطعة من جاتوه الشوكولا، قبل أن تدرك أن الأخريات جميعاً قد وضعن في أطباقهن شطيرة واحدة. بجوار جون كانت 'وندر وومن' تستخرج السلمون المدخن من شطيرتها وتأكله، تاركة الخبز على الطبق. كانت لا تزال منهمكة في الحوار مع لارا كروفت وأخريات، لكن جون كانت سعيدة بتجاهلهم لها. وبعد انتهائها من طبقها، تفقّدت هاتفها. كانت هناك ثلاث رسائل نصّية من مارجرّي.

كيف تسير الأمور؟

برجاء إرسال تقرير عن حفل العزوبية.

حسناً؟؟؟

وضعت جون الهاتف في حقيبتها وتناولت المزيد من الكعك. هنا قامت تارا وهي تنقر على كأسها بملعقة وقالت: «طيب يا بنات، هل نلعب لعبة صغيرة على سبيل التعارف؟». وانتظرت حتى هدأت الثرثرة. «معظمنا نعرف بعضنا البعض، لكن هناك القليل من الوجوه غير المألوفة، ولذا فقد خطر لنا أن نلعب لعبة 'أبدأ لم يسبق لي' حتى نتعارف كلنا على نحو أكثر... حميمية».

فسرى الضحك حول المائدة، وأحسّت جون بمعدتها تتقلّص. لم تكن قد سمعت بهذه اللعبة من قبل، لكن اسمها لا ييشّر بخير. قالت تارا: «سأبدأ أنا بتحريك الأمور. وتذكّرن جميعاً، إذا سبق لأيّ منكنّ فعل ما أقوله يجب أن تشرب، وإذا لم تفعل ما سأقوله فلا تشرب. واضح؟». سرت همهمة موافقة، ورفعت معظم الحاضرات كؤوس الشمبانيا ترقّباً.

«طيب، سأبدأ بواحدة سهلة. أبدًا لم يسبق لي أن احتُجرت».

نظرت جون حول المائدة، فلم تر من يشرب إلا امرأة في زي أرنبة 'بلايوي'.

وسألها غايل، مصدومة: «فاي، ماذا فعلت؟».

«تجاوزت السرعة المقررة»، قالتها فاي بهزة كتف، وضحك الجميع.

قالت بيكي: «الدور عليّ. أبدًا لم يسبق لي الالتحاق بنادي ممارسة الجنس على الطائرة».

فتعالى المزيد من الضحكات بينما أخذت عدة نساء رشقات من شرابهنّ. لم تكن جون متأكّدة من ماهية نادي الممارسة على الطائرة، لكنها استبعدت أن تكون من أعضائه.

«أبدًا لم يسبق لي أن خنت شريكي»، قالتها لارا كروفت، فتصاعدت التآوهات بينما شرع عدد صادم من الحاضرات في أخذ رشقات.

وقالت أخرى: «أبدًا لم يسبق لي أن زرت أستراليا»، فشربت كثيرات من الحضور. وكورت جون قبضتها في حجرها لمنع يديها من الارتجاف.

قالت 'وندرومن'، وسط ضحكات عالية: «أبدًا لم يسبق لي أن خرجت عارية».

«أبدًا لم يسبق لي الذهاب في رحلة تخيم».

كانت جون تحدّق في كأسها المليئة وهي تحثّهن في سرّها على الانتهاء من اللعبة.

«أبدًا لم يسبق لي أن طُردت من وظيفة».

«أبدًا لم يسبق لي ممارسة الجنس في مكان عام».

«أبدًا لم يسبق لي القفز بالحبل المطاط».

أغمضت جون عينيّها وقلبها ينتفض. متى ينتهي هذا العذاب؟

«أبدًا لم يسبق لي السهر للرقص حتى السادسة صباحًا».

«أبدًا لم يسبق لي الرقص حول عمود».

«أبدًا لم يسبق لي ممارسة الجنس».

«جون؟».

استغرق الأمر لحظة حتى تدرك جون أن الحاضرات جميعًا سكتن،
وحين فتحت عينيها، كانت أعينهن مسلطة عليها. فغاصت في مقعدها.
سألها غايل: «أنت بخير يا حبيبتى؟»، فأومأت جون بالإيجاب
بصمت.

وقالت تارا: «أنت تفهمين قواعد اللعبة، أليس كذلك؟ لأن هناك من
قالت أبدًا لم يسبق لي ممارسة الجنس، على سبيل المزاح يعني، لكنك
لم تشربي».

أحسّت جون بربطة العنق تضيق حول عنقها، فحاولت حلحلتها.
وتابعت تارا: «المفروض أن تشربي إذا كنت قد فعلت الشيء
المذكور. ما لم تكوني بالفعل عذراء؟».

فضحكت إحدى الحاضرات من سخافة الفكرة، لكن الأخريات
جميعًا صمتن، ناظرات إلى جون بمزيج من الشفقة والارتياح.
«أنا... أنا أريد دخول المرحاض». ووقفت جون بسرعة مفرطة دار
منها رأسها، فحاولت التشبّث بظهر مقعدها لكنها أوقعته فسقط على
الأرض مقعقعا، وهي تستدير لتجري نحو الباب.

الفصل السادس عشر

اقتحمت جون المرحاض بعنف و صفقت باب المقصورة خلفها. كانت أنفاسها تخرج في دفعات قصيرة لاهثة، تشعر معها وكأنها تختنق. شدّت ربطة العنق من حول رقبتها وحاولت فك زرّ قميصها العلوي، لكن يديها كانتا ترتعشان، وظلّ مرفقها يتخبط في الجدران وهي تصارع ياقة القميص. وفي لحظة إحساسها بأنها ستنهار، انقطع الزر من مكانه وانفتح قميصها، فأحست على الفور بتخفيف الضغط عن عنقها وتهاوت فوق مقعد المرحاض واضعة رأسها بين ركبتيها.

ببطء شديد، عاد تنفس جون إلى طبيعته، لكنه عاد مصحوبًا بشعور ساحق بالهوان. كيف لم تفعل بحياتها شيئًا يُذكر هكذا؟ فلا هي خرجت عارية، ولا قفزت بالحبل المطاط ولا تجوّلت بين الملاهي ولا رقصت مع الأصدقاء طوال الليل. ولا زارت أستراليا لأنها لم تغادر انجلترا قط. بل إنها لم تتبادل قبلة مع رجل، ناهيك عن ممارسة الجنس.

بدلاً من هذا كلّهُ، كما أدركت جون وهي ترتعد، كان إنجاز حياتها يتمثل في جملة حزينة واحدة: أنها اشتغلت في مكتبة، وتوفيت أمها. هذا هو الملخص الوافي لسنواتها الثماني والعشرين، الشاهد البائس الذي من شأنه أن يُنقش على قبرها.

جاءت خبطة على الباب ثم انتفضت جون وهو ينفتح، فأسرعت وضمت ركبتيها إلى صدرها بحيث لا يرى القادم، أيّا كان، قدميها من تحت باب المقصورة.

ثم قال صوت، تعرّفت فيه على صوت بيكي: «يا إلهي، موقف في غاية الإحراج».

فقالت تارا: «لكنها ليست مفاجأة لأحد. كانت دائماً غريبة الأطوار أيام المدرسة. ألا تذكرين كيف كانت تلاحق غايل في السنة الأولى كالجرو الأليف؟».

فتحت إحدهما صنبورًا فجاء صوت الماء المتدفق.
وقالت بيكي: «تري لماذا دعتها غايل؟».

«لم تدعها، لكن جون توّسلت إلى والدّة غايل على ما يبدو كي تأتيها بدعوة».

«مستحيل، هذه مأساة. أيمكنني استعارة طلاء شفتيك؟».
«طبعًا».

وساد صمت، فحبست جون أنفاسها.
ثم قالت بيكي: «إنني أسأل نفسي، لماذا لم تكذب وتدّعي أنها فعلت بعض تلك الأشياء؟ هل تظنين أنها فعلاً عذراء؟».

«لن يفاجئني الأمر لو صح».
«يا ربي، تخيلي أن تبلغني الثامنة والعشرين من دون أن تفعلي أي شيء. ترى هل لديها أصدقاء؟».

«لم يكن عندها أصدقاء في المدرسة، ولذا أشك في وجودهم الآن. أتريدين رشّة عطر؟».

«نعم، لو سمحت».
وامتلأ الهواء برائحة زهرية قوية، فأمسكت جون بأنفها حتى لا تعطس.

قالت تارا: «هل تذكرين مرض أمها في وسط الامتحانات النهائية؟ سمعت أنها توفيت ونحن في الجامعة».
«صحيح؟».

«أنا متأكّدة من سماع هذا الخبر. ولا أعتقد بأن جون لديها أي أقارب آخرين».

«يا إلهي، هذا مرّوع. هلا عدنا الآن إلى هناك؟».

«نعم. هل رأيت ما ترتديه أليشيا، إنها تبدو...».

سمعت جون صوت انغلاق الباب وابتعاد الصوتين، فعَدَّت حتى العشرين ثم فتحت باب المقصورة وخرجت منها. كان العطر لا يزال معلقًا في الهواء، حلاوته الباعثة على الغثيان تلتصق بسقف حلقها، فظننت جون لوهلة أنها ستتقيأ. ثم حدّقت في صورتها في المرآة: الماسكارا سالت على وجنتيّها، وشعرها منفوش حول رأسها وكأنها مهرّج ملثاث من فيلم رعب. لم يكن ممكناً أن تعود إلى الحفل وتواجه أولئك النسوة البشعات بابتساماتهنّ المشفقة وضحكاتهنّ، بل إن عليها أن ترحل من هنا، فوراً.

التقطت جون هاتفها للاتصال بليندا حتى تأتي لأخذها، ثم تذكّرت أنها ذهبت لزيارة ابنتها في العطلة الأسبوعية. فتنهدت وبدأت تعيد الهاتف إلى حقيبتها حين رأت على الشاشة رسالة نصية.

أليكس تشن

عسى أن يكون حفل العزوبية ممتعاً -

أبلغني تهنئتي إلى غايل! ×

رأت جون اسم أليكس فأحسّت بالارتياح يغمرها حتى إنها، من دون أن تفكّر، ضغطت زر الاتصال ورفعت الهاتف إلى أذنها.

وحين أجاب سألته: «أليكس، هل تستطيع التحدث؟». خرج صوتها في همسة متهدّجة.

«طبعاً. هل أنت بخير؟».

«كلا، أنا...». وأحسّت جون بشهيق البكاء يتصاعد، فجاهدت

لكتمه.

«هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟». كان صوت أليكس مفعماً بالعطف.

فكان كل ما استطاعت التفوه به هو: «الحفلة... إنها فظيعة...». «أين أنت؟».

«مختبئة في الحمام».

«يجب أن تغادري المكان. هناك من يستطيع المرور لأخذك؟».

فأخذت جون نفسًا عميقًا. «أليكس، أعذر عن التطفل لكن ليس لدي شخصًا واحدًا أستطيع اللجوء إليه، فهل يمكنك...».

«آل، هل رأيت فستاني الأسود في أي مكان؟».

كان صوت المتكلمة شابًا، مغويًا، وتذكرت جون بغتة أن أليكس في لندن.

فغمغمت: «أنا آسفة، لم أكن أعرف...».

«كلا، لا عليك، انتظري ثانية واحدة... إيلي، إنني...». ثم أتى صوت حفيف بينما انتقل أليكس بالهاتف بعيدًا، وتخيّلته جون يغطي الميكروفون بيده. كان بوسعها تبين كلمة مهمة هنا وهناك.

«بنت من المدرسة...».

«تعيش وحدها...».

«ليس لها أحد...».

فكانت تحس بكل كلمة وكأنها صفعه على وجهها.

قال أليكس حين عاد إلى المحادثة: «آسف على هذا. ماذا كنت تقولين؟».

واشتد الخجل بجون حتى إنها احتاجت برهة لكي تعثر على كلمة تقولها. «لا شيء، الأفضل أن أمضي لحال سبيلي».

«كلا، لا عليك. أتريدني مني أن...».

«آسفة للإزعاج، وداعًا».

قطعت جون الاتصال ونظرت في المرأة وهي تشعر بموجة نفور من الوجه المثير للرثاء الذي طالعها. كانت تريد أن تصرخ من المهانة.

لماذا بحق الجحيم اتصلت بآليكس وهو مع حبيبته؟ وبدأت تتخيلهما وهما يضحكان على البنت الغريبة من أيام المدرسة التي تثير الأسى، إلى درجة أنه ليس عندها أصدقاء تطلب منهم المساعدة. بل أسوأ من هذا، لا يضحكان بل يشفقان عليها.

أقلت جون بهاتفها في حقيبتها، وهي تقاوم دموعها الحارة، وأسرعت خارجة من الحمام.

استوقفت جون تاكسي يعود بها، وقضت بقية النهار مختبئة خلف الستائر المسدلة لحجب شمس أغسطس الساطعة. حاولت أن تقرأ آمال عظيمة، لكنها كلما قرأت مشهداً تظهر فيه ميس هافيشام، كانت تشعر بأنها تعرفها، فانتهى بها الأمر إلى إلقاء الكتاب من يدها. وبدأت تنظف البيت، لكن كل صورة وتحفة كانت تبدو وكأنها تهزأ بها. أغاظتها القارئة الخزفية وهي تنفض التراب من عليها، كيف بقيت عذراء حتى الثامنة والعشرين؟ وسألتها أمها من كل صورة فوتوغرافية في إطارها، مم تخافين إلى هذا الحد يا جون يا حبيبتي؟ حتى الآن بنيت شارك في المهزلة، فبدا وكأنه يقول لها وهي تطعمه، كم أنت فاشلة. لقد اختبئت في هذا المنزل بدلاً من أن تخرجي وتعيشي حياتك.

في ذلك المساء، بينما كانت جون تستلقي متهالكة على الصوفا، تتفرج من دون حماسة على حلقة قديمة من مسلسل أربعة في سرير، صفر هاتفها. نظرت إليه فرأت رسالة من أليكس. وعند رؤية اسمه أحسّت بطعنة ألم من ذكرى محادثتهما الهاتفية وكلماته إلى إيلي. بنت من أيام المدرسة... تعيش وحيدة... ليس لها أحد... كان أليكس الشخص الوحيد الذي تستطيع جون أن تصفه بأنه صديق أو يكاد، لكن ها هو قد عرف حقيقة حياتها المؤسفة.

التقطت جون الهاتف ونقرت على الرسالة.

أليكس تشن

مرحبًا، عسى أن تكوني بخير؟
أخبرني أبي بأنه رأى فعالية احتجاج المكتبة في
الأخبار المحلية - لا أصدق أن هؤلاء المتزمتين
أعضاء أصم مك تش قد اتفقوا مع راقص تعزًا!
لكنه خبر رائع بالنسبة للحملة x

وهنا اعتدلت جون جالسة. وسط كل رثائها لنفسها لم تكن قد فكرت
ولو مرّة في فعالية المكتبة صباح اليوم. فبحثت على هاتفها بسرعة عن
الأخبار المحلية. كان هناك تقرير عن مشروع عمراني محلي، لكن جون
لم تستطع التركيز فيه، وظلّت تحتّ القصة على الانتهاء.
وفجأة ظهرت تيسا على الشاشة وهي تقف أمام قاعة الكنيسة.
«هناك ستة مكاتب في دننغشاير يهددها المجلس بالإغلاق. لكن
واحدة منها فقط توصلت إلى هذه الطريقة المبتكرة للفت الانتباه إلى
قضيتها».

حُجب عنها داخل القاعة، حيث كان روكي يتلوى في منتصف
المكان مرتديًا زي راعي بقر من الجلد. كان يرقص تحت أنظار تجمع
صغير تعلو وجوهه نظرات الدهول، ووسطهم جاكسون، بفم فاغر من
الدهشة.

كانت تيسا تقول: «مع قرب انتهاء عملية المجلس الاستشارية بعد
سبعة أسابيع، لجأ أصحاب القضية في تشالكوت إلى احتجاج لافت
للأنظار».

ثم انتقلت الفقرة الإخبارية إلى مسز برانزورث، التي كانت تبدو
زائفة العينين، فهممت: «إحم، لقد خطر لنا أن هذا العرض قد يساعد
في جذب الانتباه إلى حملتنا»، بينما كان روكي يدور ويتراقص خلفها.
وها هو ستانلي الآن على الشاشة، واقفًا أمام القاعة. «لعلنا مجرد

مكتبة صغيرة، لكنها مورد حيوي بالنسبة لأهل المنطقة. إن الناس يعتمدون عليها في ما يتجاوز الكتب بكثير. ستكون مهزلة إذا أغلقها المجلس».

ثم عادت الصورة إلى روكي، الذي كان هذه المرة لا يرتدي أكثر من سير جلدي. مع انفتاح زاوية الصورة، ظهرت فيرا أمامه، تدهن صدره بما يشبه كريمة الخفق وعلى وجهها نظرة تركيز.

انتهت الفقرة الإخبارية، وجلست جون تحدّق في هاتفها في صمت ذاهل. لقد أفلحت حيلتها، وتمكنت رقصة روكي من وضع احتجاج المكتبة في دائرة الضوء. انتشرت ابتسامة بطيئة على وجه جون، ثم ضحكت بصوت عالٍ فأفزعت آلان بنيت الذي كان نائمًا بجوارها. بينما كان القط ينظر إليها باستغراب. قالت له: «لقد فعلتها يا آلان، فعلتها عن حق».

التقطت جون صورة مؤطرة من على المنضدة المجاورة للصوفا. كانت صورة لأُمها، التقطت منذ سنوات أمام مكتبة تشالكوت. وكانت ييفرلي مبتسمة في الصورة، وبرج الساعة يتعالى فوق رأسها وهي تضيق عينها للكاميرا. مسحت جون التراب من على زجاج الصورة.

وهمست: «أنا آسفة على قلة حيلتي يا ماما. أعرف أنني أهدرت حياتي وخييت أملك. لكنني سأحاول تغيير هذه الأوضاع الآن، أعدك بهذا».

الفصل السابع عشر

عند وصول جون إلى مناوبتها بعد ظهر نهار الاثنين، وجدت فيرا متمترسة على منضدة داخل المكتبة، تحكي لكل من يصغي عن مغامراتها مع روكي.

وكما قالت لتجمع من سيدات التريكو والثرثرة: «لعلمكنّ، كنت أحسبه كريم حلاقة، لكنها كانت كريمة خفق حقيقية، فقد تذوقتها».

«كان منظرًا عجيبيًا»، قال ستانلي لجون وهي تشرع في ترتيب لوحة الإعلانات. «غير ثلاثة أزياء مختلفة: رجل شرطة، وراعي بقر، ورجل إطفاء. وكانت بنطلوناته مثبتة بلاصق فيلكرو حتى يتسنى له خلعها بسهولة. فكرة في منتهى الذكاء - ربما أجربها مع بدلتني».

قالت شانتال وهي تأتي إليه بهاتفها: «ستانلي، تأمل هذا. قبل خروج الطاقم الإخباري يوم أمس، كنا نتمتع بمئة وأحد عشر إعجابًا على فايسبوك. لكننا الآن نناhez الألف».

«هذا رائع!».

«والناس يغمروننا بالرسائل، يسألون ما خطوتنا التالية».

«يجب أن نسأل مسز برانزورث، ستجدين عندها خطة».

فقالت شانتال وهي تشير إلى الباب: «ها هي قد وصلت».

قال ستانلي: «ها هي بطلّة الساعة. تحية كبيرة لمسز برانزورث».

فعاجلته مسز ب.: «كف عن هذا. لم يكن لي أي شأن بذلك الراقص،

فأنا أعارض الاستغلال الجنسي بأية صورة من الصور».

فسألها ستانلي: «من الذي أتى به، إذًا؟».

خففت مسز ب. صوتها فاضطرت جون لمدّ عنقها حتى تسمع.
«قال لي الراقص إن من أرشدته إلى الاحتجاج امرأة باسم ماتيلدا».
وحين نطقت مسز ب. بالاسم كادت جون أن توقع كومة منشورات
تحملها في يدها. فأدارت ظهرها عن الجماعة سريعاً.
تساءلت فيرا: «من هي ماتيلدا بحق الجحيم؟»
فرد ستانلي: «ماتيلدا هي مرشدتنا السريّة. التي تبلغنا المعلومات عبر
المتوتر».

قالت شانتال: «لعلك تقصد تويتر».
«نعم نعم. إنها جاسوستنا التي ترسل لنا التواتيت. وهي التي أخبرتنا
بأمر براين سبنسر في الحانة، ولقاءات مارجري السريّة مع الفريق
الاستشاري. وها هي قد قدّمت لنا هذه الخدمة».
قالت مسز ب.: «رغم استيائي من أساليب ماتيلدا إلّا أنها أنقذت
مؤخراتنا مرة أخرى. وعلينا الآن أن نضرب الحديد وهو ساخن».
فقال ستانلي: «ما رأيك في تنظيم فعالية ما أمام مبنى البلدية؟ بوسعنا
أن نصنع لافتات ونغني بعض الأغاني».

فردت مسز ب.: «نعم، كما في حركة الحقوق المدنية الأمريكية».
فقدمت فيرا من بين أسنانها: «لا تقولي إنك شاركت في تلك أيضاً».
واصلت المجموعة ثرثرتها، لكن جون ابتعدت عنهم. الاحتجاج
أمام مبنى البلدية فكرة جيدة، لكن ما تحتاج إليه المكتبة فعلاً هو المزيد
من الاستعارات الخارجية. ألم يقل المجلس إنه سيتخذ قراره بناءً على
أعداد الكتب الصادرة، التي كانت جون تعرف أنها انخفضت على نحو
خطر بالنسبة لتشالكوت. اختلست جون نظرة إلى مسز ب. وستانلي
وشانتال، ثم أخرجت هاتفها ورقنت رسالة سريعة على تويتر من ماتيلدا.
«تعالى هنا فوراً!!».

كانت مارجري ترقب جون عبر أرضية المكتبة، بعينين ضيّقتين.

ثم همست لجون حين لحقت بها: «ما معنى هذا المقلب الذي دبرته بخصوص الراقص؟».

«لقد فعلته من أجلك يا مارجري، لم تكن هناك طريقة أخرى لمنعه من الرقص في حفلة العزوبة».

«لكنك مرّغت اسم مكتبة تشالكوت في الوحل. سأصبح أضحوكة الاجتماع الشهري القادم لمديري المكتبات». وهوّت مارجري على نفسها برواية ورقية الغلاف. «أهناك من يعرف أنك أنت التي أرسلته؟».

«لا أحد على الإطلاق، لقد أرسلته بهوية مخفية».

«شيء أفضل من لا شيء. إذا عرف المجلس فسوف نصبح في العراء، أنا وأنت».

قالت جون: «لكن لا بد من الاعتراف بأنها كانت دعاية جيدة لحملة المكتبة».

«هممم... وكيف كانت حفلة غايل؟».

قالت جون: «كانت جيدة»، وهي تصلي ألا تكون غايل قد حكّت لأمها عما حدث.

«حسنًا، أنا ممتنة لمساعدتك، وعلى سبيل الشكر سأحرص على أن تصلك دعوة للزفاف. في المساء فقط طبعًا».

«لا داعي أبدًا».

«لا تكوني بلهاء، أعرف أنك تريدين الحضور».

«لكن في الواقع...».

«انتهى هذا الحوار، فأنا مشغولة بالكثير والكثير». واستدارت مارجري مبتعدة، ثم عاودت الالتفات إلى جون. «تذكّري ما قلته لك. لا يجب أبدًا أن يعرف المجلس بوجود أية صلة بينك وبين الراقص أو أصـ مك تش. إذا عرفوا فلن أستطيع حمايتك».

في خلال ما بقي من الأسبوع، فعلت جون كل ما بوسعها لمساعدة
أص مك تش في السرّ، فأجرت الأبحاث عن الحملات الناجحة لإنقاذ
المكتبات في أنحاء البلاد، وبعثت بالتفاصيل من خلال ماتيلدا. وحين
خرجت مارجري في فعالية تواصل مجتمعي صباح الأربعاء، استجمعت
جون شجاعتها وفشت مكتبها علّها تكتشف أية معلومات عن مسز
كولتر، الاستشارية الإدارية. ولم تجد شيئاً، لكن الأدرينالين المتدفق
أثناء تجسّسها أصابها بالتوتر بقية اليوم.

يوم الخميس، كانت جون تساعد أحد الزوار في التقدم بطلب جواز
سفر على الإنترنت، حين سمعت صوتاً مألوفاً خلفها. كانت تتجنب
أليكس منذ المكالمة الهاتفية المحرجة، ففوّتت وجبة الطعام الصيني
ليلة الاثنين، وهكذا فإن صوته المفاجئ بالقرب منها جعل بشرتها تتوهج
حمرة. نظرت جون من خلف كتفها فرأته منهمكاً في حوار مع ستانلي.
كان ستانلي يقول، بصوت خفيض: «ألم تقل شيئاً آخر؟».
«كلا، ما قلته لك فقط».

«لكن ما معناه في تقديرك؟ هل تريد مني أن...».
«عفوًا يا آنسة؟». كان الرجل الذي تساعده جون يحملق فيها. «ماذا
يجب أن أفعل الآن؟».

فردت جون: «آسفة»، وجسمها كله مشتعل بالخجل. هل كانا
يتحدثان عن مكالمتها لأليكس يوم السبت؟ ألا يكفي اكتشاف أليكس
لرثاءة حياتها، حتى يطلع ستانلي على هذا بدوره؟ ظلت جون معرضة
بظهرها عنهما فيما كانت تساعد الرجل في استيفاء طلبه، وهي تصلي ألا
يلحظ ستانلي وأليكس وجودها.

لكن بعد دقائق قليلة أحسّت بشخص يمشي خلفها.
«مرحبًا بالغريبة».

ولم تطق جون أن تلتفت لترى وجه أليكس المفعم بالشفقة، فأبقت
عينَيها مثبتتين على شاشة الحاسوب أمامها. «مرحبًا».

«كيف حالك؟».

«لا بأس». ورقنت جون شيئًا على لوحة المفاتيح، آملة ألا يرى ارتعاش يديها.

«لم تزوري المطعم ليلة الاثنين، فبدأت أخشى أن...».

قاطعته جون قبل أن يكمل جملته: «عفوًا لكنني أساعد أحد الزوار هنا». فسمعت تنهيدة خافتة من خلفها، وبعد لحظة أحست باختفاء أليكس.

انتهت جون من مهمتها واتجهت إلى المكتب، فاسترق ستانلي، الجالس في مقعده، النظر إليها وهي تمرّ بجواره، لكنه لم يقل شيئًا. وفي أثناء عودتها إلى المكتب، دخلت مسز برانزورث من الباب الأمامي كالعاصفة.

وصاحت: «هؤلاء الحقراء! الحقراء الخونة المتواطؤون».

سألها ستانلي: «ما الخطب؟».

«ذهبت الآن إلى المتجر لأرى عدد التوقيعات التي جمعناها على التماسنا، فأخبرني ناريش بأن الالتماس سُرق».

«مستحيل! ماذا عن النسخة التي في الحانة؟».

«اختفت تلك أيضًا. وقالوا إنها اختفت من على البار يوم أمس».

«يا ربي. كنا قد اقتربنا من خمسمئة توقيع لتأييد المكتبة، ضاعت كلّها».

فقالت مسز ب.: «سيتعين علينا البدء من جديد».

«لكن ماذا لو سُرق مرة أخرى؟».

لم ينطق أحد منهما لوهلة، وكانت جون تكاد ترى لهفتها في البحث عن أفكار.

قال ستانلي: «ربما يجب علينا تجربة الالتماس الإلكتروني الذي اقترحتة شانتال؟».

«أظن هذا»، قالت مسز ب. رغم أن نبرتها كانت توحى بالتشكك.
كان ستانلي يهز رأسه استنكارًا. وقال: «لا أصدق أن يتدنى أحد إلى
درك سرقة التماس! من يمكن أن يفعل هذا؟».
فقالت مسز ب.: «الأرجح أن يكون المجلس. إلا إذا كان شخصًا
أقرب من ذلك...».

قالت هذا وهي تنظر مباشرة إلى جون. والتقت أعينهما لوهلة،
فأشاحت جون بوجهها سريعًا.

صاحت فيها مسز ب.: «لا تخيلي أنني لم ألاحظك وأنت تتلصصين
وتتنصتين علينا»، ثم بصوت بلغ من ارتفاعه أن ران الصمت على كل من
بالمكتبة، أضافت: «ماذا كانت أمك لتقول لو عرفت أنك تعملين لصالح
إغلاق هذه المكتبة؟ أنت وصمة عار، ولو كانت أمك هنا لتوارت خزيًا
بسببك».

أحست جون بكلمات مسز ب. وكأنها طعنات في قلبها، وأرادت
لوهلة أن تهتف بأنها ماتيلدا، وأنها تساعدكم في معركتهم، لكنها
استدارت وهرعت نحو خلفية المكتبة، والدموع تغشي عينيها.

أهذا حقًا ما يعتقدّه الجميع عنها، بمن فيهم ستانلي؟ أغمضت جون
عينيها عازمة على ألا تبكي. لكنها احتاجت بضع دقائق حتى تتمالك
نفسها، وعند عودتها إلى المكتب كانت مسز ب. وستانلي قد انتقلا
إلى مكان الحواسيب بعيدًا عن مسمعها. راقبتهما جون وهما منحنيان
على لوحة المفاتيح. يبدو من ظاهر الأمور أنهما يكتبان التماسًا على
الإنترنت، وهذا يُحمد لهما طبعًا، لكن كيف سيعرف أهل القرية
بوجوده؟ كان الالتماس الورقي على الأقل معروضًا في أماكن ظاهرة
بحيث يراه الناس، لكن جون تدرك أن الكثيرين من أهل القرية لا يفقهون
شيئًا في الالتماسات الإلكترونية. لو أن هناك طريقة تنشر بها الخبر من
دون أن يعرف أحد أنها المسؤولة.

نظرت جون إلى ستانلي ومسز ب. مرة أخرى، ثم خطرت لها فكرة أحسّت منها بدفعة من الحماسة. نعم نعم، هذا بالضبط ما كانت ماتيلدا لتفعله.

قبيل منتصف الليل، التقطت جون حقيبة ظهرها وغادرت بيتها متّجهة إلى شارع باراد. كانت الشوارع خالية في هذه الساعة من الليل، ومع ذلك فقد احتاطت بارتداء ملابس داكنة وقبعة بيسبول قديمة كانت تخص أمها، أنزلت حافتها بحيث تغطي وجهها.

كان مبنى المكتبة مظلمًا وهي تقترب منه، وبرج الساعة يلوح على خلفية القمر. تأكّدت جون من عدم وجود أحد على مقربة، ثم فتحت الباب الأمامي وانسلت منه. في الداخل كانت المكتبة حالكة السواد، لكن جون كانت تعرف تضاريسها أكثر من أي مكان آخر، فأمكنها الإبحار بين المناضد والأرفف من دون أن ترتطم بشيء. حين وصلت إلى الحواسيب شغّلت أحدها، وأدارت الشاشة بحيث لا يظهر وهجها من النافذة، وبدأت ترقن.

بعد ساعة تسللت جون من المكتبة وأعدت غلق الباب الأمامي. كانت الحقيبة على ظهرها أثقل وزناً الآن، فشدّتها فوق الكتفين معًا وهي تنفّلت من المكتبة نحو متجر القرية. على الجانب المقابل من الطريق، كان هناك من ينزه كلبه أمام الحانة، وهو يصفر لنفسه، فربضت جون في الظلام حتى ابتعد. ثم مدّت يدها داخل الحقيبة وشرعت في العمل.

في الصباح التالي وصلت جون إلى المكتبة في التاسعة كالمعتاد. لم تكن قد نامت أكثر من ساعتين، لكنها رغم هذا تدندن لنفسها وهي تقوم بأعمال الافتتاح الروتينية.

في التاسعة والرّبع سمعت الباب الأمامي ينفّتح، وتدخل مارجري.

صاحت مارجري على سبيل التحية: «هل رأيت المنظر في الخارج؟». «ما المشكلة يا مارجري؟».

«شارع باراد تعرض للتخريب!».

«صحيح؟»، قالت جون بكل الدهشة المصطنعة التي استطاعت استجماعها. «لا بد وأنني لم أنتبه كثيرًا في طريقي إلى هنا اليوم». «لا أدري كيف يمكن أن يفوتك المشهد. لقد ألصقوا هذا على واجهات كل المباني». ولوّحت مارجري بورقة لجون، ثم بدأت تقرأ منها. «إذا كنت مهتمًا بالكتب والثقافة، فعليك التوقيع على التماس مكتبة تشالكوت... إذا كنت مؤمنًا بحق كل طفل في أفضل الفرص في الحياة، عليك التوقيع على التماس مكتبة تشالكوت... إذا كنت تريد تقديم الدعم لمن يحتاجونه في مجتمعك المحلي، إلخ إلخ إلخ. وبعد هذا يوجد رابط لموقع الالتماس الإلكتروني».

«يا للعجب، لا بد وأن هذا من تدبير أص مك تش»، قالت جون بوجه حاولت أن تبقيه حياديًا.

«هناك المئات من هذا الملصق بالخارج - شكل القرية مروّع. يجب أن أخبر براين، بصفته رئيس مجلس البلدية ستزعجه هذه الفوضى».

اندفعت مارجري من المكتب واستدارت جون للنظر من نافذة المكتبة الأمامية. كان شارع باراد مزدحمًا اليوم، وقد تحلّقت مجموعات صغيرة من الناس حول واجهة الحانة والمخبز لقراءة الملصقات التي ألصقت خلال الليل. أخرجت جون هاتفها وفتحت المتصفح على التماس أص مك تش الجديد. فأظهرت الصفحة أن هناك 789 توقيعًا.

فسمحت لنفسها بابتسامة صغيرة، وأعدت الهاتف إلى جيبتها، وتابعت عملها.

الفصل الثامن عشر

كانت جون ترقب الرجل، الذي يبدو في منتصف العشرينات، ويرتدي ثيابًا أثقل مما يحتمل الجو، وهو منزوٍ في ركن يلعب بهاتفه. لم يكد يرفع عينه من على الشاشة خلال الساعة الأخيرة، منهمكًا في اللعبة التي يلعبها. كان شاحب البشرة كأنه لا يخرج كثيرًا، فقررت جون أنه مصاص دماء، يختبئ في المكتبة لتجنب الشمس اللاهبة. وبما أنه أكل شطيرة لحم مشوي قبل قليل فمن الواضح أنه يشتهي اللحم، وفي أية لحظة الآن سيرمي بالهاتف من يده ويتجه إلى فيرا، التي ستنظر إليه مذعورة، فينحني عليها ويفتح فمه ويقول:

«هذه مكتبة عامة وليست بيتًا مشبوهًا!».

كانت مارجري تقتاد اثنتين من المراهقين محتقنَي الوجه من ناحية الحمام. «أعرف أن الجو حار بالخارج، لكن عليكم البحث عن مكان آخر». وقادتهما إلى الباب الأمامي ثم راقبتهما وهما يتبعدان، يدًا في يد. كان أغسطس يقترب من آخره، وثمة موجة حارة تكاد أن توقف الحياة في تشالكوت. ذبلت سلال الزهور المعلقة في شارع باراد منذ زمن بعيد، وبضاعة متجر الآيس كريم تنفذ خلال ساعات من كل شحنة جديدة، والحظر المفروض على استخدام خراطيم الري يدفع ممارسي البستنة إلى الجنون. والمكتبة هي أرطب مباني القرية، حيث تعمل الجدران الحجرية السميكة والأسقف العالية على جعل الجو محتملاً. نتيجة لهذا، فقد صارت المكتبة أيضًا أكثر مباني القرية ازدحامًا، فحين تفتح جون الباب كل صباح تجد ستانلي متبوعًا بطابور من

متقاعدین نافدی الصبر، یندفعون من جنبها للاستحواذ علی أُمیر المقاعد المجاورة للنوافذ. وهم بعد هذا یقضون الیوم کله فی المکتبة، یهوون علی أنفسهم بمنشورات من علی الحوامل، ویشکون من تورم أرجلهم، ویطلبون أکواب الماء. وحين لا تسخر جون نفسها لخدمتهم فإنها تكون فی قاعة الأطفال، تؤدّي دور الفنانة الترفیة الهاویة أمام العشرات من الصغار المتمللمین، بینما یحدّق ذووهم وأولیاء أمورهم فی هواتفهم بفتور.

أتت مارجرى تنضم إلی جون عند المکتب. «أما زلتِ ذاهبة إلی وِنتن عصر الیوم؟»

«لست متأكدة من قدرتی علی التحرك فی هذ الحرّ. أتریدین منی أخذ مناوبة إضافية هنا؟»

«بل أرید ثلاثة صحاف فضیة للکعک من متعهد الحفلات بشارع وِنتن الرئیسى. هل یمکنک تسلّمها نیابة عنی وتوصلها إلی هنا؟»
«اتفقنا».

«لقد أعلنت غایل أنها ترید کعکات فی أکواب بجوار کعكة الزفاف الکبيرة، ولهذا فعلیّ أن أخبز مئة کعكة منها فوق کل شیء آخر».

شغلت جون نفسها ببعض الکتب حتى لا تضطر للدخول فی حوار عن حفل الزفاف. کان التفكير فی حفل العزوبة لا یزال یوتّر جسمها کله، من فرط المهانة، بعد مرور أسبوعین.

ثم سألتها مارجرى: «بالمناسبة، هل عندک فكرة عما تدبّره جماعة أصدقاء مکتبة تشالکوت المزعومة؟ لقد سقطوا فی صمت مریب منذ تعلیق ملصقاتهم».

«لا أعرف شیئاً».

«حسنًا، ابقي أذنیک مفتوحَتین. لا أرید أية مفاجآت سخیفة أخرى».

في منتصف النهار غادرت جون المكتبة وأخذت الأوتوبيس، فنزلت منه في شارع وندن الرئيسي وسط بحر من المتسوقين والمشاة. كانت تكره الزحام عمومًا، ناهيك عنه في هذا الجو الحارّ، لكنها أحنت رأسها وأرغمت نفسها على الانضمام إليهم. ما كان عليها سوى تسلّم صحاف مارجري، ثم الذهاب إلى ماركس وسبنسر لشراء طلبها المعتاد من السراويل الداخلية البيضاء العادية، واللحاق بعد ذلك بأوتوبيس العودة. وفيما كانت تشق طريقها بطول الشارع الرئيسي، لفت نظرها على اليسار متجر لم تكن قد لاحظته من قبل. كانت واجهته أرجوانية اللون، وفي الفترينة مانيكان ترتدي ثيابًا داخلية سوداء. كانت نوعية أفخم بكثير مما تلبسه جون عادة، ولعلها بضعف الثمن. لكنها في المقابل ستوفر عليها عشر دقائق إضافية من التدافع والزحام للوصول إلى ماركس وسبنسر. وهكذا انعطفت جون يسارًا ودخلت.

«مرحبًا، هل أساعدك؟». استقبلت جون عند دخولها شابة تضع الأقراط في وجهها كله.

فقالت جون: «شكرًا، أنا أتفرج فقط». ودلفت إلى عمق المتجر، لكن المساعدة تبعتها.

«عندنا تخفيض 15 بالمئة على كل اللعب حاليًا، أي إنك جئت في اللحظة المناسبة».

لم تكن جون قد لاحظت أنها في متجر للّعب. فنظرت حولها للمرة الأولى ووقعت عيناها على فترينة تضم العشرات مما يشبه أصابع طلاء الشفاه. التقطت واحدًا منها، فكادت أن تسقطه على الأرض. «يا للهول، أهذا...؟».

«هذا هو الثعبان الأرجواني سباعي السرعات، من أفضل قطعنا مبيعًا».

وبوغت جون لم تدر أين تثبت عينيها.

«كما أننا نقدم عرض اثنين بسعر واحد على الكلة الرجراجة». وقدمت لها المرأة شيئاً صغيراً كروي الشكل.

«آسفة، كنت أظن المحل مخصصاً للانجيري».

«عندنا لانجيري أيضاً، ها هو». وقادتها المساعدة إلى حامل خلفهما، تتدلى منه تشكيلة من قطع الملابس الداخلية الهفهافة. فتنفست جون الصعداء ولمحت سروالاً داخلياً أبيض اللون عادي المظهر، وما إن تناولته حتى اكتشفت أنه مفتوح.

«يبدو لي أنك مستجدة في هذه الأمور. لكن الأرنب الخريزي لعبة مناسبة للمبتدئات»، قالت المرأة وهي تناول جون علبة تحتوي على شيء عملاق وردي اللون.

كانت جون ملهوفة على مغادرة المكان، لكنها لم تدرك كيف تهرب من هذه البائعة المتحمسة، التي اقتربت منها الآن بقطعة فضية مرعبة الشكل.

«سأخذ هذا بعد إذنك»، قالتها جون وهي تقذف السروال المفتوح بين يدي البائعة.

«اختيار عظيم. هناك سوتيان وكورسيه شفاف لاستكمال الطاقم، إذا أحببت استكماله؟».

«يكفي هذا جدّاً، مع جزييل الشكر».

«ألا تريدین بطاقة ولاء؟ ستوفّر لك...».

«لا عليك، شكرًا، أنا مستعجلة. وشكرًا جزيلاً على مساعدتك».

اختطفّت جون الكيس الأرجواني وهرعت من المحل، فاصطدمت وهي تخرج بأحد المارة.

«غير معقول...».

رفعت جون عينيها لترى ليندا مبتسمة لها بحاجبين مرفوعين. «مبروك عليك يا حبيبتى».

فاندفعت جون تقول: «كنت أظنه متجرًا للثياب الداخلية».

«وهل اشتريت شيئًا أنيقًا؟». كانت ليندا ترمق الكيس في يدها. «قولي لي إذًا، أهى قطعة لك؟ أم هدية لأليكس؟».

فصرخت جون: «كفى!»، ورفعت ليندا يدها ضاحكة.

«ليتك ترين وجهك الآن. تعالي، سأدعوك إلى شراب حتى تهدأي». وقادت جون إلى مقهى على الجهة المقابلة من الطريق. «ابحثي عن طاولة وأنا سأطلب لنا الشاي».

عثرت جون على بقعة بجوار النافذة. لم يكن قد سبق لها دخول المكان، الذي كان سقفه مجوَّفًا، بأرضية خشبية وجدران عارية من الملاط، وعشرات الناس يجلسون إلى طاولات صغيرة، يثرثرون أو يعملون على الحواسيب المحمولة. مكان أنيق، لكن جون تفضل المقهى المعزول في آخر الشارع، بكنباته المتنافرة وصاحبته غريبة الأطوار.

«تفضلي، طلبت لنا قطعة حلوى أيضًا»، قالتها ليندا وهي تضع الصينية على الطاولة.

«شكرًا يا ليندا، لقد أنقذتني مرة أخرى».

«يسرني التقاؤنا بالصدفة، كنت أنوي المجيء لزيارتك».

«ماذا فعل آلان بنيت هذه المرة؟».

«الأمر لا يتعلق به. لقد لاحظت شيئًا في فترينة متجر القرية قبل يومين، وخطر لي أنه قد يهملك». فتشت ليندا في حقيبتها واستخرجت ورقة مكرمشة، فناولتها إلى جون.

هل عندك كتب قديمة لم تعد تحتاجها؟

دار 'شجرة الكرز' للمتقاعدين في أمس

الحاجة إلى كتب قديمة لتسلية النزلاء.

نرحب بكل الأنواع والقوالب الأدبية.

قالت ليندا: «خطر لي أن هذا المكان مناسب لبعض كتب أمك القديمة».

«شكرًا»، قالتها جون ودست المنشور في حقيبتها قبل أن تتفوه ليندا بكلمة أخرى.

«كيف تسير الأمور مع أليكس إذا؟ هل خرجتما في موعد آخر؟».

«لم يكن موعدًا. قلت لك إننا مجرد صديقين».

«خسارة. إنه وسيم جدًا - ألا تميلين إليه؟».

قالت جون متجنبًا النظر في عيني ليندا: «كلا، كما أن عنده حبيبة».

«متأكدة؟ لم يذكر جورج شيئًا عن حبيبة لأليكس، مع أنني كنت أستجوبه بشأنه».

«عنده حبيبة بكل تأكيد». وبقوة قطعت جون قطعة من حلوى الجزر.

«هل حكى لك أليكس عنها؟».

«كلا، لكنني سمعته يها تفها».

فقطبت ليندا جبينها. «غريب. كيف ينجح في إخفائها عن الجميع؟

لعلها قبيحة أو غبية أو ما أشبه».

«ليندا، لا يصح أن تقولي هذا! أنا واثقة من أنها جميلة وذكية». كانت

جون تتخيل امرأة فارعة القامة بشعر حريري طويل وصوت مغو، ترتدي

فستانًا جذابًا أسود اللون. تخيلتها مع أليكس في موعد، وهما يضحكان

على تلك الفتاة الغبية في تشالكوت، المحرومة من الأصدقاء ومن

الحياة. حشت جون فمها بقضمة كبيرة من الحلوى.

«أمر مؤسف فعلاً. لكن البحر مليء بالسماك. هل عرفت أن ابني

مارتن ترك فتاته؟».

كانت جون تحس بعيني ليندا عليها؛ فلطالما حاولت ليندا التوفيق

بين جون وبين ابنها الأصغر، منذ كانا مراهقين. رفعت جون فنجانها

لتناول رشفة منه حتى لا تضطر للرد. لكنها لمحت شعار المقهى على

جانب الفنجان. كان للوهلة الأولى يشبه دوامة حمراء، لكنها حين دقت النظر وجدت أنه مكون من حرفي «س ي» متشابكين. حدّقت جون فيه وهي تحاول أن تتذكّر أين رأت هذه الصورة من قبل.

«مستحيل!»، قالت وهي تخطب الفنجان على المائدة.

«ماذا؟ مارتن ليس بهذا السوء قطعاً».

«هذه الصورة - أهى شعار هذا المقهى؟».

«بالطبع، شعار 'كوبا كوفي'».

«كوبا كوفي. يا إله السموات».

«ما الخطب يا حبيبتي؟ أنت كمن رأت شبحاً».

فتمثّلت جون في ذهنها شبيهة مسز كولتر التي رأتها في المكتبة قبل أسابيع. «لقد رأيت هذا الشعار من قبل، على لوح مشبكي مع امرأة في المكتبة».

فردت ليندا: «وإذا؟».

«كانت في اجتماع مع مارجري وظننتها من الاستشاريين الإداريين، لكن ماذا لو كانت شيئاً آخر؟ ماذا لو كانت تعمل لحساب سلسلة مقاهي؟».

«آسفة يا حبيبتي، أنا عاجزة عن متابعتك».

نظرت جون إلى ليندا بعينين متسعيتين. «أرجو أن أكون مخطئة يا ليندا، أعتقد أن كوبا كوفي يحاولون شراء مكتبة تشالكوت».

الفصل التاسع عشر

وصلت جون إلى المكتبة بعد ساعة، متوقّعة أن تجد المكان هادئًا بالصخب، لكنها وجدته على هدوئه المعتاد. لم يكن هناك أثر لمسزب. أو ستانلي، وحين تفقدت جون هاتفها لم تجد ردًا على الرسالة التي أرسلتها باسم ماتيلدا. فلعلهم لم يروها حتى الآن؟ قالت لها مارجري وهي تلحق بها عند الباب: «أخيرًا. هل أحضرت صحاف الكعك؟».

«أسفة جدًا، نسيت».

«بحق السماء، طلبت منك طلبًا واحدًا بسيطًا...». ورفعت مارجري عينيها إلى السماء. «سأذهب لإحضارها الآن، أي إن عليك التكفل بالإغلاق وحدك».

راقبتها جون وهي تغادر المبنى. هل كانت مارجري حقًا متورطة في مخطط لإغلاق المكتبة؟ لقد قضت جون رحلة العودة في العودة من وندن في التساؤل عن هذا الأمر. من ناحية، كانت الفكرة تبدو غير معقولة، فقد قضت مارجري ثلاثين عامًا في المكتبة، ومهما كانت مزعجة إلا أنها كانت تبدو دائمًا مخلصًا للمكان. لكن جون شاهدت مارجري هنا مع مندوبة كوبا كوفي، وسمعتهم تتناقشان حول المبنى. كما استرقت السمع إلى زوج مارجري وهو يتكلّم عن رشوة بعض أعضاء المجلس لتسهيل أمر ما. فماذا لو كان براين ومارجري ضالعين في مخطط لإغلاق المكتبة، بحيث يتسنى افتتاح فرع لكوبا كوفي في مكانها؟ كانت جون قد نقلت هذا كله في تغريداتها إلى أص مك تش، فلماذا لا ترى مسز برانزورث وستانلي هنا الآن في ثورة عارمة؟

زحف اليوم بطيئًا، وحاولت جون التركيز في عملها، لكنها عجزت عن هذا، وظلّت تتفقد هاتفها. في الخامسة رحل آخر الزوار، وكانت جون بصدد إغلاق الحواسيب حين سمعت صوت الباب الأمامي يفتح. فنادت من مكانها: «آسفة، لقد أغلقنا»، لكنها حين التفتت، كان ستانلي واقفًا في مدخل الباب. وأوشكت جون أن تبوح له بأمر كوبا كوفي، قبل أن تتذكّر أنه ما زال لا يعرف أنها ماتيلدا.

قال ستانلي: «لا تبالي بي، أكملّي عملك»، ومضى إلى مقعده وجلس عليه، وهو يضع حقيبة تحت قدميه.

ف قالت جون: «إحم، إنه موعد الإغلاق، وعليك أن تنصرف». كان تعبير السكينة على وجه ستانلي يثير توترها. «أخشى أنني سأبقى هنا يا عزيزتي». «ماذا تعني؟».

فألقي ستانلي بصره حول المكتبة. «مارجري هنا؟». «كلا، أنا بمفردي».

«إذا فلعلي مضطر لإخبارك، في هذه الحالة». «إخباري بماذا؟».

اعتدل ستانلي في مقعده. «اعتبارًا من الآن، أنا معتصم في مكتبة تشالكوت».

فانشت جون مذهولة. «ماذا؟».

«هناك مُبلغة سرية تتعاون مع أص مك تش، أبلغتنا بأن مارجري وبرايين يعملان مع شركة خاصة لإغلاق المكتبة. ولهذا فقد قرّرت الاعتصام في المكتبة حتى يستمع المجلس إلى صوتنا أخيرًا». «لكنني لا أستطيع السماح لك بالبقاء هنا خارج المواعيد الرسمية. ستقتلني مارجري».

«سأقول لها إنني اختبأت في المرحاض عندما كنت تغلقين المكان. وبهذا يمكنك العودة إلى بيتك من دون أن يكون لك أية صلة بالأمر».

حارت جون بماذا تجيب. من المؤكد أنها ستُطرد بدعوى الخطأ الجسيم إذا تركت ستانلي في المكتبة. لكن كيف لها أن تخرجه؟ قد يكون في الثانية والثمانين، لكنه أضخم منها حجمًا وليس بوسعها اقتياده إلى خارج المبنى.

«أرجوك، لا يمكنك أن تنام هنا. هلا وجدت طريقة أخرى للاحتجاج؟».

ردّ بابتسامة شاحبة وحزينة. «أنا آسف لكنني لا أستطيع إدارة ظهري بينما تباع المكتبة من تحت أقدامنا».

فنظرت إليه جون مستنجدة. «لكنني لا أستطيع تركك هنا».

«لا تقلقي، سأعتني بالمكان وكأنه بيتي».

«لكن مارجري...».

قاطعها ستانلي: «دعك من مارجري. أحيانًا قد تضطر لتجاوز القواعد إذا كنا مهتمين بشيء معين يا جون. وأنا شديد الاهتمام بمكتبة تشالكوت».

فوقفت جون عاجزة عن اتخاذ قرار. هل تتصل بمارجري وتحذرها؟ لكن مارجري ستأمرها عندئذ بإخراج ستانلي، أو تلومها على تصرفه. فلعل أسهل السبل هو ترك ستانلي يقضي ليلته هنا، ولتتعامل معه مارجري في الصباح.

مضت جون على مضض إلى المكتب لتأتي بحقيبة يدها. وعند عودتها كان لا يزال جالسًا في مقعده، يقرأ الجريدة.

«هل أنت فعلاً مضطر لفعل هذا يا ستانلي؟».

فرفع عينيه عن الجريدة. «أخشى هذا يا عزيزتي. لكنني سأحرص على حمايتك من أية آثار سلبية».

سارت جون نحو الباب الأمامي وأطفأت الأنوار، ثم عاودت النظر إلى ستانلي، إلى رجل مسنٍّ في بدلةٍ من التويد. وفجأة ومضت في ذهنها

صورة لأمرها واقفة عند تلك المنصدة بالذات، تساعد أحد المترددين على المكتبة. رفعت أمرها عينها مما كانت تفعله ونظرت إلى جون مباشرة، من دون أن تبسم.

ما الذي يخيفك إلى هذه الدرجة يا جون يا حبيبتى؟

فتلعثت جون ويدها على مقبض الباب.

تخيلي أن تبليغي الثامنة والعشرين دون أن تفعل أي شيء.

ثم أغمضت عينها وسمعت الدم يهدر في أذنيها.

لو كانت أمك هنا لتواتر خزيًا بسبك.

فتحت جون عينها وتركت مقبض الباب.

ماذا كانت ماتيلدا لتفعل؟

استدارت جون لتواجه ستانلي، واندفعت تقول له: «سأبقى معك»،

قالتها قبل أن تقوى على منع نفسها.

فنظر إليها مدهوشًا. «ماذا؟».

«سأنضم إليك يا ستانلي، سأبقى أنا أيضًا هنا».

«هذه رقة منك لكن لا داعي لها. سأكون بخير تمامًا بمفردي».

«لكن شخصًا واحدًا لا يمثل احتجاجًا، أليس كذلك؟ إذا كنت تريد

من المجلس أن يستمع فأنت بحاجة إلى أعداد أكبر».

«أنا ممتن لهذا العرض، لكن ماذا ستقول مارجري إذا وجدتك هنا؟

لا يصح أن تخاطري بوظيفتك من أجل شيخ أبله مثلي».

كانت جون تحسّ الآن وكأنها تقف على سفير هاوية، تنظر من ارتفاع

هائل، وتساءلت لو هلة إن لم يكن الأفضل أن تراجع وتهرع إلى الأمان

في بيتها قبل فوات الأوان. ثم ابتلعت ريقها قبل أن تتكلم. «ستانلي،

هناك شيء يجب أن أخبرك به».

«أجل؟».

«الحكاية هي أنني... أنا ماتيلدا».

فحدّق فيها مبهُوتًا: «عفوًا؟».

«أنا التي أرسلت لكم تغريدات تويتر، وأنا التي أرسلت روكي إلى قاعة الكنيسة، وأنا التي نشرت الملصقات حول القرية. كان الخوف يمنعني من الإتيان بأي تصرف علني يهدّدني بفقدان وظيفتي، لكنني تعبّت من حياة الخوف».

«صحيح؟ يا إله السموات، لم أكن أعرف». ثم أشرق وجه ستانلي بابتسامة. «ومع ذلك يا جون فهناك فارق بين المساعدة بهوية محجوبة والانضمام إلَيّ هنا. فهل أنت متأكّدة من رغبتك في القيام بهذا؟».

قالت جون: «أجل، أنا متأكّدة»، وأدركت وهي تنطق الكلمات بصوت عال أنها تقولها من قلبها. «هذه المكتبة أهم شيء في حياتي، وأنا أريد النضال من أجلها. أيّا كانت العواقب».

فزأر ستانلي: «مرحى!»، وهو يرفع قبضته في الهواء. «إذا فليبدأ اعتصام مكتبة تشالكوت».

الفصل العشرون

أغلقت جون الأبواب من الداخل والتفت لترى ستانلي يذرع الأرض جيئةً وذهابًا.

ثم قال: «حسنًا، هذا وضع مثير. لا أظن أن عندكم طعامًا في هذا المكان؟».

فدخلت إلى المكتب ووجدت كيسًا من شرائح البطاطس بالملح والخل، وعددًا من قطع البسكويت بالكاستر البائثة، ثم أعدت فنجانين من الشاي وخرجت بهما. وكان ستانلي قد جاء بمصباحين وضعهما على الأرض خلف المكتب، وجلس على مقعد بجوارهما. فكان المشهد يوحي بنيران مخيم من نوع خاص.

قال ستانلي: «الأفضل ألا يعرف أحد بوجودنا هنا مؤقتًا. حتى نتمكن من إعداد هجمة مفاجئة يوم الغد».

«لقد أفرطت في قراءة روايات الحرب يا ستانلي». وضعت جون طعامهما الزهيد على المكتب وجلست بجواره. «ماذا تتوقع أن يحدث غدا؟».

قال وهو يتناول قطعة بسكويت. «ستصل مارجري فنمنعها من الدخول. أتخيل أنها ستصل بالمجلس، الذي سيرسل مندوبًا إلى هنا، وحينها نتقدم لهم بمطالبتنا».

«أية مطالب؟».

«أن يعدونا بإبقاء المكتبة مفتوحة وممولة من موازنة المجلس».

«لكنهم لن يوافقوا على هذا أبدًا».

«إذا فسوف نبقي هنا حتى يوافقوا».

«ولن تذكر نظرتي عن كوبا كوفي؟».

«كلا، فنحن بحاجة إلى دليل قبل رفع هذا الأمر إلى الشرطة».

عند سماع كلمة الشرطة، أحست جون برعدة تسري في بدنها. «هل تعتقد بأن الشرطة ستأتي للقبض علينا؟».

«طالما لم نخرب شيئاً فإننا لم نخرق القانون. وإذا أرادوا إخراجنا سيكون عليهم اللجوء للمحكمة لاستصدار أمر إخلاء، وهو ما قد يستغرق أسابيع».

تخيلت جون بقاءها هنا بعد عدة أسابيع، وحيدة مع ستانلي، تأكل الكتب لسدّ جوعها. «يبدو أنك تعرف الكثير عن الأمر، فهل سبق لك الاعتصام من قبل؟».

«اعتصام على سبيل الاحتجاج السياسي؟ أنا؟ مستحيل!». وبدا وكأنه يوشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه تناول قطعة أخرى من البسكويت. «حسناً، وماذا سنفعل حتى ذلك الحين؟».

«يمكننا أن نوثق معرفتنا الواحد بالآخر». وتراجع ستانلي في مقعده، وهو يحتضن فنجانه بين كفيه. «لقد ظللت أراك في هذه المكتبة يومياً على مدار سنوات، لكنني لا أعرف شيئاً يذكر عن حياتك خارج هذه الجدران».

«أخشى أنه ليس فيها ما يذكر».

«كلام فارغ. دعينا نبدأ من البداية. هل ولدت في تشالكوت؟».

«بل في باث، لكننا استقرّينا هنا وأنا في الرابعة. ورثت أمي المنزل عند وفاة جدتي، ثم أتينا إلى هنا بعد حصولها على وظيفة المكتبة».

«وماذا عن أبيك؟ لا أعتقد أنني تشرفت بمعرفته».

«ولا أنا».

كانت الشمس تنحدر من السماء فتلقي بظلال طويلة على الرفوف. التقطت جون شظية خشب من على المكتب.

وقال ستانلي بعد برهة: «يؤسفني سماع هذا. أسمحين لي بسؤال آخر؟».

«طبعًا».

«هل شعرت يومًا بأن شيئًا قد فاتك بسبب غياب أبيك؟».

كان ذهن جون نادرًا ما ينصرف إلى الرجل الذي أنجبها، إلى درجة أن السؤال باغتها. «في الواقع لا. كنت أتعرض للتعبير في المدرسة لهذا السبب، لكن أُمِّي كانت من العبقريّة بحيث أتقنت القيام بدور الأم والأب معًا».

كان ستانلي يحدّق في الفراغ، شاردًا في أفكاره. نظرت جون حول المكتبة، محاولة أن تجد مكانًا يصلح للنوم.

ثم قال ستانلي: «عندي ابن».

«أعرف هذا، لقد رأيتك ترأسه إلكترونيًا».

فأغمض عينيه برهة. «الأمر أعقد من هذا بعض الشيء. لم أرَ مارك منذ وقت طويل».

«أمريكا بعيدة على كل حال».

«كلا يا عزيزتي، لقد أسأت فهمي». ثم تمهل ستانلي قليلًا. «لم أكن أبًا صالحًا، بل عانيت من مشكلات إدمان الكحول، وزوجتي... أو طليقتي... قررت أنني أضره أكثر مما أفيده».

فذهلت جون حتى لم تدرك ماذا تقول، فقد كان ستانلي يبدو دائمًا مكتمل التهذيب واللياقة، وهو آخر شخص تتخيّل معاناته من إدمان الكحول.

تابع ستانلي: «تركني الاثنان ورحلا حين كان مارك في الثالثة عشرة. كان لكيتي أقارب في كاليفورنيا، فهاجر الاثنان إلى هناك، منذ اثنتين وثلاثين عامًا».

«ولم تر ابنك منذ ذلك الحين؟». حاولت جون أن تخفي الصدمة من صوتها.

«سافرتُ إلى هناك مرة، في السنة التالية لرحيلهما. كما جاء هو لزيارتي هنا حين أتم الثامنة عشرة. لكنني وقتذاك لم أكن في حالة جيدة، وأخشى أنني أفسدت الأمر كله».

«كم أنا آسفة». مدت جون يدها إليه، لكنه هز رأسه كأنما يهزّ عنه شفقتها.

«الذنب ذنبي بالكامل. لم أكن على وفاق مع الكحول، فاتخذت بعض القرارات الرديئة. لقد أحسنتُ كيّتي صنعًا بالرحيل».

«لكنك لم تعد في تلك الحالة. يمكنك الآن أن تكون أبًا رائعًا».

«كرم منك أن تقولي هذا، وأعترف بأن هذا ما جعلني أكتب إليه. لكن الاستماع إلى حديثك جعلني أدرك أن ابتعادي عنه أفضل له. مارك الآن في الخامسة والأربعين، وقد سمعت أنه ناجح جدًا. فلماذا يقبل وجودي في حياته الآن؟».

«أرجوك يا ستانلي، لا تقل هذا. إن أوضاعنا مختلفة تمامًا، فأبي لا يعلم بوجودي أصلاً، لكن ابنك يعرفك وقد أرسلت له كل تلك الرسائل الإلكترونية، وأنا واثقة...».

قوَّطع حديث جون بصوت طرق عنيف على الباب، فانبطح الاثنان أرضاً.

وهمست لستانلي: «من هذا؟ أتراهم من الشرطة؟».

«سأذهب وأنظر». وبدأ ستانلي يزحف عبر أرضية المكتبة.

أقعت جون خلف المكتب وقلبها يتخبط بين ضلوعها. استمر الطرق، أعلى صوتًا وأكثر إلحاحًا، ورأت شعاعًا من ضوء بطارية يتراقص على النوافذ الأمامية. أيًا كان الطارق فهو غاضب ومتلهّف على الدخول. وفي لحظة كادت جون فيها أن تصرخ، سمعت ستانلي يطلق: «أوه» متعجّبة، ويفتح الباب. وحين أطلت جون من فوق المكتب، رأت مسز ب. وعلى وجهها أمارات الاستنكار، تخطو إلى داخل المكتبة.

«كنت أتمشى بجوار المبنى فرأيت الأضواء هنا. ماذا تفعلان بحق اللعنات كلها؟».

قال ستانلي: «نحن معتصمان في المكتبة، وجون هي ماتيلدا. لقد كانت هي مبلغتنا السرية من البداية».

«أنت ماتيلدا؟». نظرت مسز ب. إلى جون وكأنها فقدت عقلها. «لكنك لم تُظهري أي اهتمام بمساعدتنا مطلقاً».

«أنا آسفة. قال المجلس إن تورّط العاملين بالمكتبة في الاحتجاج يعرّضهم للطرد، لهذا اضطررت للمساعدة بهوية محجوبة».

«يا لروعة الصدفة. وأنا التي كنت أظنك جاسوسة علينا، مع أنك واحدة منا». وأنعمت مسز ب. على جون بلكزة قوية. «مرحبًا بك وسط المعركة يا أختاه».

«شكرًا»، قالت جون بابتسامة، وهي تدعك ذراعها.

قال ستانلي وهم يجلسون: «لقد قررنا أن الوقت قد حان لنُظهر جدّيتنا للمجلس. ولهذا اعتصمنا في المكتبة».

«معك كل الحق، حان الوقت كي نصعد هذه الحملة إلى المستوى التالي. ثم إنني لم أشارك في اعتصام منذ زمن طويل». ولمعت عينا مسز ب. قالت جون: «ستانلي يعتقد بأن المجلس ربما يستعين علينا بالشرطة». «فليحاولوا. لقد واجهت مدافع الماء والغاز المسيل للدموع والحواجز البشرية. فلن أخاف من بضعة شرطيين من الأرياف».

«ألم تشعرني بالخوف أبدًا في أي احتجاج؟».

فرمقتها مسز ب. بنظرة استنكار. «أتظنين أن المطالبات بتصويت النساء كن يخفن عند تقييد أنفسهن بالسلاسل على القضبان؟ هل خافت روزا باركس حينما قبضوا عليها من داخل الأوتوبيس؟».

«لكننا لسنا مثل هؤلاء».

«ولم لا؟».

فأحسّت جون بالحرج لاضطرارها إلى التفسير. «حسنًا، صحيح أن المكتبة ضرورية لنا ولمجتمعنا المحلي، لكن احتجاج هؤلاء المناضلات كان يتعلّق بأمور عظيمة، عمومية، مثل التصويت للنساء وإنهاء الفصل العنصري».

«ونحن نناضل من أجل المساواة الاجتماعية، ومحو الأمية، ومستقبل أبنائنا». ولكزت مسز ب. مجددًا جون بإصبعها. «أتعرفين أنهم أغلقوا ما يقرب من ثمانمئة مكتبة في هذه البلاد خلال السنوات العشر الماضية؟ وسوف تتزايد الأعداد إذا تركنا الحبل على الغارب لهذه الحكومة اللعينة. صحيح أننا مكتبة في قرية صغيرة، لكن القضية أكبر منا بكثير. يجب أن نناضل من أجل تشالكو كوت كما لو كانت المكتبة الأخيرة على كوكب الأرض».

«مرحى، مرحى»، قالها ستانلي وهو يرفع فنجانه. «إذًا، للإجابة عن سؤالك يا جون: لا. أنا لا أخاف أبدًا حين أناضل من أجل ما أعرف أنه حق».

«أما أنا فكنت مرعوبة»، قالت جون وهي تضم ركبتيها إلى صدرها. «مم؟ من القبض عليك؟». وبدأ على مسز ب. الاستغراب الشديد. «بل من كل شيء».

أخذت جون رشفة من شايبها الفاتر. لم يكن أحد يتكلّم، فاستنشقت نفحة من عبق المبنى وحكاياته. ولبرهة قصيرة سمحت لنفسها بتخيل المكتبة بعد إغلاقها - الكتب وهي تشحن على عربات، والمكان وهو يتحول إلى مقهى كالذي جلست فيه ظهر اليوم - فداهمتها موجة غامرة من الأسى.

«أعتقد بأن أسعد ذكرياتي كانت مع أمي هنا». «لا بد وأنك تفتقدونها كثيرًا». ومدّ ستانلي يده وربّت على ركة جون. «بعد موتها كان حزني عليها... جارفًا. كنت قد كرّست ثلاث سنوات

من عمري لرعاية أُمي، وبعد رحيلها أحسست بأنني لم أعد أملك شيئاً. أعتقد بأن الشيء الوحيد الذي شجعني على المواصلة هو العمل في هذه المكتبة».

قالت مسز ب.: «قد يصنع بك الحزن أشياء غريبة. فقدت عزيزاً منذ زمن بعيد، وظللت لمدة طويلة بعدها من دون أية رغبة في النضال أو الاحتجاج. لم أكن أريد سوى أن أتكوّر على نفسي وأنام». سألتها ستانلي: «هل تزوجت يا مسز برانزورث؟».

«كلا، لم أتزوج قط. الحق أنني لم أدرك يوماً ما فائدة الرجال. أما شريكتي فقد كانت...». وصمتت مسز ب. لم يسبق لجنون أن رأتها تحتار ماذا تقول.

«وكيف تعاملت مع الحزن؟».

«لقد أدركت أنني أسوء إليها بكآبتي وراثتي لنفسي. كانت تحبني لأنني غاضبة صاحبة أنغص عيش الظالمين. وبالتالي فإنني أخذتها بانعزالي عن الحياة وخوفي وانزوائي». «ماذا فعلتِ إذا؟».

«خرجت في تظاهرات الاحتجاج على الضريبة، فاحتجزوني بتهمة الشغب. وقضيت ثلاثة أيام في السجن».

قال ستانلي: «يا للهول».

«لكنني كنت أشعر بأنني عدت إلى الحياة. شعرت بأنني حية لأول مرة منذ وفاتها».

غاصت جنون في مقعدها. متى كانت آخر مرة أحسّت فيها بأنها حية، حقاً وصدقاً؟ وبدأت تستعرض في ذهنها السنوات الثماني التي مرّت منذ وفاة أمها، لكنها لم تستحضر أية صورة سوى صورتها وحيدة في البيت، مع كتبها، وهذه لا تكاد تعتبر حياة، أليس كذلك؟ ثم تذكّرت جنون شعورها حين رأت الفقرة الإخبارية عن روكي، واللذة السرية التي

أنتها من علمها بأنها هي التي فعلت هذا. أو الليلة التي قضتها في التسلل حول تشالكوت وهي تلتصق الملتصقات.

قالت مسز ب. وهي تنهض واقفة: «يجب أن نحصل على قسط من الراحة».

فجمعت جون الفناجين وذهبت تفتش في صندوق الأمتعة المفقودة، فعثرت على معطف تركه صاحبه، وعادت به.

«في حال شعرت بالبرد»، قالت وهي تناول المعطف لستانلي.
«شكراً لك يا عزيزتي. سيكون يومنا غداً طويلاً، فاحرصي على نيل نصيبك من النوم».

راقبته جون يلاصق بعض المقاعد ببعض لصنع سرير مرتجل، بينما ابتكرت مسز ب. حشية للنوم من معطف الصوف الخام الذي ترتديه، بجوار رف الكتاب المسموع. وأذهلتها بساطة تعاملهما مع المكان وكأنه بيتهما.

رقدت جون في الركن بجوار رف الأدب القصصي أ-ج وأغمضت عينيها، لكنها لم تكن متعبة. بل وجدت نفسها على وعي حاد بالأصوات الصادرة من جهة مسز ب. وستانلي، أنفاسهما وهمهماتهما. وأدركت أن هذه هي أول ليلة تقضيها مع آخرين في غرفة واحدة منذ وفاة أمها. عدّلت جون وضعيتها لتنام، لكن عقلها ظل يعمل بنشاط، وبعد دقائق قليلة نهضت لجمع كومة من الكتب المصورة من فوق عربة المرتجع، وعادت بها إلى قاعة الأطفال، وبدأت تفرزها على الأرفف.

ألبرغ أ.، ألبرورج.، أنتوني س. كانت قاعة الأطفال قد خضعت للتجديد قبل سنوات، لكن جون ظلت تذكر كيف كانت القاعة في طفولتها. في مكان اللوحة الجدارية الآن كانت توجد صورة للدب ويني، كما أن الصوفا الصغيرة عند النافذة حلّت محل منضدة وبعض الكراسي.

كامبل ر.، كارل إ.، تشايلد ل. استحضرت جون صورة أمها وهي جالسة هنا، تقرأ القصص على الأطفال المتجمّعين. هنا قرأت جون كتابًا بمفردها لأول مرة، وهي تهجى الكلمات بصوت عال بينما تسمعها أمها، مبتسمة.

دال ر.، دونالدسن ج. بعد سنوات طويلة، حين كانت أمها في مراحل السرطان الأخيرة مقيمة في دار رعاية المحتضرين، أصرت بيغيرلي على الذهاب إلى المكتبة لمرة أخيرة. وكانت عملية مرهقة تتطلب عربة إسعاف ومعدات طبية من كل شكل ونوع، لكن عند الوصول دفعت جون أمها فوق المقعد المتحرك إلى داخل قاعة الأطفال، وجلستا تتأملان مارجري وهي تدير فقرة الأناشيد، وأمها تغني مع الأطفال.

هارغريفز ر.، هيل إ.، هيز س. جلبت الذكرى الأخيرة الدموع إلى عيني جون، فتكوّرت على الأرض وتركت دموعها تسقط تحت جناح الظلام. كان كل ركن من هذه القاعة محمّلًا بالذكريات، وكيان أمها يتخلل نسيج البساط وصفحات الكتب. إذا ضاعت المكتبة ستضيع أم جون ثانية معها؛ وهذا ما لن تسمح بحدوثه أبدًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والعشرون

لا بد وأن النوم قد غلب جون في لحظة من اللحظات، لأنها فتحت عينيها فوجدت نفسها مستلقية على الأرض، مغطاة بالمعطف الذي كانت قد أعطته لستانلي. كانت الشمس قد طلعت، مُلقية بأشعة طويلة من الضياء على الكتب في قاعة الأطفال. وقفت جون وهي تتمطى، وعادت إلى القاعة الرئيسية.

«ما هذا بحق الجحيم؟».

«كانت كل الجدران مكسوة بملصقات تقول 'ارفعوا أيديكم عن المكتبة' و'أنقذوا مكتبة تشالكوت'».

قالت مسز برانزورث وهي تلتصق ملصقاً جديداً فوق صورة مؤطرة للملكة: «أجربنا بعض الديكورات الداخلية، فسألناها جون: كم يبلغ عددها؟».

«خمسة وأربعون، على وجه الدقة. طبعتها كلها بنفسى على الحاسوب»، قال ستانلي وهو يتيه فخرًا.

قفزت مسز برانزورث من المقعد الذي كانت تقف فوقه. وسألت: «ما موعد وصول الغولة إلى هنا؟».

فأجابت جون: «في نحو التاسعة والربع».

«تمام، أماننا إذا ساعتان لتجهيز كل شيء».

«تجهيزه لماذا؟».

«لن نقضي اليوم في شرب الشاي. نحن في حالة حرب، وعلينا تخطيط هجمتنا».

مرّت الساعات التالية في إعصار من النشاط. طبع ستانلي مئة منشور عن الاحتجاج، فذكر فيها أسباب الاعتصام في المكتبة وأهدافه. وأعدت جون ترتيب المناضد لإخلاء أكبر مساحة ممكنة، كما كتبت بخط اليد عدة لافتات لتعليقها في النوافذ الأمامية حتى يراها المارة. بعد جلوسها الطويل في مقاعد المتفرجين، كانت تستمتع كثيرًا بانضمامها أخيرًا إلى صفوف العاملين مع مسز برانزورث وستانلي، كعضو في الفريق.

أما مسز ب. فكانت تذرّع أرجاء القاعة. «اسمعي يا جون، أريد شيئًا كبيرًا وثقيلًا لا يمكن تحريكه بسهولة».

نظرت جون حولها فلمحت عربة المرتجع العتيقة، وتمكنت الاثنان معًا من تحريك إلى صدارة القاعة. شرحت لها مسز ب. أن الغرض هو إمكانية التمرس خلفها إذا تدهور الموقف.

«ماذا تقصدين بتدهور الموقف؟ مسز برانزورث؟».

فهزت مسز ب. كتفها وأمرتها بملاحقة «تلك المرأة العجفاء من طاقم الأخبار»، لترى إن كان بوسعها تغطية الاعتصام.

بحلول التاسعة وعشر دقائق كان كل شيء في مكانه، وكانوا يقفون خلف الباب الموصد في انتظار وصول مارجري.

سأل ستانلي جون: «أنت متأكدة من استعدادك لأن تراك بيننا؟ ما زال بوسعك أن تختبئي، وسنقول لها إنك انصرفت ليلة أمس».

أخذت جون نفسًا عميقًا قبل أن تجيب. «كلا، لم أعد أريد الاختباء».

«عظيم»، قال ستانلي وهو يربّت على ذراعها.

فسألته جون: «ماذا ستقولان عند وصولها؟».

«سنقول لها إنها لا تستطيع دخول المبنى حتى يعلن المجلس عن وعد بإبقاء المكتبة مفتوحة».

«هل سبقت لك رؤية مارجري بمزاج عكر؟ مستحيل أن تتقبل هذا».

ردت مسز ب. وهي تغمز لجون: «كما أنك لم تريني حين يتعكّر

مزاجي».

وبعد لحظة شاهدوا مارجري تعبر الطريق نحو المكتبة وفي عينيها نظرة الاستعداد للقتل.

ثم زارت وهي تقترب: «ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟ جون؟». صاحت مسز ب. من وراء الباب: «هذا احتجاج سياسي. هذه المكتبة محتلة وسوف تظل كذلك حتى يستجيب المجلس لمطالبنا». «مسخرة وكلام فارغ! أدخلوني».

فلم يتحرك أحد منهم.

«جون، افتحي الباب!».

فتحت جون الباب بمقدار بوصة. «أنا آسفة يا مارجري، لم أعد قادرة على التفرّج بصمت».

قالت مارجري: «أنت مدركة لعواقب تصرفك هذا، صح؟ لن أستطيع حمايتك من المجلس».

فأومات جون بالإيجاب. كانت تشعر بالغيثان.

قال ستانلي: «نريد التحدّث مع ممثل للمجلس وتقديم مطالبنا. وحتى ذلك الحين لن يمكنك الدخول، شكرًا».

«بحق السماء، وقتي لا يتسع لهذا الهراء. ألا تعرفون كم أنا مشغولة؟». فقالت مسز ب.: «سنظل هنا بقدر ما يتطلب الأمر. تسقط تخفيضات الموازنة! يسقط يسقط حكم المجلس!».

رمقتهم مارجري بعينين تقدحان نارًا. «لا بأس إذا، سأتصل بهم. لكن إياكم وإفساد أي شيء داخل مكنتي».

ثم استدارت ومضت عائدة عبر الطريق. وأغلقت جون الباب ويدها ترتعشان.

قال ستانلي بارتياح: «تمت المرحلة الأولى. هلا نشرب فنجانًا من الشاي؟».

على مدار الساعات التالية، ومع وصول الناس إلى المكتبة، كان جون وستانلي ومسز ب. يوزعون عليهم المنشورات ويشرحون لهم ما يفعلونه. فكان بعضهم يبدي الحيرة وينصرف، لكن الأكثرية عرضت تقديم الدعم. وبحلول الظهر كان داخل المبنى نحو ثلاثين شخصًا، كلهم يثرثرون بحماسة. أحضر أحدهم بعض الشطائر من المخبز، وكانت جون جالسة لتناول شطيرة حين سمعت صياح مسز ب. «المجلس وصل!».

تراحم الجميع على النافذة.

قال ستانلي: «انظروا، إنه ريتشارد دونيلي والمدعوة سارا. وبرلين سبنسر معهم أيضًا. ترى أين ذهبت مارجري؟».

من فوق رؤوس الجميع كانت جون ترى المجموعة وهي تصل عند الباب. وريتشارد يقف وقد عقد ذراعيه. ثم صاح من خلف النافذة: «تمام يا جماعة، لقد أتممت حركتكم الاستعراضية وجئتم بنا إلى هنا. افتحوا الباب الآن حتى نتكلم».

ردّ عليه ستانلي وهو يفتح الباب بمقدار شعرة ويمرّر منه رزمة من المنشورات: «لا كلام ولا سلام قبل الاتفاق على مطالبنا».

قرأت مسز ب. كلمات المنشور بصوت عال. «نتقدّم، نحن أصدقاء مكتبة تشالكوت، بالمطالب التالية. أولاً، أن يعدّ المجلس رسميًا بإبقاء المكتبة مفتوحة وبتمويل كامل. ثانيًا، أن تظل سلامة المكتبة في المستقبل مكفولة. ثالثًا، ألا يباع المبنى، للشركات والسلاسل متعدّدة الجنسية على وجه الخصوص. لا نريد شركات كبرى في هذه القرية، بل نريد حماية الأنشطة المحلية المستقلة. رابعًا...».

فقال ريتشارد: «انتظري، انتظري. يبدو أن هناك نوعًا من سوء التفاهم هنا».

ف قالت مسز ب.: «هل تنكر أن المجلس يفكر في بيع المبنى؟».

«أعتقد أنكم تماديتم قليلاً. ما زالت العملية الاستشارية جارية، ولم تُتخذ أية قرارات حتى الآن بشأن مستقبل المكتبة».

«أجب على سؤالي. هل دخلتم في مباحثات مع أية شركة لبيع مبنى المكتبة؟».

فقال ريتشارد: «لا أعرف ما هذا الذي تتحدثين عنه». وكان على جون أن تعترف ببراعته - إما أنه لا يعرف شيئاً عن كوبا كوفي، أو أنه لاعب بوكر من طراز رفيع. أما براين، من ناحيته، فقد اكتسى بلون البنجر.

قالت سارا وهي تتقدم إلى الأمام: «اسمعوا، نحن كلنا هنا في معسكر واحد. المشكلة تؤلمنا جميعاً، لكن علينا مواجهة الواقع. لقد خُفّضت موازنتنا وعلينا أن نضمن لخدماتنا العامة تقديم القيمة في مقابل الكلفة».

فقال ستانلي: «لا جدال في أن المكتبة تقدّم أعلى قيمة في مقابل الكلفة. انظري إلى كل هؤلاء الذين يستخدمونها، والخدمات التي تزودهم بها».

قالت سارا: «لكن أين تفضل وقوع التخفيضات؟ في خدمة المكتبات أم في المستشفى المحلي، على سبيل المثال؟ نحن مضطرون لتوفير نفقات في مكان ما».

سرت همهمة بين الحضور في المكتبة.

وصاحت مسز ب. وهي تخط بقبضتها على الزجاج: «هذا سؤال سخيف، لعبة المحافظين الأزلية. لا ينبغي إدخال تخفيضات من الأساس».

رفعت سارا يديها في حركة استرضاء: «دعونا نهذاً كلنا، اتفقنا؟ لا داعي للانفعال. لماذا لا تسمحوا لنا بالدخول حتى نبادل الحديث؟».

فقال ستانلي: «لن ندخلكم قبل الموافقة على هذه المطالب».

قال ريتشارد لسارا من بين أسنانه: «لا طائل من هذا. علينا اللجوء إلى الخطة ب».

صاحت مسز ب.: «أجل، انصرفوا. ولا تعودوا قبل أن تثبتوا لنا أن المكتبة بمأمن».

استدارت المجموعة كلها للانصراف، لكن سارا تمهّلت.
«انتظروا، أنت في الخلفية، ما اسمك؟»، قالت وهي تشير عبر زجاج النافذة.

«أنا يا سيدتي؟ اسمي ستانلي فيليبس».
«كلا لست أنت بل المرأة التي خلفك».
تلفت الجميع فأدركت جون أن سارا تنظر إليها.
قالت مسز ب. «إنها شخصية مغمورة».
فقالت سارا: «أنت من موظفي المكتبة، أليس كذلك؟».
لم تتفوه جون بكلمة، لكنها رأت ريتشارد وسارا يتبادلان نظرة.
قال ريتشارد: «هيا بنا من هنا».

وتفرق الحشد داخل المكتبة من أمام النافذة، مستأنفين حواراتهم.
كانت ساقا جون ترتعشان، فارتمت على أحد المقاعد.
قالت مسز ب.: «هل رأيتم وجه براين سبنسر حين ذكرت أن المجلس يخطط لبيع المبنى؟ كان يبدو كمن أصابته نوبة صرع».
وتساءل ستانلي: «ما هي خطة المجلس التالية، في تقديرك؟».
«أتخيل أنهم سيستصدرون أمر إخلاء من المحكمة».
«وماذا نفعل حتى ذلك الحين؟».

قالت مسز ب. «بوسعنا تقديم شيء مفيد مثلاً؟ لا أذكر آخر مرة طُليت فيها جدران المكان».

فقالت جون وكلها لهفة على الخروج إلى الهواء النقي: «بوسعي الذهاب إلى المتجر الآن لشراء المستلزمات».

فقال ستانلي: «بل إن عليك تناول بعض الطعام أولاً. الأمور توحى بأن المعركة ستكون طويلة، وستحتاجين للطاقة».

عند منتصف النهار كانت المكتبة أكثر ازدحامًا مما رأتها جون في حياتها. انتشر خبر الاحتجاج وتدفق المزيد من الناس، فملأوا كل ركن من أركانها. شُغلت المقاعد كلها، فكان الناس يقفون لتبادل الأحاديث، والأطفال يجرون بين أرجلهم. ومسر برانزورث تناقش مزايا الاشتراكية مع مجموعة من الطلبة بجوار حامل الدوريات، وستانلي يجلس في قاعة الأطفال يقرأ لبعضهم من كتاب التويتس. وكانت شانثال حاضرة مع عدد من أصدقائها، وجاكسون يلقي الهايكو على كل من يصغي له. حتى فيرا كانت هناك، تؤدي دور مسؤولة الأمن غير الرسمية عند الباب الأمامي. جالت جون ببصرها حول القاعة فأحسّت بدفقة من المحبة لهم جميعًا.

صاحت فيرا: «جون، هناك شخص يريد مقابلتك». وعند وصول جون إلى الباب رأت الصحافية تيسا ومعها مصورتها، تمسح القاعة بالكاميرا.

سألتها تيسا: «هل نتوقع راقص تعرّ؟».

قالت فيرا: «روكي يفضل مصطلح الراقص الخلاب. وقد قلت لجون إن علينا دعوته».

وسألت تيسا: «أهناك من نام هنا فعلاً ليلة أمس؟».

«نعم نعم»، وأشارت جون إلى ستانلي ومسر برانزورث.

«هذان الاثنان؟ كليو، صوري بعض اللقطات هناك». وأشارت تيسا إلى ستانلي الذي يقرأ للأطفال. «أعتقد أن بوسعنا الخروج من هذا بفقرة إخبارية معقولة».

لمحت جون ليلي تقترب من المكتبة مع ابنها محمود، الذي كان يحمل صندوقًا كرتونيًا.

وقالت جون عند دخولهما: «اعذرنا على الفوضى السائدة اليوم. إننا نحتج على محاولة المجلس إغلاق المكتبة».

فقال محمود: «لقد سمعنا بالخبر».

لكزته ليلى فناول الصندوق إلى جون. ورفعت جون الغطاء فرأت أنه يحتوي على عدد من الكعكات، كل منها مزوّقة بعناية.

وقالت ليلى: «كعكة اسفنجية فكتورية... كعكة شوكولا... كعكة قهوة... وصفة ديليا سميث».

«أوه يا ليلى، ما كان عليك أن تتعبي نفسك».

«أهذا كعك؟»، كانت فيرا تسترق النظر إلى الصندوق من خلف كتف جون.

فأخرجت جون الكعكات ورصّتها على طاولة، وسرعان ما تحلّق حشد من العجائز تتغنّين بجمال زهور الكريما التي تزيّن الكعك، واقتطعت كل منهن شريحة سخية لنفسها. أومأت تيسا برأسها فاستدارت كليو بالكاميرا لتصويرهن.

قالت واحدة من النساء: «لذيذة جدّا، هذه الكعكة الإسفنجية».

وأمسكت فيرا بقطعة من كعكة الشوكولا فتشمّمتها.

فشجعتها المرأة: «لا تخافي».

وضعت فيرا قطعة صغيرة في فمها ومضغتها، بوجه منقبض.

فقالت جون: «جزيل الشكر يا ليلى، رقة منك أن تأتي بالكعك».

«أنا... أنا أعتقد...». ثم قطبت ليلى جبينها ونظرت إلى محمود

وبدأت تتكلّم بالعربية، فترجم عنها ابنها.

«أمي تقول إنها ستحزن إذا أغلقت المكتبة. إنها تحب المجيء إلى

هنا من أجل كتب الطبخ، وأيضًا لرؤية الناس هنا. وتحب غناء الأطفال، إنه يذكرها بوطننا».

فأحست جون بغصة في حلقها للمرة الثانية في أربع وعشرين ساعة.

«أرجوك أن تخبر والدتك بأننا نناضل لإنقاذ المكتبة. أوكد لك أننا نبذل كل ما بوسعنا».

الفصل الثاني والعشرون

بحلول السادسة كان معظم الحضور قد بدأوا بالانصراف، متعلّين بالأعذار التي تمنعهم من المبيت. فكّرت جون في بيتها، في سريرها المريح ووجبة اللازانيا لشخص واحد التي تنتظرها في المجمّد. ثم لمحت ستانلي يجلس في مقعده وعليه علامات الإرهاق.

فقالت له جون: «لماذا لا تعود إلى بيتك الليلة للحصول على بعض الراحة؟».

«شكرًا جزيلاً لكنني لن أغادر قبل أن يطمئننا المجلس على مستقبل هذا المكان».

توجهت شانتال إلى ميشيل بسؤال: «ماما، هل تسمحين ببقائي؟». كانت ميشيل تحاول استدراج التوأمن ابنيّ الثالثة إلى عربة الأطفال. «إذا وافق الآخرون، وإياك وإثارة أية متاعب».

بعد رحيل آخر الزوار، أوصدت جون الباب الأمامي. قالت مسز ب. وهي تنقل بصرها من ستانلي إلى جون إلى شانتال: «هذه أغرب تشكيلة رأيته من المحتجين».

ثم بدأ الجميع في إزالة آثار اليوم. وفور أن استعادت المكتبة بعض رونقها، أخرجت جون هاتفها وكتبت رسالة إلى ليندا، تسألها فيها أن تطعم آلان بنيت. وبعد لحظة ظهر الردّ.

أتقضين الليلة مع أليكس؟ احرصى

على أخذ سروال داخلي نظيف معك - ربما

السروال المثير الذي جئت به من ذلك المحل؟

فألقت جون بالهاتف من يدها. ولمحت شانتال في الركن، تفتش في بقايا الطعام.

قالت جون: «أنا سعيدة بوجودك هنا. كنت أريد مفاتحتك في مسألة معينة».

فواصلت شانتال تفتيشها في الأكياس من دون أن تنظر إلى جون. «قالت أمك إنك قد لن تعودى إلى المدرسة في سبتمبر».

عثرت شانتال على كيس بطاطس في القاع، وأخرجته فتطايرت بقية المحتويات كلها.

«أريد أن أقول فقط، أرجوك ألا تسمحى لحوادث المكتبة بالحيلولة بينك وبين دراستك. أنت فتاة ذكية، لا يصح أن تياسى من الجامعة».

أخيراً التفتت شانتال إلى جون: «واضح أنك لا تفهمين».

«أفهم ماذا؟».

«هذه بالنسبة لك مجرد وظيفة، وإذا أغلقوا المكتبة فما عليك سوى البحث عن غيرها، صح؟».

«هذا غير صحيح فأمرى...».

«ألا تقيمين بمفردك في 'مرج الصفصاف'؟».

أومأت جون إيجاباً.

«حسنًا، تخيلي أنك تعيشين في منزل فيه ستة أشخاص آخرون. منزل من الضيق بحيث إنك لا تنامين على سرير لك وحدك، ناهيك عن غرفة نوم تخصك. ثم تخيلي أنك في ذلك الجو عليكِ المراجعة من أجل امتحاناتك. هذا هو سرّ احتياجي إلى هذا المكان يا جون، لأنني من دونه لن أنجح أبدًا في اجتياز الامتحان وسوف أظل في هذه القرية الحقيبة إلى الأبد».

شرعت جون في الردّ لكنها أوقفت نفسها. ما الذي يمكنها أن تقوله للتسرية عن شانتال؟ إن الصبية على حق: إذا أغلقت المكتبة ستؤثر حياة

الكثيرين من أمثالها، وقد انشغلت جون بمشكلاتها الخاصة فلم تكدر تلتفت للتفكير في مشكلاتهم. أشاحت بوجهها عن شانتال إلى ستانلي، الذي كان جالسًا أمام أحد الحواسيب. لقد كان ستانلي دائمًا أول الواصلين إلى المكتبة وآخر المنصرفين. فأين سيقضي يومه إذا أغلقت؟ وكأنما شعر ستانلي بأنها تفكر فيه، فقد رفع عينيه وأشار إليها. «تعال، بدؤوا إذاعة الأخبار المحلية».

وتحلّق الأربعة حول الحاسوب لمشاهدة الفقرتين الأوليين، لكن لم يرد فيهما ذكر اعتصام المكتبة.

قال ستانلي: «لعلنا لن نظهر في هذه المرة».

فقالت مسز ب.: «فيرا على حق. كان علينا استدعاء روكي».

وفي تلك اللحظة ظهرت تيسا على الشاشة، واقفة أمام المكتبة. «بدؤوا براقص للتعري. وها هي قرية تشالكوت الناعسة تمضي خطوة أبعد، في محاولتها لإنقاذ مكتبتها».

فصاح ستانلي وهم يشاهدون صورًا لمسز ب. وسط المكتبة المزدهمة: «انظري يا مسز برانزورث، ها أنتِ على الشاشة».

على خلفية اللقطات، كانت تيسا تقول: «قام بعض المتقاعدين من القرية بالاعتصام في المكتبة احتجاجًا على تهديد المجلس بإغلاقها».

فصرخت مسز ب.: «متقاعدون! من هم المتقاعدين يا بنت الـ...؟». لكن عجوزًا كانت تخاطب تيسا: «وصلت صباح اليوم لأجد هذا كله. عادة ما أحضر يوم الأربعاء لمشاركة جماعة التريكو والثروة، لكن اليوم كان أكثر إثارة، بصراحة».

ثم ظهر ستانلي أمامهم: «المستون من أمثالي يحتاجون إلى المكتبة. لا أملك حاسوبًا شخصيًا في البيت - بل إنني لم أكن أعرف طريقة تشغيله قبل أن تعلّمني جون هنا. إذا أغلقت المكتبة فكيف لي أن أركب الأمواج؟».

سألته شانتال: «تركب الأمواج؟ لعلك تقصد التجوال بين المواقع؟». ردّ ستانلي: «ليس هذا كل ما قلته».

لكن مسز ب. كانت نجمة المقابلة. «لقد بدأنا الاعتصام في المكتبة ليلة أمس. وأنا أشارك في الاحتجاجات منذ أكثر من أربعين عامًا. حضرت احتجاج متنزّه غرينهام في الثمانينات، وذهبت إلى ويلز من أجل عمال المناجم».

ثم عادت تيسا إلى الشاشة: «يأمل أمثال هؤلاء من العجزة والمتقاعدين أن ينجح احتجاجهم في إقناع مجلس دنغشاير البلدي بحماية مكتبة القرية. لكن حتى ذلك الحين هناك كعك وشاي للجميع». وانتقلت الصورة إلى فيرا مع العجائز وهنّ يأكلن من كعك ليلي. قالت إحداهنّ وهي تلعق شفّتيها: «لذيذة جدًّا، هذه الكعكة الإسفنجية». ثم عادت الصورة إلى الاستوديو.

أطفأت جون الشاشة ووقف الجميع صامتين، يحدّقون في الشاشة السوداء.

ثم قالت مسز ب.: «لا أصدق أنها حشرتني في زمرة العجزة والمتقاعدين».

قال ستانلي: «لقد أدليتُ بتعليقات في منتهى البلاغة، فلماذا لم تُدعِ إلّا تعليق ركوب الأمواج؟».

قطبت شانتال حاجبيها: «الفقرة ضعيفة جدًّا، بصراحة». فقالت جون: «اسمعوا، دعونا نهدي أعصابنا. أعرف أن الفقرة بدت منحازة، لكن احتجاجنا ظهر في الأخبار على الأقل». وهنا أتت طريقة على الباب.

فصاحت مسز ب.: «إذا كانت تلك المرأة تيسا، قولوا لها أن تغرب عنا».

ذهب ستانلي ليرى من الطارق، وعاد بعد لحظة وخلفه أليكس، الذي

كان يحمل كيسين كبيرين. فخفق قلب جون لحظة رؤيته، ثم انقبض ثانية حين تذكرت مكالمتها الهاتفية المخرجة، وتذكرت إيلي.

«مرحبًا بالجميع. أحضرت لكم طعامًا»، قالها أليكس وهو يضع الكيسين على طاولة.

تساءلت مسز ب.: «أهناك من طلب الطعام الصيني؟». فهزّ الجميع رؤوسهم نفيًا.

«لكنه طعامكم»، قال أليكس.

«أهو مجاني؟».

«هناك من دفع ثمنه مسبقًا».

«أسرعوا إذا، فأنا أتصوّر جوعًا».

وتحلّقوا حول الطاولة، بينما بدأ أليكس يخرج العلب، مرحبين بالطعام الذي يلهيهم عن الحديث عن فقره الأخبار.

قال أليكس وهو يناول جون طبقًا من الدجاج بصلصة الفاصوليا السوداء: «تفضلني، هذا لك أنت خصيصًا».

«شكرًا»، وأخذت منه العلبة من دون أن تنظر في عينيه.

رفعت جون غطاء العلبة لكن الحياء منعها من تناول الطعام. لقد ظلّت ثمانية أعوام تأكل هذا الطبق في البيت، وحيدة مع كتاب - بل إنها أكلت كل وجباتها تقريبًا في البيت مع كتاب. فكانت تشعر بالغرابة من تناول الطبق هنا، في المكتبة، مع أربعة أشخاص يثرثرون حولها. نظرت جون عبر الطاولة، فرأت ستانلي ومسز ب. في حوار انفعالي عن الفقرة الإخبارية، كما كان أليكس يحكي لسانتال حكاية عن أيامه في الجامعة، جعلتها تضحك. كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض بأريحية كبيرة، يمدّون أيديهم من فوق أيدي البعض لاختطاف فطائر الربيع ومخبوزات الجنبري في وسط الحديث. أخذت جون قسمة من طعامها. متى كانت آخر مرة تناولت فيها الطعام مع آخرين، ما عدا حفل العزوبية البغيض؟

وفتشت في ذهنها فأدركت بارتياح أنها لا تذكر. هل كان هذا قبل وفاة أمها فعلاً؟ وكيف أمكن هذا؟

كانت شانتال تنظر إلى هاتفها: «يا جماعة، هناك ثورة على فايسبوك، فقد حظينا بستمئة توقيع جديد على الالتماس الإلكتروني».

«جميل، جميل». وأمسك ستانلي بكوب الماء ورفع في الهواء. «نخب أصدقاء مكتبة تشالكوت!».

فردّوا عليه جميعاً: «نخب أصدقاء مكتبة تشالكوت!»، وضحكت جون وهي ترفع كوبها وتشاركهم النخب.

بعد نصف ساعة كانت جون قد أتخمت بالطعام حتى لم تعد قادرة على الحركة. بدأت مسز ب. وشانتال في تنظيف المائدة، وانخرط ستانلي وأليكس في نقاش عميق وقد تقارب رأسا هما. وتمدّدت جون في مقعدها مستمتعة بالدفع الناجم عن وجبة لذیذة مشبعة.

بعد قليل وقف أليكس. «يحسن بي أن أعود إلى المطعم - ستقتلني عمتي لطول غيابي».

فقال ستانلي: «جون، لماذا لا ترافقين أليكس إلى الخارج؟». «شكراً، لكنني بخير هنا». لم تشأ جون إفساد متعتها بحوار مليء بالخرج مع أليكس.

لكن ستانلي أضاف: «يجب أن تحصلي على بعض الهواء النقي. لم تغادري المكتبة طوال اليوم».

وأثنت مسز ب. على الاقتراح. فتحت جون فمها للاعتراض، لكنها أدركت أنهم جميعاً يحدّقون بها.

فقالت: «لا بأس»، وهي تشدّ نفسها واقفة وتتبع أليكس إلى الخارج. كانت واعية بأنها ما زالت ترتدي ثياب الأمس، وأن شعرها أفلت من كعكته، وانهمرت الخصل السائبة على جانبي وجهها.

قال أليكس وهما يمضيان بطول شارع باراد: «عندي عتبٌ عليك». فردّت جون، منزعة من نبرة صوته: «وما الذي فعلته أنا؟». هل يتعلق الأمر باتصالها به وهو مع حبيبته؟

«لماذا لم تحذريني من بيت العنكبوت شارلوت؟ كدت أنفجر بالبكاء أمام أحد الزبائن حين انتهيت من الكتاب».

ابتسمت جون بارتياح. «أوه. كون الكتاب موجّهاً للأطفال لا يعني خلوه من التأثير العاطفي القوي».

«ومع ذلك، لماذا تعين على الكاتب أن ينهي حياة شارلوت؟ لن أؤذي عنكبوت ثانية أبداً».

فضحكت جون وأحسّت ببعض التوتر ينسحب من كتفها. قال أليكس: «ثم إنني لم أعرف ماذا أقرأ طوال الأسابيع الماضية من دون ترشيحاتك. أين كنت؟». «آسفة، كنت مشغولة فقط».

واستمرّا في الثرثرة عن الكتب وهما يمضيان في الشارع. بعد أكثر من أربع وعشرين ساعة داخل جدران المكتبة، كانت سعيدة بالخروج وتنفس هواء المساء المنعش، والنقاش في شيء بخلاف الاحتجاج. ومع انحدارهما على التل نحو 'التنين الذهبي'، كانت جون تقصر وتتباطأ.

قالت له وهما يقتربان من المطعم: «أعتقد بأن حكاية الجارية سيكون اختياراً جيداً لك. إنه يشبه الخيال العلمي من ناحية، لأنه...».

قاطعها أليكس: «أنا جد آسف لأنني لم أساعدك في حفلة العزوبة. أعرف أنك غضبت مني لعدم مساندتي لك، وأشعر بالذنب جراء ذلك». «لم أغضب منك».

«لكن كنت تتجنّبني من دون أدنى شك». فكرت جون في صوت إيلي وابتلعت ريقها. «لقد شعرت بالذنب لإزعاجك حين كنت مع... رفيقتك».

«لا تكوني مجنونة، فقد كنت أريد مساعدتك. كان صوتك يوحى بالانزعاج الشديد».

أسرعت جون الخطو. «لم يكن أمراً ذا أهمية».

«ماذا حدث؟».

أوشكت جون أن تسفه من اهتمامه مرة أخرى، لكنها منعت نفسها. لقد سمعها أليكس في أسوأ حالاتها، فلماذا لا تطلعه على الصورة البائسة كاملة؟

«اسمع إذا. كانت المشاركات في الحفلة يلعبن لعبة غبية، تعرّضت بسببها لمهانة لا توصف».

«أية لعبة؟».

«لعبة اسمها 'أبدًا لم يسبق لي'».

«يا ربي، إنني أذكرها من أيام الجامعة. طريقة مضمونة لتحويل الجميع إلى سكارى».

«أما أنا فلا، لأنني لم أفعل شيئاً من الأشياء التي ذكروها. ولا شيئاً واحداً».

قال أليكس: «لا تقسي على نفسك لهذا السبب. أولئك البنات مرفّهات إلى درجة زائدة، فلا تحزني لأنك لم تقودي سيارة فيراري بحذاء جيمي تشو أثناء شرب الشمبانيا». وضحك أليكس، لكن جون لم تشاركه الضحك.

«لم يقتصر الأمر على هذه الأشياء. بل كانت هناك أمور عادية جداً ومع ذلك لم أفعلها. مثل الرقص طوال الليل أو التخيم».

«أنا أيضاً أكره التخيم».

كانا قد وصلا إلى المطعم، فتوقفت جون. «لم أفعل بحياتي أي شيء يذكر. منذ وفاة أمي وأنا أغلق بابي عليّ، مختبئة بين الكتب القديمة نفسها، حتى لا أضطر للخروج ومواجهة العالم الحقيقي».

«كنت في حالة حداد يا جون».

«لكنني تركت نفسي أنزوي وأنعزل، حتى من قبل موتها». واستدارت جون للنظر إلى أليكس، «ألم أقل لك إنني صديقة غايل؟ لكنها كانت كذبة - لم أحضر حفل العزوبة إلا لأن مارجري أرغمتها على دعوتي. ليس لي أي أصدقاء حقيقيين».

«بالله عليك، أنا صديقك. وماذا عن ستانلي؟».

«ستانلي يعاملني برقة فقط لأنه يشفق علي».

«أنا أعرف أن هذا غير صحيح».

«قالت إحدى المدعوات بحفل العزوبة إن حياتي 'مأساة'، وكانت على حق». وابتلعت جون ريقها. «لو كانت أُمي هنا لخاب أُمليها في». ثم صمت الاثنان برهة، وأخذت جون ترقب الناس وهم يتحركون داخل المطعم. لماذا أخبرت أليكس بهذا كله؟

قال لها: «أنت تعرفين أن هذا كله غير صحيح، أليس كذلك. قد لا يكون لك مئات الأصدقاء، ولعلك لم تخرجي للتخميم، لكنك فعلت الكثير مما يمكن لأُمك أن تفخر به».

فأطلقت جون ضحكة صغيرة مريرة. «كلام فارغ. كانت تريد لي أن أحقق حلمي وأصبح كاتبة».

«لكن ماذا عن كل ما فعلته من أجل المكتبة؟».

«ماذا عنه؟ المكان الذي أحبه أكثر من سواه تعرّض للتهديد، ومع ذلك فإنني لم أفعل شيئاً، حتى يوم أمس، سوى الاختباء في الخلفية، مشلولة بالخوف. لو كانت أُمي هنا لقاتلته...».

فقاطعها أليكس: «جون، يجب أن تكفي عن مقارنة نفسك بأُمك. أنت شخصية منفصلة، لك صفاتك الخاصة. صحيح أنك خجولة وتفضلين التواري في الخلفية بدلاً من الصياح في الصدارة. لكنك أيضاً ذكية وعطوفة ووفية، وأنا عن نفسي أعتقد بأنك مذهلة».

توقف أليكس عن الكلام وبدأت عليه نظرة ذهول مما قاله لتوه. انفتح باب المطعم وخرج منه زوجان. وفي هذه الأثناء لمحتهما امرأة نحيفة القد، شيباء الشعر، من خلف النضد. «أين كنت يا أليكس؟ أنا أحتاجك هنا!».

رد عليها مع انغلاق الباب: «أنا قادم يا عمتي»، ثم نظر إلى جون. «أنا آسف، يجب أن أدخل».

«لا مشكلة». ومَرَّت برهة صمت، نظرت جون خلالها إلى قدميها. «آسفة على تجنّبي لك يا أليكس. لكنني أحسست بالمهانة بعد تلك المكالمة».

«وأنا آسف على عدم مسارعتي إلى نجدتك. أتمنى فعلاً لو كنت ساعدتك».

«أليكس!»، جاء الصوت من الداخل، زاعقاً. فنظر إلى جون وهز كتفه في استسلام. «طابت ليلتك». «وليلتك يا أليكس».

راقبته جون وهو يدخل إلى المطعم والباب يصطفق خلفه. ثم نظرت إلى انحدار التل، نحو شارعها ووسائل الراحة في بيتها: سريرها وكتبها، والعزلة. لكنها استدارت وعادت تصعد التل، متّجهة إلى من ينتظرونها في المكتبة.

الفصل الثالث والعشرون

كانت جون تُصلح بعض الكتب المعطوبة حين دخل أليكس من باب المكتبة الأمامي، فابتسمت لرؤيته، وتسارع نبض قلبها. كان يثبت عينيه في عينيهما أثناء اتجاهه إليها، من دون أن يحولهما عنها. ولما وصل إلى جون لم يقل شيئاً، بل مَدَّ يده وأخذ يدها، وأنهضها من جلستها في حركة واحدة بارعة. ثم مال عليها عبر مكتب الكتب الصادرة، بحيث صار وجهه على بعد سنتيمترات من وجهها. فحبست أنفاسها ولم تجرؤ على التحرك، بينما كان أليكس يربت على خدّها ويهمس...

«أفيقي يا كسلانة».

فتحت جون عينيهما واعتدلت جالسة، زائغة البصر. ها هو ستانلي، يجلس في مقعده ويقرأ الصحيفة. وها هي شانتال، تقضم قطعة من كرواسون الشوكولا. وها هي مسز ب. تدفع إليها بقدر من الشاي.

«ليس هذا وقت النوم والكسل - أماننا عمل كثير».

تناولت جون القدر وسارت إلى ستانلي، راجية ألا يلاحظ أحد تضرّج وجنتيهما من ذلك الحلم.

«صباح الخير يا عزيزتي». وابتسم ستانلي لها، لكن جون لاحظت عليه الشحوب.

«هل أنت بخير؟».

«أنا بخير، مجرد صداع بسيط. لم أنم جيداً ليلة أمس».

«لَمْ لا تعود إلى بيتك اليوم لنيل قسط من الراحة؟».

«أوه، سأسترد عافيتي تماماً فور تناول هذه القهوة. ثم إنني لا أريد

تفويت الدراما التي تجري فصولها هنا». وأشار إلى مسز ب. التي كانت تطعن الهواء بإصبعها.

كانت مسز ب. تصيح: «أعتقد بأن علينا التقدم بشكوى رسمية إلى هيئة الاتصالات. تلك الفقرة الإخبارية كانت تنطوي على تمييز صريح ضد المسنين».

وأضافت شانتال: «كما أنهم لم يستخدموا لقطاتي مع أصدقائي. كأننا لم نكن موجودين».

«بالضبط، ولهذا لم أدفع رسوم رخصة التلفاز قط، فكلهم من صقور اليمين الملا...».

«هناك شخص على الباب»، قالتها جون وهي تشير إلى رجل يرتدي بنطلون السفاري وتعبيرًا يوحي بالإجهاذ. كانت هناك كاميرا معلقة حول عنقه.

فقالت مسز ب.: «يبدو أنه واحد من حثالة الصحفيين. اذهبي وقولي له أن يغرب عنا».

قال ستانلي: «وعندها سيعمل على إهانتنا مجددًا». مرّرت جون يدها في شعرها واتجهت إلى الباب. «أي خدمة؟». فتساءل الرجل: «أهذه هي المكتبة حيث يجري احتجاج المتقاعدون؟».

«لكنه ليس احتجاج المتقاعدون وحدهم، كما ترى».

«هكذا يصفه الجميع».

«الجميع؟».

«لقد حقق انتشارًا فيروسيًا، وكان من صيحات تويتر ليلة أمس».

«ماذا؟».

«هاك»، وأخرج هاتفه وعرضه عليها. فرأت وسم #احتجاج المتقاعدون في كل مكان على الشاشة. «الناس جنّوا به جنونًا -

عجائزكم الظريفات صرن من المشاهير. وخاصة ذلك الرجل الذي
تكلم عن ركوب الأمواج».

«لكننا اعتقدنا بأن الفقرة جعلتنا نبذو على شيء من... البلاهة».
«بالعكس، الناس يحبون القصص المؤثرة، وهذا ليس رأيي أنا
وحدي». وأشار من فوق كتفه إلى حيث يتجمع عدد من الرجال والنساء،
يعبرون الطريق في اتجاه المكتبة. «هل يمكنني الدخول لإجراء بعض
المقابلات قبل وصول هذه الجماعة؟».

«انتظر لحظة». أغلقت جون الباب وعادت إلى المجموعة.
كانت مسرّبة. في منتصف خطبتها العصماء عند وصول جون.
«لعلك قلت له أن يضع الكاميرا حيث لا تشرق الشمس».
«ليس بالضبط». وشرحت لها جون ما قاله الرجل.
فقال ستانلي: «عفوًا، لكن ما معنى الانتشار الفيروسي؟ الكلمة
توحي بأنه شيء كريه».

قالت شانتال: «لكنهم أساؤوا تقديم صورة حقيقية عنا».
فقالت جون: «اسمعوا، إذا كان عندنا أي أمل في إنقاذ المكتبة فعلينا
لفت أكبر قدر ممكن من الانتباه. وإذا كان معنى هذا أن نساير فكرة
‘احتجاج المتقاعدون’ هذه حتى نصل إلى الصحافة، فعلينا بها». ثم
التفتت إلى ستانلي. «أنت الذي بدأ هذا الاعتصام، فما رأيك؟».
تنهّد ستانلي. «أنا متفق معك، ولو على مضض. سيكون غباءً منا لو
ضيعنا هذه الفرصة».

دمدمت مسرّبة: «لكنني لم أوصف طوال حياتي بأنني من
المتقاعدين». نظرت إليها جون فقطبت جبينها. «طيب، لا بأس. ما دام
الأمر في صالح المكتبة فلعلّي أستطيع التعامل معه مرّة أخيرة».
هنا قالت شانتال: «هناك مشكلة واحدة. إذا طلبوا مقابلة كبار السن
فقط فسوف يبدو الاحتجاج صغير الحجم جدًا».

فنقلت جون بصرها بين ستانلي ومسر ب. «يمكنني الاتصال بمجموعة التريكو والثرثرة لنرى إن كان بوسع بعضهنّ الحضور؟». هزت مسر ب. رأسها. «سيظل العدد غير كاف. يجب أن نملاً هذه المكتبة إذا أردنا فقرة صالحة للإذاعة».

وفي تلك اللحظة انفتح باب المكتبة. فنظروا جميعاً في اتجاه الباب وكلهم أمل، لكن لم تكن القادمة إلا فيرا، عابسة الوجه. قالت فيرا: «هناك عربية ميني باص وصلت أمام الباب. ووقفت في مكان انتظار المعوّقين، هل تصدقون؟».

قالت جون: «لا بد وأنهم صحافيون آخرون»، وكانت تنظر إلى الخارج حين فتح باب العربية ونزلت منها امرأة فضية الشعر ترتدي سترة ماركة 'باربور' وتنورة اسكتلندية. تساءل ستانلي: «أتراها من مجلة ساغا؟».

كان طابور من النساء يترجّل من العربية، وكل منهنّ تساعد الأخريات على النزول. فخرجت جون لمقابلتهن. «هل أستطيع المساعدة؟». «ماري كوبر-ماركس». تقدّمت سيدة الـ«باربور» وصافحت جون بيد قوية. «لقد شاهدناكم في الأخبار ليلة أمس». «عفوًا لكن من أنتن؟».

«نحن من المعهد النسوي بدورنلي. لقد أغلقوا مكتبنا قبل سنوات، وكانت مأساة مؤلمة. لذا حين رأينا احتجاجكم، قررنا المجيء ومدّ يد العون».

كانت النساء قد انتهين من مغادرة العربية الآن. لا بد وأن عددهنّ لا يقل عن خمس عشرة، معظمهنّ تجاوزن سن التقاعد بسنوات. سأل ستانلي: «هل جئتن لمساعدتنا؟».

فقالت إحدى سيدات المعهد: «هل تسمحون لنا؟ لقد راقّت لنا فكرة الانضمام إلى احتجاج متقاعدين. أفضل بكثير من الاحتجاجات العنيفة التي نراها في الأخبار».

فقلت جون: «هذا رائع، وأنتن جميعاً رائعات. شكرًا جزيلاً!».
وهنا تدخل أحد الصحفيين: «عزيزتي، هل يمكننا الدخول أم لا؟
يجب أن أعود إلى لندن في موعد الغداء».
«طبعاً يمكنك الدخول. تفضلوا بالدخول، كلكم».

قضت جون الصباح كله في التنقل حول المكتبة لمساعدة الصحفيين
وإحضار فناجين الشاي للمحتجين. بعض سيدات المعهد الأكثر
نشاطاً كنّ تتحركن في مسيرة بين الأرفف، مع التلويح بلافتات منزلية
الصنع، والهتاف: «أنقذوا مكتبة تشالكوت». بينما جلست أخريات في
مجموعات صغيرة للتحدّث مع أهل القرية عن المكتبة. لاحظت جون
أن مسز ب. وماري كوبر-ماركس قد أنفقتا معظم الصباح منزويتين في
أحد الأركان، وبينهما حوار عميق. في العاشرة وصل ميني باص آخر،
وكان هذا الباص مليئاً بنزلاء دار 'شجرة الكرز' للمتقاعدين، ممن
شاهدوا الفقرة الإخبارية بدورهم.

قال رجل طاعن في السن وهو يتناول إحدى الشطائر التي انشغلت
شانتال في إعدادها مع ستانلي: «كنت آتي إلى هنا مع أبنائي منذ خمسين
عاماً. عار ما بعده عار أن يُغلق مكان كهذا».

قالت إحدى سيدات المعهد: «لدينا مكتبة متنقلة تزور قريتنا الآن.
وأمينها ولد ظريف، لكن شتان بين هذه وتلك».

فقلت صديقتها: «كم أفتقد رؤية الصغار يلعبون في المكتبة».
تساءلت سيدة في مقعد متحرك، قيل لجون إنها في الرابعة والتسعين:
«هلا أقمنا حفلة للغناء الجماعي؟ أهنأك من يعرف أغاني فيرا لين؟».
ومع انطلاق حناجر المحتجين بالغناء، رأت جون ليلي تدخل من
الباب الأمامي، فاتجهت إليها.

«شكرًا جزيلاً على كعكات الأمس، لقد حققت نجاحاً هائلاً».
«هل لي في استعارة كتاب جديد؟».

«بالطبع».

وسارت الاثنتان إلى قسم كتب الطبخ وبدأتا في تصفح الأرفف معًا. ثم سألتها جون: «ماذا عن كتاب نايجلا لوسن هذا؟»، وهي تخرج كيف تأكل من على الرف. «كانت أُمي دائمًا تحب وصفاتها». أخذت ليلي الكتاب وتأملت الغلاف. ورأت جون من خلف كتفها أن فيرا تقترب بوجه عابس.

«مضيعة للوقت»، قالتها بصوت خفيض وهي تمرّ بجوارهما.

فأحسّت جون بظفرة الغضب. «ماذا قلتِ يا فيرا؟».

فوقفت العجوز وتكلمت بصوت أعلى. «قلت إنها مضيعة للوقت»، وأشارت إلى ليلي وهي تحمل الكتاب في يدها.

«فيرا، نحن لا نتسامح مع أي شكل من أشكال التمييز في هذه المكتبة، وأخشى أنني مضطرة لأن أطلب منك...».

فقلت فيرا، مقاطعة كلام جون: «دعك من نايجلا في الحلويات. إنها ممتازة في المشهيات، لكنها لن تنفعك كثيرًا في الكعك». ثم مدّت يدها إلى أحد الأرفف وأخرجت كتابًا قديمًا شبه متهاك. «هذا هو ما ينفعك. كتاب وصفات على الطراز القديم، خال من هراء مشاهير الطهاة».

كان واضحًا أن ليلي لم تفهم كلمة مما قالته فيرا، فنظرت إلى جون تأمل أن تطمئننها.

وتابعت فيرا، وهي ترفع صوتها في محاولة لإفهام ليلي: «كما أنك استخدمت النوع الخطأ من مسحوق الكاكاو في كعكة الشوكولا بالأمس. لقد استخدمت كاكاو الشرب، من المفروض أن تستخدم كاكاو الخبيز». ثم مدّت يدها داخل حقيبتها واستخرجت منها علبة من مسحوق كاكاو 'بورنفيل'، دفعت بها إلى ليلي. فتراجعت المرأة مذعورة. وظلت فيرا البرهة واقفة بيد ممدودة، ثم وضعت الكاكاو على الرف وانصرفت.

رحل الصحفيون جميعًا في آخر الصباح، وهدأت الأوضاع في المكتبة. لم تكن جون قد ارتاحت للحظة، وكانت عيناها تؤلمانها من قلة النوم، فخرجت إلى الشارع وجلست على الدكة المقابلة للمكتبة. كانت قد اعتادت الجلوس مع أمها في هذا المكان بالتحديد أيام طفولتها، لتناول فطائر الدوناتس بالمرتبى في صباحات السبت. فأحست جون بلذعة الحنين من الذكري، والتفتت لتنظر من نافذة المكتبة. كانت مسر ب. وماري كوبر-ماركس تقفان معًا بجوار الباب، منهماكتان في حديث بدا ذي شجون. بينما كانت شانتال تقرأ لاثنتين من سيدات دار التقاعد، ورأس ابنة الرابعة والتسعين يميل على صدرها من النعاس وهي تصغي. أما فيرا وليلى فكانتا تجلسان إلى منضدة بجوار النافذة، منحيتين على كتاب وصفات، وفيرا تحاول أن تشرح شيئًا وهي تلوح بيديها بقوة. ابتسمت جون لنفسها وأغمضت عينيها حتى تدفئ الشمس وجهها.

«خطر لي أن فنجانًا من الشاي قد يروق لك».

رفعت عينيها لترى ستانلي يقترب وهو يحمل قدحين، ناولها أحدهما.

«شكرًا يا ستانلي. كيف حال الصداق؟».

«أوه، لم يكن يستحق الذكر».

جلس ستانلي بجوارها وظلا صامتين لدقائق قليلة، مستمتعين بالهدوء والسكينة.

ثم قالت جون بعد قليل: «لا أصدق أننا فعلنا هذا. حتى هذا الأسبوع كان أعظم ما حدث لي هو الفوز بجائزة القراءة في المدرسة».

«قد تمتلئ حياتك بالإنارة إذا تركت لنفسك عيشها». وأوماً ستانلي عبر الطريق، فالتفتت جون لترى أليكس يتمشى على رصيف الجهة المقابلة من شارع باراد. كان يحملق في شاشة هاتفه وشعره يسقط على عينيّه. وعندما عادت جون بنظرها، رأت ستانلي يرقبها بابتسامة تُظهر أسنانه المفلجة. «أليكس شاب ممتاز، أليس كذلك؟».

فأخذت جون رشفة من شايفها. وعلّق ستانلي:
«لقد رأيتهما معًا في المكتبة، تتكلمان عن الكتب. أعتقد بأنه يكنّ
لك الكثير من المشاعر». لا تكن سخيًا».

«الزمن أثمن متاعنا يا عزيزتي. إذا كانت نواياك تجاهه عاطفية فعليك
بإبلاغه».

«علاقتنا ليست من ذلك النوع - نحن صديقان لا أكثر. ثم إن عنده
حبية».

«صحيح؟ لكنه لم يذكر لي أي شيء عن هذا». «إنه حريص على خصوصيته بشأنها، لسبب ما. لكنني أعرف أنها
موجودة».

قطب ستانلي جبينه. «جون، اقبلي اعتذارى إذا كان حديثي مفرط
الجرأة، لكن سيسوؤني كثيرًا أن تجدي نفسك مثلي، وحيدة مع حياة
ملئية بالحسرات. أمامك فرصة هنا، وعليك انتهازها بكلّتي يدك». «لا ينبغي لك أن تتحسّر يا ستانلي. أعرف أنك ارتكبت بعض
الأخطاء، لكن الأوان لم يفت لتغيير الأمور مع ابنك. لماذا لا تسافر إلى
أمريكا لرؤيته؟».

نظر ستانلي عبر نافذة المكتبة وتنهّد. «ليت الأمر بهذه البساطة.
يسعدني ما نفعله هنا. إنها تجربة رائعة».

فقالت جون: «بل سوريالية. لا أصدق أن كل هؤلاء الأغراب جاؤوا
لمساندتنا اليوم». «أوه، أنا أصدق».

«لا تسئ فهمي، فهو كرم كبير منهم. لكنني لا أفهم لماذا جاءت
سيدات المعهد النسوي للاحتجاج من أجل مكتبة لم تسبق لهنّ زيارتها». «فنظر إليها ستانلي. «هل أخبرتك بسبب مشاركتي في هذه الحملة من
أجل المكتبة؟».

فهزّت جون رأسها نفيًا.

«بعد رحيل كيتي ومارك إلى أمريكا، تدهورت أوضاعي كلّها. كنت أفرط في الشرب قبل ذلك، لكن بعد رحيلهما لم أعد أحاول كبح جماح نفسي. وخلال اثني عشر شهرًا كنت قد فقدت وظيفتي وبيتي وكل شيء. كنت أكثر من التنقل في ذلك الوقت، باحثًا عن مكان أنام فيه قليلًا قبل أن يطردوني منه، مثلي مثل المشردين. بل إنني عشت في خيمة لبعض الوقت».

«أوه يا ستانلي، كم أنا آسفة. هذا فظيع».

«لكن إليك لبّ الموضوع - أينما انتهى بي الحال، ومهما بلغت المتاعب التي تعرّضت لها، كانت هناك دائمًا مكتبة. أي مكان آمن ودافئ وجاف، لن أتعرض فيه للإدانة من أحد. كانت المكتبات ضوئي الهادي الوحيد، في فترة شديدة الإظلام. وهكذا حين هدّد المجلس مكتبتنا هذه، كنت أحسّ أنّ التهديد موجه إلى كل مكتبة لجأت إليها - كأنه اعتداء على كل أمينة مكتبة سبق أن ساعدتني. ولهذا فقد جاء هؤلاء الناس اليوم. وكما قالت مسز برانزورث، هذا الاحتجاج لا يقتصر على تشالكوت، بل هو من أجل المكتبات كلها».

كانت جون ترقب ستانلي وهو يتكلّم. لقد ظلت طوال السنين تظن بأنها بلا أصدقاء، بينما كان ستانلي يساندها طوال الوقت، وكل يوم من الأيام: عطوفًا وصبورًا ووفيًا. كيف كانت بهذا العمى؟ مدّت جون يدها إليه ووضعتها فوق يده.

«شكرًا لك يا ستانلي».

«علام يا ترى؟».

«لأنك أنت. لا أدري ماذا كنت لأفعل من دونك منذ وفاة أمي». فربت على يدها. «لهذا وجد الأصدقاء يا عزيزتي. والآن دعينا ندخل قبل أن يلتهموا فطائر المربي كلّها، اتفقنا؟».

قام الاثنان وسارا نحو المكتبة، وفي أثناء هذا رأت جون رجلاً أنيق
الملبس يحمل حقيبة أوراق ويعبر الطريق نحوهما.
تساءلت جون: «أتراه صحافي آخر؟».
وقال له ستانلي حين قابلاه عند باب المكتبة: «أخشى أن الاحتجاج
قد هدأ الآن. كان عليك الحضور قبل ساعات».
«أنتما من المحتجين؟».
فردّ ستانلي: «نعم، نحن اللذان بدأنا الاعتصام. تفضل بالدخول يا
سيدي».
وما إن عبر الباب حتى توقف الرجل، ومدّ يده في حقيبته وأخرج منها
مظروفاً أصفر اللون، ناوله إلى جون.
«لقد تلقيتم إشعاراً بالحياسة المؤقتة، وأمامكم جميعاً أربع وعشرون
ساعة لإخلاء الموقع وإلا وقعتم تحت طائلة القانون».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع والعشرون

«انظروا إلى هذا، نحن من المشاهير!».

استيقظت جون مثقلة العينين ومتيِّسة من ليلة قضتها تحت مكتب مارجري، لتجد ستانلي ومسر ب. وشانتال يتفحصون صحف اليوم. ناولتها مسر ب. نسخة من الغارديان. فكانت في الصفحة السادسة عشرة صورة للمكتبة تحت عنوان متقاعدون يحتلون مكتبة في ظل تهديد مجلس دنغشاير بإغلاق ست مكتبات.

قال ستانلي: «عناوين معظم الصحف لا تختلف كثيرًا»، وهو يشير إلى صحف أخرى أمامهم. «كما أن مسر برانزورث مدعوة إلى الإذاعة». نظرت جون إلى الصحف. كانت هناك صورة لها مع ستانلي ومسر ب.، وهم يتسمون للكاميرا، بينما تظهر في صورة أخرى سيدات المعهد النسوي مع لافتاتهن.

قالت شانتال: «ومع ذلك فإن هذا كله لم ينفعنا. ما زلنا عرضة للإخلاء اليوم».

فقالت جون: «كلا، لكن هذا القدر من الدعاية مفيد لنا بغير شك. سيجد المجلس صعوبة في إغلاق المكتبة بعد ظهورنا في الأخبار». ونظرت إلى ستانلي كي يشني على كلامها، لكنه تحاشى النظر في عينيها. اختفى الشعور الاحتفالي المميز للأيام القليلة الماضية، وحل محله صمت رزين. فشرعوا في العمل على تنظيف المكتبة وترتيبها، حريصين على إظهارها بكامل رونقها قبل وصول المجلس: انتهى ستانلي وشانتال من تغطية خربشات جدران الحمام بالطلاء، بينما قامت مسر ب. بنفض

التراب عن مصاريع النوافذ التي طال إهمالها. في أثناء الليل انسكبت بقعة قهوة صغيرة على البساط، فنزلت جون على يديها وركبتيها لفركها. لم يتكلم أحد، بل كان كل واحد شاردًا في أفكاره.

بعيد منتصف النهار، صاحت مسز ب.: «وصلوا».

ألقت جون ببصرها إلى الخارج، حيث تقف عربة شرطة أمام المكتبة. نزل من العربة ستة من الضباط. «ما سبب حضور الشرطة؟».

فقالت مسز ب. بوجه متجهّم: «تحسّبًا لعدم انصرافنا طوعًا. إنهم يستعدّون لمعركة».

قال ستانلي: «ألم يروا من نكون؟ لسنا دعاة فوضى، بل إنني أقرأ الدايلي تلغراف بحق السماء».

قالت جون: «انظروا من جاء معهم أيضًا»، ورأوا ريتشارد وسارا ومارجري وبراين يعبرون الطريق للحاق بالشرطة.

تكلم ريتشارد مع أحد الضباط، الذي ناوله ميغافون. ضغط ريتشارد على زر، فانبعث صرير حاد دفع الواقفين في الخارج إلى وضع أيديهم على آذانهم. ثم تقدّم ضابط الشرطة وأراه كيفية تشغيله.

وضع ريتشارد الميغافون على فمه والتفت نحو المكتبة. «تمام يا جماعة، انتهت الحفلة. مرّت أربع وعشرون ساعة على تسلّمكم الإشعار، وحان وقت الخروج».

فلم يتحرّك أحد داخل المكتبة، بل وقفوا جميعًا يحدقون فيه من وراء النافذة. كانت جون تحسّ بقلبها يتسارع. ثم لمحت بركن عينيها تيسا وكليو تتحركان في اتجاه المكتبة، والكاميرا على كتف كليو التي بدأت التصوير بالفعل.

هتف ستانلي من خلف الزجاج: «لن نتحرك من هنا قبل أن تعدونا بأن مكتبتنا في أمان».

فهمست جون: «هل أنت جادّ يا ستانلي؟ لكن معهم أمر الإخلاء، وليس بيدنا أي شيء نفعله».

«هذه فرصتنا الأخيرة للمقاومة».

لكن صوت ريتشارد ارتد إليهم عبر الميغافون: «لا فائدة من المقاومة. إذا لم تخرجوا الآن فإنكم تتركبون مخالفة وسوف يتم اعتقالكم».

قالت مسز ب.: «عليك بالخروج يا شانتال. ستقتلنا أملك إذا عرّضناك للمتاعب».

ترددت شانتال قليلاً ثم أحنّت رأسها. «طيب، بالتوفيق يا جماعة».

فتحت جون الباب الأمامي فخرجت منه شانتال، وهي تنظر من خلف كتفها وتحاول أن تبسم.

«هيا هيا، اخرجوا الآن بهدوء وسلاسة». كان وجه ريتشارد يوحى بأنه مستمتع بممارسة هذه السلطة. «وأمام الباقيين في الداخل ثلاث دقائق وإلا أخرجتكم الشرطة».

نظرت جون إلى ستانلي، ثم قالت: «انتهاء الاعتصام لا يعني توقفنا عن المقاومة. وأنا من ناحيتي لن أستسلم، بعد أن صرت شريكة لكم. سنجد طريقة أخرى للاحتجاج».

فقال ستانلي: «أنت تعرفين كما أعرف أننا وصلنا إلى النهاية. لم يحاول المجلس التفاوض معنا ولو مرة خلال الأسبوع - لم يظهروا أي اهتمام بسماع حجتنا. كل ما يريدونه هو إخراجنا من هنا حتى يغلقوا المكان».

«لكن لا بدّ وأن الإغلاق صار صعباً عليهم الآن بعد كل ما حدث؟».

هزّ ستانلي رأسه. «ليتي أتمتّع بتفاؤل الشباب هذا يا جون».

«أمامكم دقيقتان»، لعل صوت ريتشارد من الخارج.

فقالت مسز ب.: «يا ربي، ما أحقر هذا الرجل. ستانلي، بقدر ما يسوؤني الاعتراف، فإن جون على حق. لقد انتهى الاعتصام ولا فائدة من اعتقالك بسببه. علينا إيجاد طرق أخرى لمواصلة النضال».

قال ستانلي: «وأنا متفق معكما تماماً. لا فائدة من اعتقالنا جميعاً. عليكم الخروج الآن».

فقلت مسزب. وهي تتجه إلى الباب: «لن يتم اعتقال أحد. هيا بنا من هنا». ثم تنهّدت وهي تخطو إلى الخارج. «كان اعتصامًا رائعًا». «تبقت دقيقة واحدة»، جاء صوت ريتشارد هادرًا.

كم كانت المكتبة تبدو خاوية في تلك اللحظة. نظر جون وستانلي أحدهما إلى الآخر.

ثم قال: «اخرجي أنت يا عزيزتي. سأكون بخير بمفردي». فقلت جون: «لن أتحرك من هنا من دونك. لقد بدأنا هذا معًا وسننهيه معًا».

«أنت أشدّ عنادًا مما يبدو عليك». وبدأ ستانلي السير نحو الباب، فتنفّست جون الصعداء.

قالت له: «شكرًا لك. دعنا نعود إلى بيوتنا للاستراحة، وفي الأسبوع المقبل سنعاود التجمع والتخطيط للخطوة التالية».

فتح ستانلي الباب. في الخارج كانت جون ترى ريتشارد وضباط الشرطة وكاميرا الأخبار.

قال ستانلي: «السيدات أولاً»، فأخذت جون نفسًا عميقًا وخطت إلى الخارج. ثم أحسّت بهبة هواء من خلفها والتفتت لترى ستانلي وهو يشد الباب ليغلقه.

صاحت: «كلا يا ستانلي!»، وحاولت أن تجذب الباب، لكنه كان قد أوصده من الداخل وبدأ يدفع عربة المرتجع خلف الباب. نظرت جون إلى ريتشارد والشرطة.

«لا تعتقلوه أرجوكم، إنه مهتم بالمكتبة فقط لا غير». فقال أحد الضباط وهو يعتذر لجون بهزة كتف: «آسف يا سيدتي لكن مهلة الساعات الأربع والعشرين انتهت. إنه الآن يخالف القانون بامتناعه عن تنفيذ أمر الإخلاء».

«لكنه شيخ طاعن في السن».

تناول الضابط الميغافون من ريتشارد. «يا سيدي، ما لم تخلُ هذا المبنى فورًا فسوف نضطر لاقتحامه واعتقالك».

على الجانب الآخر من الباب كان ستانلي يهز رأسه.

«سيدي، إنني أطلب ذلك منك مرّة أخيرة، افتح الباب واخرج».

فلم يتحرّك ستانلي.

تمتت سارا: «بحق السماء، خلّصونا من هذا الأمر قبل أن يتحوّل إلى شهيد»، مومئة إلى كليو التي كانت تصوّر كل ما يجري. فتحرك العديد من ضباط الشرطة نحو الباب.

وصاح أحدهم: «فلتراجع الجميع»، فوجدت جون نفسها في قبضة مسز ب. التي تجرّها إلى الخلف.

وزعق صوت مارجري من مكان ما خلفهما: «لا تخربوا مكتبتني». تمرّكز رجال الشرطة عند الباب، وقال أحدهم: «سأفتحه ثم نندفع كلنا».

نظرت جون إلى ستانلي عبر النافذة. كان يقف مشدود القامة ورأسه عاليًا في الهواء، ناظرًا بدوره إليها. أو ما لها برأسه إيماء صغيرة، فأومأت له. «طيب، ثلاثة، اثنان، واحد... هيا!».

وحدث اندفاع مفاجئ عند الباب مع تقدم ضباط الشرطة. انتظرت جون أن تسمع صوت كسر الباب، لكنها فوجئت بأن عربة الكتب القديمة صمدت في مكانها وظلّت تسدّ الباب.

صاح أحد الضباط: «هيا، بقوة أكبر»، فسمعتهم كيف ينفخون وهم يجهدون أنفسهم. تمايلت العربة، وتمنّت جون أن تبقى واقفة، لكن قوة الصدمة كانت أكبر. اهتزت العربة اهتزازًا أخيرًا ثم انهارت على جانبها وفُتح الباب، وفي خلال ثوانٍ كانت الشرطة داخل المكتبة تحيط بستانلي. تقدّم أحد الضباط منه، وشدّ ذراعيّ ستانلي خلف ظهره مظهرًا نوع من القوة المفرطة. فأفلتت من جون صرخة وهو يغيب عن نظرها

وسط كتلة الأجساد. لبضع لحظات لم تكن جون ترى إلا ظهور رجال الشرطة، ثم ظهر ستانلي مجدداً، ممسوكاً بضابط من كل ناحية، ويداه في القيود.

«أنقذوا مكتبة تشالكوت!»، صدر عنه الهتاف بينما اندفعت كليو إلى الأمام بالكاميرا. «هذه المكتبة طوق نجاة للمئات من الناس». قال أحد الضباط: «ضعوه في العربة».

هتف ستانلي بصوت أعلى، وهم يجروّنه وسط الزحام: «لا تسمحوا للحكومة بتدمير مكتبتنا!».

ونادته مسز ب. وهي ترفع قبضتها في الهواء: «عاش ستانلي! تسقط تخفيضات ميزانيات المكتبات!».

عمل الضابطان المحيطان بستانلي على دفعه إلى داخل العربة ثم اصطفت أبوابها وهي تتحرك مبتعدة. وراقبتها جون وهي تسرع بامتداد شارع باراد. وكان الهدوء قد ساد تماماً الآن.

قال ريتشارد: «دعونا نؤمن هذه المكتبة»، فتقدم رجلان بزيّ العمال ومعهما صندوق عدّة.

سألته جون: «ماذا سيحدث للمكتبة الآن؟»، لكنه تجاهلها.

قالت مسز ب.، مع اختفاء عربة الشرطة خلف ناصية الشارع: «أعجوبة الأعاجيب. مرّة أخرى يفاجئنا ستانلي فيليبس كلنا».

الفصل الخامس والعشرون

كان أقرب مراكز الشرطة في بلدة نيوكاولي، على مبعده نصف ساعة بالأتوبيس، المسافة التي قضتها جون وهي تتخيل ستانلي محبوسًا في زنزانة ضيقة مع عتاة المجرمين. ها هو يُجرّ إلى غرفة الاستجواب، حيث يتولّى استجوابه ضابط وسيم لكنه سريع الغضب، يخطب بقبضته على المكتب فيوقع كوبًا من الماء. يرفض ستانلي البوح بأسماء أو تفاصيل تخصّ رفاقه في الاحتجاج، مما يشعل غضب الضابط حتى يقف ويصبح...

«المحطة التالية هي وسط نيوكاولي».

قفزت جون من الأتوبيس وأسرعت تعبر الطريق إلى مركز الشرطة. لم يكن هناك أحد في غرفة الانتظار، فقط بعض الكراسي البلاستيكية الزرقاء وفتحة عريضة في الحائط، يجلس خلفها ضابط يقرأ كتابًا لدان براون.

اقتربت جون من النافذة. «بعد إذنك؟».

فلم يرفع الضابط عينيه عن الصفحة. «نعم؟».

«أنا هنا لرؤية ستانلي فيليبس».

«اسمك؟».

«اسمي جون جونز. هل يمكنني رؤيته، لو سمحت؟».

فنظر إليها أخيرًا. «هل أنت محاميته؟».

«كلا، بل أنا صديقه».

«المحامون وحدهم يستطيعون رؤية المتهمين المحتجزين».

«وهل عنده محام؟».

«أحشى أنني لا أملك الحق في مناقشة هذا الأمر معك».

قرأت جون اسمه على شارة صدره، ثم رسمت على وجهها أعذب ابتساماتها. «أرجوك يا حضرة الضابط رايلي. إنه شيخ كبير، وليس له أقارب هنا. وأنا لا أريد سوى الاطمئنان عليه». نظر إليها الضابط رايلي، محتفظاً بجديته. «كما قلت، المحامون وحدهم يستطيعون رؤية المتهمين المحتجزين». وعادت عيناه إلى صفحات كتابه المشنية.

فوقفت جون متحيرة لبرهة، لكنها حين أدركت أنه أنهى حديثه معها، عاودت الجلوس على أحد المقاعد. هل سيحظى ستانلي بمحام؟ وإذا حدث هذا فهل سيكون من البراعة بحيث يحميه؟

خطرت لجون فكرة، فمدّت يدها إلى جيبتها تخرج الهاتف المحمول، لكي تكتشف أنها لم تحمله معها. لا بد وأنها تركته في المكتبة، وسط فوضى عملية الإخلاء. وهكذا عادت إلى النافذة.

«لو سمحت؟».

رفع الضابط رايلي عينيه عن الكتاب على مضض. «نعم؟».

«أسمح لي بعد إذنك باستعارة هاتفك؟».

«أحشى أن هذا مستحيل».

«لكن ألا يحظى الناس بمكالمة هاتفية واحدة في مثل هذه الظروف؟».

«الناس المقصودون هم المحتجزون، لا الجمهور العام».

وأدركت جون أنه لا ينوي الترحيح عن موقفه، لكن أحد الأبواب من خلفه انفتح في هذه اللحظة ودخل منه ضابط آخر. ولمح الضابط جون عند النافذة. «ألسن أمينة مكتبة تشالكوت؟».

«أنا مساعدة لشؤون المكتبة».

«أنا آخذ أطفالاً إليها أحياناً، فابتي تعشق كتب د. سوس. كنت هناك

لتؤي في عملية الإخلاء».

«في الواقع، هذا سبب مجيئي يا حضرة الضابط...».

«أنا المفتش باركس».

«لقد اعتُقل صديقي بسبب الاحتجاج».

«مستر فيليبس؟ كنت أستجوبه الآن».

«أهو بخير؟ أنا أحاول تدبير المساعدة له، وقد سألت زميلك المذهب هنا إذا كان من الممكن أن يبحث لي عن رقم هاتف، ويسمح لي بإجراء مكالمة سريعة».

«طبعًا ممكن. ساعد الآنسة يا رايلي».

فغير وجه الضابط بسبب إلقاء الأوامر عليه أمامها. «ما الرقم الذي تريدينه؟».

«مطعم 'التنين الذهبي' لو سمحت، في تشالكوت».

نظر الضابطان معًا إلى جون في ذهول.

وسألها باركس: «تريدين رقم المطعم الصيني؟».

«أجل».

«وهل هذا هو الوقت المناسب لطلب الطعام؟».

تبادل الرجلان النظرات، ثم مدّ باركس يده إلى هاتفه وبحث عن الرقم، قبل أن يكتبه ويناول الورقة إلى جون. فأدخلت الرقم في الهاتف الموجود على المكتب ويداها ترتعشان. سمعت جون رنين الاتصال فحبست أنفاسها، وهي تصليّ حتى يُردّ على اتصالها.

قال الضابط رايلي: «لعلمك، أنا أشعر ببعض الجوع. إذا كنت تطلبين طعامًا فلا بأس في بعض فطائر الربيع».

«صه»، قالتها له جون.

«آلو، التنين الذهبي».

«جورج، أنا جون».

صاح جورج قائلاً: «طلبك المعتاد؟».

«ليس الآن يا جورج، شكرًا. أليكس عندك؟».

«نعم، هل تطلين التوصيل؟ طلبك المعتاد؟».

«أرجوك يا جورج، أيمكنني التكلم مع أليكس؟».

صاح مرة أخرى: «آل!».

وهنا همس الضابط رايلي من خلف الزجاج: «فطائر البط».

جاء صوت مكتوم على الخط ثم سمعت جون صوت أليكس: «آلو؟».

ولم تدر جون إن كانت قد شعرت بكل هذا الارتياح لسماع صوت

مخلوق من قبل. «أليكس، أنا بحاجة لمساعدتك».

«جون، أكل شيء على ما يرام؟».

«لقد اعتقلوا ستانلي».

«ماذا حدث؟».

«لا وقت عندي للشرح. هل يمكنك الحضور إلى مركز شرطة

نيوكاولي؟».

«طبعًا، سأجيء على الفور».

فأغلقت جون الخط.

سألها رايلي: «هل طلبت الطعام؟».

«تتكلم بجد؟».

«ما دام سيقطع هذه المسافة كلها...».

فأمسكت جون بالهاتف وطلبت الرقم ثانية.

بعد نصف ساعة كان أليكس يهرع إلى داخل قسم الشرطة، وإزار

المطعم لا يزال محيطًا بخصره، وفي يده كيس بلاستيكي. حين رآته

جون انتابتها رغبة جامحة في الإسراع إليه واحتضانه، لكنها تماسكت.

قال رايلي حين ناوله أليكس الكيس: «آه، جميل جدًا، بكم تدينني؟».

كانت معاملته لجون قد تحسنت قليلًا منذ طلبها لوجبته.

فقال أليكس: «تسعة جنيهات وعشرون بنسًا. والآن، هل يمكنني

رؤية ستانلي فيليبس؟».

«اسمع يا بني، كما قلت لصديقتك هنا، لا يمكن لأحد أن يراه سوى محامييه. ولا تعتقد أن بوسعك رشوتي ببعض فطائر البط.»

فقال أليكس: «أنا محام.»

فرأت جون رايلي وهو يتفحصه بعينيه من أعلى إلى أسفل. «أهذه نكتة مثلاً؟»

مدّ أليكس يده إليّ جيبه وأخرج منه بطاقة تعريف وناولها للضابط، الذي قرأها وقام واقفاً.

ثم قال: «تمام، تفضّل من هنا»، وهو يستدير ليفتح الباب الواصل.

قالت جون: «أبلغني إذا كان بوسعي المساعدة بأي شكل»، فأوماً أليكس برأسه موافقاً وهو يدخل من الباب.

خلت غرفة الانتظار من جديد. عاد الضابط رايلي إلى مقعده وبدأ يأكل، فجلست جون على كرسي بلاستيكي صلب وحاولت أن تتجاهل أصوات المضغ والبلع. لم تكن هناك ساعة على الحائط، فلم يكن بوسعها أن تعرف الوقت في غياب هاتفها. كان المؤشر الوحيد هو كركرة معدتها مع انسياب روائح فطائر الربيع والبط على طريقة بكين. بين الحين والآخر كان الناس يدخلون إلى غرفة الانتظار ويخرجون، بعد الاستقبال نفسه عديم الدفء من الضابط رايلي، لكنها لم تر أثراً لأصدقائها.

سألها رايلي بعد انتهائه من وجبته: «لكن لماذا يريد المجلس إغلاق هذه المكتبة أصلاً؟»

«تخفيضات تمويلية.»

«إنها في تشالكوت، أليس كذلك؟ في آخر مرة مررت بقربها، كانت في حالة يرثى لها.»

خطر لجون أنها ربما كانت لتفضل صمته العدائي. «لم ينفق المجلس عليها مليماً طوال سنوات. بل إنه يخفض موازنتها باستمرار.»

قال وهو يرفع حاجبيه. «حالك من حالنا، قلّصوا موازنتنا منذ تسع سنوات، فصار المكان آيلاً للسقوط.»

«هل تعتقد بأن صديقي سيظل البقاء هنا؟».

«على حسب».

«على حسب ماذا؟».

«حسنًا، فلنستعرض العوامل. أولاً، هناك رفضه لمغادرة المكان رغم وجود أمر من المحكمة. وثانيًا، هناك مقاومة الاعتقال».

«لكنه لم يقاوم الاعتقال».

«يقال إنه كان هناك عراك داخل العربة».

«فوضعت جون رأسها بين يديها. «يا ربي».

«عسى أن يكون صديقك المحامي متميزًا مثل فطائر الربيع التي يصنعها...».

انفتح الباب وخرج منه أليكس.

«ماذا حدث...؟»، بدأت جون تتكلم، لكن الباب انفتح ثانية وخرج منه ستانلي. كان يبدو ممتنعًا، مقطّب الجبين، فلم تملك جون نفسها هذه المرة واندفعت إليه عبر الغرفة، تحيطه بذراعيها. «أوه يا ستانلي، هل أنت بخير؟».

فقال وعليه أمارات الحرج: «أنا بخير طبعًا».

قال أليكس: «دعونا نخرج أولاً».

التفتت جون كي تودّع رايلي، لكنه كان قد دفن رأسه في كتابه. ولاحظت أن على قميصه بقعة من صلصة البرقوق.

قالت جون عند وصولهم إلى موقف السيارات: «ماذا حدث؟».

فردّ ستانلي: «لا شيء».

«صحيح؟ لكن ماذا عن الاتهام؟».

ردّ أليكس: «اتضح أن المفتش باركس من عشاق المكتبة، وقد وافق على إطلاق سراح ستانلي مع الاكتفاء بإنذاره. ومع ذلك فقد طلب منك أن تدرسي إمكانية إعفاء زوجته من الغرامة لتأخرها في إعادة أسطوانة فيديو لمايكل ماكتاير».

فغمر الارتياح جون حتى ضحكت بصوت عالٍ. «هذا رائع».

قال ستانلي: «الفضل كله لمحامينا الشاب أليكس. كان أدائه باهرًا».

فقال أليكس: «كل ما في الأمر هو أن باركس يحب طعام أبي. إنه من

زبائن المطعم المنتظمين».

ثم وجه ستانلي سؤالاً إلى جون: «هل ظللت منتظرة هنا طوال

الوقت؟ ما كان يجب عليك».

اتجه أليكس إلى سيارته. «أخشى أنني مضطر للعودة إلى المطعم،

فأبي بمفرده وما زال ممنوعاً من العمل. هل يمكنني توصيلكما إلى

تشالكوت».

ردّ ستانلي: «سأخذ الأوتوبيس». كان يستند إلى إفريز، ولاحظت

جون للمرة الأولى كم يبدو عليه التعب.

فقالت: «ولماذا لا نركب مع أليكس؟».

«الأوتوبيس يفي بالغرض».

هزت جون كتفها. «سأعود مع ستانلي بالأوتوبيس إذا. شكرًا جزيلاً

على المساعدة يا أليكس».

«أبدًا، العفو». ثم لوح لها بيده وركب وسيارته وانطلق.

قال ستانلي: «كان عليك أن تذهبي معه».

«لا تكن سخيًا. سأعود معك».

«لا ضرورة لهذا - أنا قادر تمامًا على الوصول إلى بيتي بمفردي».

واستدار متجهًا إلى محطة الأوتوبيس.

فأسرعت جون تلحق به. «لا أصدق قيامك بما فعلته في المكتبة.

أنت البطل الجديد في عين مسز برانزورث». وحين لم يرد، سألته: «هل

أنت بخير يا ستانلي؟».

«أنا بخير يا عزيزتي. متعب قليلًا فقط».

توقف الأوتوبيس وركباه. وتهاوى ستانلي على مقعد بجوار النافذة

وأغمض عينيه. كانت روحه المعنوية تبدو مرتفعة جدًا طوال الاعتصام،

لكن جون رأت الآن الثمن الذي دفعه في المقابل . لم يتكلما طول رحلة العودة إلى تشالكوت، ومع انحدارهما على التل نحو القرية كانت جون تتساءل إن كان النوم قد غلب ستانلي . لم تكن تعرف أين يسكن ولم تشأ أن تفوته محطته، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد إزعاجه . وبينما كانت توشك أن تلمس ذراعه، انفتحت عينا ستانلي وهبّ واقفاً .

«هذه محطتي»، قالها وهو يميل إلى الأمام لدق الجرس .

«أنت تسكن هنا؟» . كانا ما زالاً على بعد ميل من القرية، والغيطان المكشوفة حولهما من كل جانب .

تباطأ الأوتوبيس ووقف ستانلي للنزول .

فسألته جون: «أتحب أن أعود معك؟» .

«أنا بخير، شكرًا لك» .

«لكنك لا تبدو بخير، فلماذا لا أساعدك حتى تصل إلى البيت؟» .

«قلت إنني بخير» . لم يكن قد سبق لجون سماع مثل هذه النبوة الحادة من ستانلي . «شكرًا على اهتمامك، لكنني فعلاً بخير . عودي إلى بيتك الآن حتى نعاود التجمع في المكتبة في الأسبوع القادم» . ونزل من الأوتوبيس . واستدارت جون في مقعدها كي تراقبه بينما الأتوبيس يبتعد . مشى ستانلي بضع خطوات إلى الأمام ثم توقف ليستند إلى عمود سياج، قبل أن يكمل السير على درب للمشاة يفضي إلى حقل مزروع . لم تعهد في ستانلي مخاطبتها بهذه اللهجة، لكن لعلّه كان متعبًا بعد الاعتصام والاعتقال . ثم إنه لن يرحّب بملاحقتها له حتى البيت كالمتلصّصين، وليس من شأنها في الواقع أن تعرف أين...

صاحت جون: «رجاءً أوقفوا الأوتوبيس!» .

فضغطت السائقة على المكابح بكل ثقلها . «ما المشكلة؟» .

«آسفة لكنني أريد الاطمئنان على صديقي . هل تسمحين بنزولي هنا،

أرجوك؟» .

«لا أستطيع إنزالك إلا في المحطات الرسمية» .

«أرجوك، إنها حالة طارئة».

هزت السائقة رأسها، لكن باب الأوتوبيس انفتح فقفزت منه جون وأسرعت عائدة بطول الطريق نحو المحطة. حين وصلت إليها كانت ترى ستانلي يغذّ السير عبر الحقول في اتجاه دغل صغير على الجهة البعيدة، فانطلقت جون وراءه. لكنه صار يمشي بخطوة سريعة، فكانت تلهث عند وصولها إلى الدغل. استمر درب المشاة على حافة الحقل، لكن جون رأت ستانلي يدخل وسط الشجر. ماذا يفعل في هذه البقعة النائية؟ كانت جون تفترض أن الأراضي الزراعية هي كل ما يوجد هنا، ولم تكن تعرف بوجود أية منازل.

تكاثف الشجر من حولها وهي تدلف إلى الدغل، فحجب ضوء الأصيل. ولم تكن هناك درب محددة المعالم، فوجدت جون نفسها تتعثر في الجذور والفروع المنخفضة. كانت الطيور تصيح من قلب الكتلة الشجرية فوقها، واضطرت في أكثر من مرة للتشبّث بأحد الغصون حتى لا تسقط على وجهها.

«ستانلي!».

صدر نعيق من وسط الشجر وطارت بعض الطيور منزعجة، وتردد صدى صوتها بين الأشجار. على البعد كانت جون تتبين أشعة ضوء خلال العتمة، فاتجهت إليها. ثم انزلقت قدمها على بقعة مبتلة من الأرض، فسقطت على جانبها. لقد وقعت وسط حرشة شائكة وهي تطلق اللعنات. يم وقفت وسارت تعرج حتى بلغت طرف الدغل، فخرجت إلى فرجة فيه وهي تنفض الأوساخ عن ثيابها.

وكان أول ما أدهشها هو جمال كل شيء. كانت تقف على حافة مرج صغير، بحشائش طويلة وزهور برية تتلألأ في ضوء أغسطس. وسمعت صوت مياه عن شمالها، فالتفت لترى غديرًا صغيرًا يترقرق بطول حافة الدغل، ويحمل في تياره أسماكًا فضية ضئيلة. تتبعت عينها جون مسار الغدير، وعندئذ رأتها. على بعد ثلاثين مترًا أو نحوها، في ظل زانة ضخمة،

كانت تقف مقطورة صغيرة أكل عليها الدهر وشرب. كانت العساليج الملتفة تنمو على أحد جوانبها، وهناك حبل للغسيل ممدود بينها وبين شجرة، يتدلى منه قميص وزوج من الجوارب، تتأرجح في الهواء. فهمست جون لنفسها: «آه يا ربي».

فتح باب المقطورة وخرج منه ستانلي، متمهلاً على الدرجة الأمامية. وكان رد فعل جون الأولي هو أن تنبطح أرضاً، لكن ستانلي استدار في هذه اللحظة ونظر إليها. بيد أن وجهه ظل خالياً من التعبير، ثم عاد إلى داخل المقطورة.

غاص قلب جون في صدرها. أين كان عقلها حين تتبعت ستانلي وكأنها مخبرة من الدرجة الثانية؟ كان قد أوضح تماماً أنه لا يريد لها المجيء إلى بيته، وها هي قد عرفت السبب. مسكين، مسكين يا ستانلي. كانت قد بدأت العودة في اتجاه الشجر، والخجل يغمرها، حين سمعت صوته يناديها.

«يتهيأ لي أنه لا بأس من دخولك الآن».

ارتدت جون نحو المقطورة. وحين بلغت الباب ظلّت تحوم بالخارج، غير واثقة، ثم دفعته ودخلت. كانت المقطورة خافتة الإضاءة، فاحتاجت لحظة حتى تتعود عيناها على العتمة. كان إلى يسارها سرير مفرد ضيق، عليه ملاءة وبطانية مشدودتان بعناية. بإزاء الجدار البعيد كان هناك ما يشبه الموقد وحوض صغير، إلى جانبه طبق واحد وقدر واحد. وعلى اليمين منضدة صغيرة مغطاة بالجرائد، يجلس إليها ستانلي الآن، يرقبها وهي تستطلع المقطورة.

«ستانلي، أنا...».

فقاطعها: «لا يلزم أن تقوليها. النظرة التي على وجهك هي بالضبط سبب امتناعي عن دعوة الناس إلى هنا».

حاولت جون أن تستعيد ملامح وجهها. «إنها بديعة. شديدة ال... حميمة».

«إنها تلبي احتياجاتي على أتم وجه».

«منذ متى وأنت تعيش هنا؟».

«اثنا عشر عامًا. قبل هذا كنت على الجانب الآخر من القرية، لكنني اضطررت للانتقال إلى هنا».

«لم أكن أعرف يا ستانلي. هل يعرف آخرون أنك تعيش هنا؟».

«واحد أو اثنان. لكنني أفضل الحفاظ على خصوصيتي».

تذكرت جون حديثهما عن تعرضه للتشرد في الماضي؛ لم يخطر لها قط أنه ما زال مشردًا. عاودت جون النظر حولها. رغم صغر حجم المقطورة إلا أنها لا تكاد تحتوي على شيء: لا صور ولا تذكارات، ولا لحظات تنم عن حياة عِشَّت.

«ليتكَ قلت لي».

«قلت لك ماذا؟».

«حسنًا، قلت لي... إنك بلا بيت».

فردّ عليها بنبرة حسم: «لكنني لست بلا بيت. كُوني أعيش هنا لا يعني احتياجي إلى شفقتك».

قالت جون: واعية بأنها لم تقنع نفسها ولا أقنعت. «لم أكن أظهر الشفقة، لكن العيش هنا لا بد وأن يكون شاقًا».

«المكان ليس بهذا البعد - مسيرة أقل من ميلين إلى القرية بمحاذاة الغدير. وعما قريب سأتمتع بجيران جدد». وأشار خلف كتفه إلى الأشجار القائمة وراء المقطورة. «هناك مشروع سكني قيد الإنشاء على الجهة الأخرى من هذه الأكمة. سينون ثمانين شقة ومنزلًا. والمطور العقاري أحال حياتي جحيماً».

«لكن ماذا تفعل من أجل الكهرباء والمياه؟».

«الماء العذب آخذه من هذا الغدير، ثم أغليه، وعندئذ أسطوانة غاز للموقد والمدفأة. وها هو مصدر الإضاءة». وأشار إلى اثنين من مصابيح التخييم على المنضدة. «كما أن المكتبة تحتوي على حمام ممتاز

ونظيف، أستفيد منه متى شئت». وغمز لجون بعينه وهو يقول هذا، فوجدت نفسها تبتسم له.

«لهذا تكون دائماً أول الواصلين».

«سبب آخر يحتم علينا حماية المكتبة، عزيزتي».

«لكن أليس من واجب المجلس أن يجد لك مكاناً تعيش فيه؟».

وهنا ارتعد ستانلي. «فيضعونني في شقة بالطابق العشرين من أحد
روشاج؟ شكراً جزيلاً، لكنني أفضل العيش هنا».

«وماذا لو أصابك مكروه؟».

«لقد اعتنيت بنفسي جيداً طوال سنوات. ورغم أن المكان لا يمثل
ذروة الترف، إلا أنه يقيني شر المتطفلين».

لم ينطق ستانلي بتلك الكلمات الأخيرة بنبرة الإساءة، ومع ذلك فقد
أحسّت جون بالخجل. «كم أنا آسفة يا ستانلي. لم يكن عليّ أن أتبعك.

لكنني كنت قلقة عليك». مكتبة سر من قرأ

«أعرف هذا، وأشكرك على صداقتك المخلصة. لكن إذا لم يكن
عندك مانع، أنا متعب بعض الشيء، وأريد الحصول على بعض الراحة».

«بالطبع». وتراجعت جون نحو الباب، ثم تمهّلت. «أنت متأكد من
أنك بخير؟».

«أنا بخير. رغم أنني قد أشعر بالملل بعد الأيام الأخيرة مع الفريق في
المكتبة».

ترددت جون. «يمكنك دائماً أن تنزل عندي لبعض الوقت، كما
تعلم. عندي غرفة إضافية».

«أشكرك يا جون، لكن هذا بيتي».

الفصل السادس والعشرون

في تلك الليلة نامت جون بعمق، بعد إجهاد الأيام القليلة الماضية. وعندما أفاقت ظلت راقدة بعينين مغمضتين، تسمع أصوات رفاقها المحتجّين، قبل أن تدرك أن الاعتصام انتهى، وأنها في بيتها. اعتدلت جالسة وهي تستوعب مشاهد غرفة طفولتها المألوفة: كتبها الأثيرة على رف الكتب، اللحاف الذي جعلتها أمها تنشره فوق السرير، والدب اللعبة القديم يرقبها من حافة النافذة. قامت جون وشدت عليها الروب دي شامبر ونزلت للطابق السفلي. كان الآن بنيت مقعياً بجوار الباب، فماء لها بفتور حين رآها.

«صباح الخير، هل افتقدتني؟».

استدار القط وتهادى إلى المطبخ، وهي وراءه. كانت الغرفة صامتة في ما خلا تكتكة ساعة الحائط. فهل كان المنزل دائماً بهذا الصمت؟ فتحت جون جهاز الراديو العتيق في ركن المطبخ، فأطلق أغنية شعبية بصوت صاخب جعلها تعيد إطفاءه، وحانت منها نظرة إلى الساعة: العاشرة صباحاً. اليوم بداية عطلة البنوك، وإذا فلن تفتح المكتبة قبل صباح الثلاثاء. مما يعني مرور اثنتين وسبعين ساعة قبل أن ترى أحداً منهم ثانية، اثنتين وسبعين ساعة من القراءة والهدوء والسكينة، وحدها. لكن العطلة الطويلة، التي كان من شأنها سابقاً أن تملأ قلب جون بالبهجة، جعلتها تحسّ الآن بتململ غريب. رجعت إلى الطابق العلوي واستحمت وارتدت ثيابها، وتناولت الفطور، وغسلت الصحون ونفضت غرفة المعيشة. وقرأت وولف هول لمدة ساعة لكنها عجزت عن التركيز،

فكانت تعيد قراءة كل صفحة مراتٍ ثلاثًا. ماذا يفعل ستانلي الآن؟ أترأه سيبقى وحيدًا في مقطوره حتى تفتح المكتبة من جديد يوم الثلاثاء؟ دخلت جون إلى المطبخ وفتحت المجمد. كانت وجبة لازانيا جاهزة قابعة فوق الرف، تنتظرها. عاودت النظر إلى الساعة. سبعون ساعة حتى تفتح المكتبة. سبعون ساعة حتى تكلم مخلوقًا آخر.

اختطفت جون مفاتيحها وعبرت من الباب الأمامي. وأدركت وهي تدق جرس المنزل الملاصق أنها ما زالت ترتدي الخف المنزلي. «جون، يا للمفاجأة السارة!». فتحت ليندا الباب وفي أذنها قرط طويل، وعلى شفيتها طلاء بلون الفوشيا، مرتدية مريلة مطبخ تعلوها صورة امرأة باليكييني.

«مرحبًا، كنت أتساءل لو كان لك في...». ثم سمعت جون أصوات ضيوف من داخل البيت. «أوه، آسفة لإزعاجك يا ليندا. لم أدرك أن عندك زوارًا».

«إنها العائلة لا غير، جاؤوا للغداء. تعالي وشاركينا».

«الموضوع غير مستعجل، سأعود في الغد»، قالت وهي ترجع بظهرها. كثيرًا ما كانت ليندا تدعوها لمشاركتهم في الوجبات، لكن جون كانت ترفض دائمًا، رغبة منها في عدم التطفل على أوقات اجتماع العائلة.

استدارت جون لكي تعود إلى بيتها الخاوي، ووجبة الميكروويف لشخص واحد. وسمعت من خلفها جلبة الضحك عند ليندا، فتذكرت الوجبات التي أكلتها في المكتبة على مدار الأيام القليلة الماضية، واقتسام اللقمة مع آخرين، والثروة والضحك. أما وقد انتهى الاعتصام فسوف تعود الآن إلى تناول كل وجبة بمفردها.

استدارت جون. «في الواقع يا ليندا، سيسرني جدًا أن أشارككم، إذا لم يكن عندك مانع؟».

«لا مانع طبعًا يا حبيبتى»، وبدأ على ليندا السرور. «كنت على وشك تقطيع اللحم. ادخلي إلى غرفة المعيشة وألقي التحية على الجميع».

رغم أن تصميم منزل ليندا كان يطابق منزل جون إلا أن غرفة معيشتها كانت مختلفة أشد الاختلاف. فكانت شاشة تلفاز مسطحة كبيرة الحجم تملأ الحائط الذي وضعت عليه جون رف كتبها، ولم تكن هناك تحف وتماثيل تزحم كل الأسطح، فقط بضع صور عائلية وشمعة عطرية هنا وهناك. كانت كلير، ابنة ليندا، تجلس على الصوفا قشدية اللون مع زوجها، وأطفالهما الثلاثة مسترخين على الأرض يلعبون لعبة ورق مع مارتن، ابن ليندا. أما ابنتها الوسطى، إلين، فكانت حاضرة مع جاكسون، الذي قفز من مكانه عند دخول جون.

«جون، أنت هنا!».

«آسفة على إزعاجكم جميعًا».

فقالت كلير وهي تقف وتحتضن جون: «لا تكوني سخيفة، نحن سعداء بوجودك». كان تحت تيشيرت كلير انتفاخ واضح، افترضت جون أنه الطفل رقم أربعة في الطريق. «أرجو أن تبقي للغداء، فقد طبخت أُمي أكثر مما يجب، كالمعتاد. من يرى الكميات التي تطبخها سيعتقد أننا خمسون فردًا».

ولم تكذ كلير تكمل كلامها حتى وقفت ليندا بالباب، وأعلنت أن الغداء جاهز، وعلقت ليندا في تدافع العائلة نحو مائدة الطعام، فوجدت نفسها مدفوعة إلى مقعد بين ليندا وجاكسون.

«نبيذ؟»، سألتها ليندا وهي تسكب كأسًا من قبل أن تتمكن من الرد.

في منتصف المائدة كانت أكبر قطعة رأتها جون في حياتها من فخذ البقر المشوي، محاطة بأطباق تشمل كل الملحقات المعتادة. بدأ الناس يكوّمون الطعام في أطباقهم من دون التوقف عن الحديث. وفاض طبق جون بما فيه، فتركت صخب الحديث يغمرها وهي تأكل. عبر المائدة

كان مارتن وأكبر الأحفاد يتبادلان النكات الجريئة، فتضحك جون لسماع أطراف من نهاياتها. وإلى يمينها كانت ليندا منهمكة في حوار محتدم مع كليز عن مدرسة الأولاد الابتدائية.

قالت كليز: «الوضع صادم فعلاً. المدرسة تعاني من نقص التمويل لدرجة عجزها عن توفير الورق والأقلام لكل الصغار. في نهاية الفصل الدراسي الماضي وصلنا خطاب يطلب من أولياء الأمور التبرع بالأقلام والكراسات، هل تصدقين؟».

فقالت ليندا: «مسخرة».

«كل نواب البرلمان، برواتبهم الخيالية وتعليمهم الخاص، ومع ذلك لا تحصل المدارس الحكومية على التمويل الكافي لتعليم الصغار كما يجب. أنا بصراحة غاضبة وأنوي إرسال خطاب إلى نائب دائرتي».

قال جاكسون: «عليك بالاحتجاج مثل جون. إنها الآن خبيثة».

«صحيح؟». التفتت كليز إلى جون وعلى وجهها نظرة اندهاش.

قالت جون: «لست خبيثة بالضبط».

قالت ليندا: «بلى بلى، لقد نظمت اعتصامًا في مكتبتنا لأن المجلس يريد إغلاقها. وظهروا في الصحف والتلفاز. مكتبة تشالكوت مشهورة الآن».

فقال مارتن، الذي كان قد توقّف عن سرد النكات حتى يصغي: «هذا مذهل. كيف كان الاعتصام؟ هل كنت تنامين هناك؟».

«أجل، لمدة ثلاث ليال. ثم استصدر المجلس أمرًا بإخلائنا يوم أمس».

«أحسن يا فتاتي، أحسنت، ما فعلته يستلزم شجاعة حقيقية»، قالت كليز.

فابتسمت جون للمجاملة.

وتساءل مارتن: «وماذا سيحدث الآن؟ هل ستواصلون الاحتجاج؟».

«بالطبع - لا بد من هذا. أطلق المجلس عملية استشارية تنتهي خلال أربعة أسابيع، وعلينا أن نضمن ازدحام المكتبة بقدر الإمكان حتى ترتفع أعداد الزوار. كما أن علينا مواصلة الحملة حتى لا يخف الضغط على المجلس».

أدركت جون أن الجميع قد توقّفوا عن الحديث للإصغاء إليها. كانت تحسّ بالدهشة من قدر العنفوان في كلماتها، ومن نظرات الإعجاب التي ترمقها بها العائلة.

قالت لها ليندا وهي تبتسم: «ليتك تسمعين نفسك، أنا لا أكاد أعرفك».

وصاحت كلير: «نخب جون!»، فانطلق صخب تبادل الأنخاب حول المائدة.

في صباح الثلاثاء غادرت جون منزلها بمغص في بطنها، فهي رغم كل عترياتها يوم السبت، كانت تشعر بالرعب مما ستجده عند وصولها إلى المكتبة اليوم. من شأن مارجري أن تحقق عليها، طبعًا، ولا شك في مواجهة متاعب مع المجلس. لكنها ستري ستانلي وغيره من أعضاء أصم مك تش ثانية، وبوسعهم عندئذ وضع خطة للمرحلة الأخيرة من الحملة. كانت تفكر في الأمر طوال العطلة، وقد خطرت لها عدّة أفكار عن كيفية الحفاظ على قوة الدفع.

دارت جون حول ناصية شارع باراد فرأت فيرا تقف أمام مكتب البريد.

«صباح الخير يا فيرا، كيف حالك؟».

«لا يصح أن أشكو، رغم أن مفصل فخذي...».

«آسفة يا فيرا، كنت أتمنى إطالة الحديث لكن يجب أن أذهب للعمل».

فسألتهافيرا: «ما الذي يحدث هناك اليوم؟». «ستستضيف مارجري حفل شاي تكنولوجياي في الصباح، أتودين حضوره؟».

«كلا بل أقصد الآن - هناك تجمع في الخارج، وبينهم ذلك الرجل من المجلس».

«تقصدين ريتشارد دونيلي؟».

«أقصد ذلك اللزج ابن ال...».

«يجب أن أمضي. معذرة يا فيرا».

استدارت جون وأسرعت نحو المكتبة، وعند اقترابها كانت ترى دونيلي في الخارج، يتحدث مع رجل وامرأة. عند وصولها قالت: «ما الذي يحدث هنا؟».

فقال ريتشارد: «صباح الخير يا مس جونز. كنت أتساءل عن موعد حضورك. ألم تتلقي رسالتنا الإلكترونية؟».

«كلا، فقد تركت هاتفي هنا. ماذا هنالك؟».

«أعتقد أننا أنجزنا المهمة»، قالها ريتشارد للرجل والمرأة فأوما برأسيهما وانصرفا. ثم التفت إلى جون. «قرر المجلس إجراء تحقيق موسّع في أحداث الأسبوع الماضي، بما فيها تورط موظفة تابعة للمجلس في اعتصام المكتبة وما استتبعه من تلفيات. وقد تم إعفاؤك من مهامك في المكتبة لحين انتهاء التحقيق».

«ماذا؟».

«أنت موقوفة عن العمل، بمرتب كامل طبعًا، لحين تحقق المجلس من دورك في المسألة، واتخاذ قرار بشأن الخطوات الضرورية التالية».

«انتظر لحظة - ماذا تقصد بالتلفيات؟».

فنظر ريتشارد إلى لوحه المشبكي. «على سبيل البداية، هناك تلفيات لحقت بطلاء القاعة الرئيسية...».

«لكننا لم نعلق تلك الملصقات إلّا لأيام قليلة».

«وخدوش في المناضد...».

«هذه المناضد عمرها عشرون عامًا على الأقل».

«وبقع على البساط...».

«اللعنة على القهوة». «لكنني فركتها بنفسي».

«بعد زيارة فريق التقييم قالوا إننا سنضطر لتغيير الأبسطة كلها».

«كلام فارغ، إنها مجرد بقعة صغيرة».

«لن أقف هنا للتجادل معك يا ميس جونز. لقد اتخذ المجلس قراره، الذي كان من شأنك أن تطلعي عليه لو تجشمت عناء قراءة بريدك الإلكتروني. حتى انتهاء التحقيق، لا يمكنك دخول المكتبة للعمل ولا لأسباب شخصية».

«هذا جنون. لم تحدث أية تلفيات بالمكتبة - بل إننا حسنًا مظهرها. ومن الذي سيغطيني أثناء إيقافي عن العمل؟».

«استعنا بشخص من الإدارة المركزية لمعاونة مارجري. لكن المجلس لا يملك الموارد اللازمة لتغطية وظيفتك بالكامل، ولهذا سيتعين تخفيض ساعات عمل المكتبة».

«كلا! لا يمكنك هذا، أرجوك. إذا خفضت ساعات المكتبة سيتراجع عدد الزوار مما يؤثر في العملية الاستشارية».

فhez ريتشارد كتفه. «القرار خرج من يديّ يا ميس جونز».

كانت طريقته في نطق اسمها قد جعلت جلدها يقشعر. «هذا أمر متعمّد، أليس كذلك؟ تريد تصوير المكتبة وكأنها فاشلة، لأنك تريد إغلاقها. فلعلك متواطئ في صفقة كوبا كوفي بدورك؟».

قال ريتشارد: «ليست عندي أدنى فكرة عما تقولينه. كما أقترح عليك التوقّف عن توجيه اتهامات طائشة، فقد أصيبت هذه المكتبة بأضرار كافية من جراء سلوكك غير المسؤول». ثم استدار وبدأ يمشي في اتجاه المكتبة.

صاحت جون خلفه: «هاتفي في الداخل. ألا يمكنكني أخذه على الأقل؟».

تنهد ريتشارد. «لا بأس، لكن انتظري في المدخل حتى أعثر عليه». في داخل المكتبة كان كل شيء يبدو تمامًا كما تركته يوم الجمعة، ومع ذلك كان فيها تغير ما. لم يكن الأمر يتعلّق بالستائر التي لم تعد مصفرة بالتراب، ولا رائحة الطلاء الحديث الممتزجة بروائح الخشب والورق المألوفة، ولا كان يتعلّق ببقعة القهوة الصغيرة، التي لا تتجاوز حجم روايات الجيب. كلا، بل إن الأمر يتعلّق بصوت المكتبة؛ فعلى نحو ما، كان صمتها مختلفًا. ربما تكون جون مخطئة، لكنها أحسّت كما لو أن القصص لم تعد تتهامس في ما بينها.

«تفضلي». خرج ريتشارد من المكتب وناول جون هاتفها. حملقت في الهاتف، متحيرة بشأن الخطوة التالية. «هل يجب عليك أن تفعل هذا؟ أرجوك، ألا يمكنك إبقاء ساعات العمل الاعتيادية حتى انتهاء العملية الاستشارية؟».

فنظر إليها ريتشارد متأملًا. «ماذا كنت تتوقعين؟ أن تهيني المجلس في الأخبار فتركك تفلتين بفعلتك؟».

«إذا كنت غاضبًا مني فلك أن تطردني. لكن أرجوك، لا تعاقب القرية كلّها على تصرفي أنا».

هنا أطلق ريتشارد ضحكة ساخرة. «ربما كان عليك أن تفكري في هذا قبل حركتك الاستعراضية؟ لا أحد يُلام على تخفيض ساعات المكتبة سواك».

«أرجوك يا ريتشارد. أتوسّل إليك». «أقترح أن تغادري المكان الآن. وجودك هنا يخالف شروط إيقافك عن العمل، ويضطرني لاستدعاء الشرطة».

ألقت جون نظرة أخيرة على المكتبة. كانت تحسّ بعينيّها تمتلئان بالدموع، فاستدارت وأسرعت بالخروج.

الفصل السابع والعشرون

قضت جون بقية الأسبوع مختبئة في بيتها. كانت عاجزة عن النوم وبلا شهية للطعام. جرّبت أن تقرأ العقل والعاطفة لكن إيلانور داشوود وإدوارد فريزر نفسيهما عجزا عن التسرية عنها. كانت كلمات ريتشارد تتلاحق داخل عقلها في دوامة مضنية. أكنت تظنين أننا سنتركك تفلتين بإهانة المجلس؟ لا أحد يُلام على تخفيض ساعات المكتبة سواك.

فكانت جون تذرع أرجاء البيت كالحيوان الحبيس. ليتها اتبعت نصيحة مارجري ونأت بنفسها عن الاحتجاج، وتركت الآخرين يناضلون من أجل المكتبة من دون أن تتورط هي. لماذا خطر لها أنها قادرة على المساعدة بينما كانت، في حقيقة الأمر، تزيد الطين بلّة؟ وفوق هذا هناك أعضاء أصم مك تش - هل سيلومونها عندما يكتشفون أن تخفيض الساعات كان بسبب إيقافها عن العمل؟

لكن ما شغل أكثر تفكيرها كان ستانلي، الوحيد في تلك المقطورة الصغيرة المظلمة. لقد صارت تدرك الآن لماذا يقضي النهار كله في المكتبة، خاصة في شهور البرد الشديد. وتساءلت كيف سيمرّ عليه الشتاء القادم من دون المكتبة؟ كانت كل تلك الأفكار تفتح كل لحظة من لحظات صحوها، ولا تتوقّف إلّا حين تشرب جون كمية من النبيذ تفقدها الوعي وتنيمها.

في صباح الجمعة، حين نفذ مخزونها من الخمر وأكلت آخر طعام في المجمّد، لبست جون سروال الرياضة وغادرت المنزل. وحين بلغت متنزّه القرية رأت ستانلي جالسًا على دكة بجوار البركة، منغمسًا في كتاب. لم تشأ جون إزعاجه، لكنه رفع عينيه عند مرورها بجوار هو قال:

«جون! تفضلي وشاركيني!». وأشار إلى الدكة المجاورة فجلست جون عليها. سألتها: «هل قرأت هذا؟»، وهو يريها غلاف كتابه. كانت نسخة المكتبة من المنزل الواقع على ناصية الدبية. «كان هذا كتاب مارك المفضل في صغره. لا بد وأنني قرأته له عشرات المرات». فردت جون: «كان من كتبي المفضلة أنا أيضًا».

عاد ستانلي للقراءة وران الصمت بينهما حتى لم تعد جون تحتمله. «ستانلي، أنا شديدة الأسف».

«علام؟»، سألتها وعيناه لا تزالان معلقتين بالكتاب.

«على كل شيء».

«لست أفهم».

فأخذت جون نفسًا طويلاً. لعلّ ستانلي لم يدرك حقيقة الأمر، لكن عليها أن تكون صريحة معه. «أنا المسؤولة عن إنقاص ساعات عمل المكتبة، فقد تعمّد المجلس هذا لمعاقتي على المشاركة في الاعتصام. وبالتالي ستنخفض أعداد الزوار والكتب الصادرة، فيحصلون على الحجة المثالية لإغلاق المكتبة».

انتهت جون من كلامها ونظرت إلى ستانلي لتجده يرمقها وعلى وجهه سيماء الاستغراب. سألتها: «هل اختبأت تحت صخرة طوال الأسبوع؟».

«كنت في بيتي».

«أي أنك فعلاً لا تعرفين ما حدث؟».

حدّقت فيه جون. «ما الذي تتحدّث عنه؟».

«عزيزتي، لقد بدأت ثورة»، قالها ستانلي ووجهه يشرق بالابتسام.

«ماذا؟».

«لا أصدق أنك لا تعرفين. فور ذبوع خبر إيقافك عن العمل، ثارت نائرة القرية. وبدأ الناس يتدفّقون على المكتبة في حالة هياج، ويسألون كيف يمكنهم المساعدة».

فأحست جون بالدماء تعود إلى وجنتيها. وتابع ستانلي: «عندها تذكرت ما قالته ماتيلدا - أقصد ما قلته أنت - عن إقناع الناس باستعارة أكبر عدد ممكن من الكتب. وهذا ما بدأنا نطلبه من الناس. ليتك رأيت المنظر: كل واحد من الزوار يستعير أقصى عدد يسمح به الاشتراك». ثم لوح بالكتاب في يده كدليل على مشاركته في الاستعارة. «حتى هؤلاء الذين لم يدخلوا المكتبة منذ سنوات بدأوا يستعرون الكتب. ومارجري عاجزة عن ملاحقة الطلبات، والأرفف نصفها خاوية».

لكن الدهول ظل يمنع جون من التكلّم.
«والفضل كله لك يا عزيزتي. الناس غاضبون من إيقافك عن العمل بعد كل ما قدّمته للمكتبة ولأهل هذه القرية».
«لا أصدق هذا».

«مستحيل أن ينجح المجلس في الزعم بأننا مكتبة فاشلة الآن. بل إن مكتبة تشالكوت لا بد وأن تكون أعلى المكتبات أداءً في المقاطعة كلّها حاليًا!».

«ستانلي، هذا مذهل».

ردّ ستانلي بفرحة طفولية: «سنحضر كلنا اجتماع المجلس في الرابع والعشرين من الشهر، حين يعلنون عن قرارهم. إنها معركتنا الأخيرة ضد العماليق. يجب أن تحضري معنا يا جون يا عزيزتي، سنحتاج إليك هناك».

«طبعًا سأحضر». وسمحت جون لنفسها بالابتسام لأول مرّة منذ أيام. «نحن لها يا ستانلي، أعرف أننا سننجح».

عادت جون إلى البيت والابتسامة لا تزال تعلو وجهها. ثم بحثت عن نسختها القديمة من المنزل الواقع على ناصية الدببة على رفّ غرفتها وخرجت به إلى الحديقة المهملة. كانت تقرأ الفصل الأخير حين

سمعت جرس الباب الأمامي، فافترضت أنها ليندا، التي كانت تتحلل أعدارًا واهية للمجيء إليها طوال الأسبوع. لكنها فتحت الباب لتجد أليكس، واقفًا على الدرجة.

قال لها: «لم تردّي على رسائلتي النصية، هل أنت بخير؟».

«آسفة، كنت منعزلة عن العالم هنا».

فقال: وهو يرفع الكيس الذي يحمله. «أتيتك ببعض الطعام. طلبك المعتاد مع بعض الإضافات».

«شكرًا جزيلاً، تفضل بالدخول». وفيما كانت جون تقتاده إلى المطبخ، تنبّهت لورثاة الديكور وتحف أمها القديمة التي تغطي كل سطح. «اعذرني، هذا المكان يحتاج إلى إعادة طلاء».

«مرحبًا أيها الصغير».

التفتت جون لترى أليكس منحنيًا يداعب آلان بنيت، الذي كان مستلقيًا في سلّته.

«لا أنصحك بهذا...». وأرادت تحذيره لكن الألوان كان قد فات -

زمجر آلان ومدّ مخلبه فخمش يد أليكس.

قال أليكس وهو ينكمش عن القط: «أي! اللعنة، قطعك هذا شرير».

«أنا آسفة، لكن آلان من كارهي البشر. كان يعبد أُمي، لكنه ظلّ

يكرهني».

«لم أسمع من قبل عن قط يكره الناس».

«ظلمت أتوقع أن يلين قلبه لي بعد وفاة أُمي وبقائنا وحدنا، لكن ها قد

مرت ثماني سنوات ولم يتغير».

فضحك أليكس وبدأ يُفرغ علب الطعام على المنضدة. «لقد قررت

أن الوقت قد حان لتوسعة آفاقك. تنحدر عائلة أبي من مقاطعة سيتشوان،

وبالتالي فهو متخصص في مطبخها». وفتح إحدى العلب. «هذا باذنجان

بأريج السمك».

«أريج السمك؟».

«وهذه فاصوليا خضراء بلحم الخنزير والفلفل الحار، وهو من أطباقي المفضلة».

أحضرت جون طبقاً راح أليكس يغرف فيه الباذنجان وعندما تَذَوَّقَتْ، صاحت: «إنه لذيذ».

«ألم أقل لك؟»، قال أليكس باعتزاز. «والآن جرّبي هذا اللحم الحار، لكن بشرط أن تكوني مستعدة لتحمل الطعام اللاذع. أبي يقول دائماً إن الفلفل الحار مضاد طبيعي للاكتئاب...». وصمت قليلاً وبدأ عليه الحرج. «لا أقصد أنك مكتئبة، لكنني سمعت بإيقافك عن العمل. لماذا لم تتصلي بي؟».

«آسفة. لقد قضيت الأسبوع كله هنا، متوقعة أن يلومني الجميع».

«أبدًا، بل العكس هو الصحيح».

«أخبرني ستانلي بأمر إقبال الناس على الاستعارة».

«لم أر المكتبة بهذا الازدحام قط. لقد استعرت اثني عشر كتابًا باشتراك، رغم أن حرمانني من ترشيحاتك جعلني أنتقي الكتب عشوائيًا. بل إنني استعرت واحدًا من سلسلة بريدر جرتن».

ضحكت جون: «كم يسعدني قيام الناس بهذا. إذا تصاعدت معدلات الزوار والكتب الصادرة سيصعب على المجلس كثيرًا أن يغلق المكتبة». قال أليكس: «ليت الأمر بهذه البساطة».

«ماذا تعني؟».

«ما زالت هناك مسألة كوبا كوفي».

«لكن كيف للمجلس أن يبرر إغلاق المكتبة رغم وضوح الانتفاع منها؟».

قال أليكس: «سيجدون طريقة. لأن العملية الاستشارية في نهاية المطاف تتعلق بمحاولة المجلس لضغط الإنفاق، لا بشعبية المكتبة».

فأحسّت جون بإيجابيات اليوم كلها تتبَخَّر. «كم أتمنى لو أننا نعرف ما يدبره براين ومارجري بالاتفاق مع كوبا كوفي».

«ألا تعتقدين أن الوقت قد حان لمواجهة مارجري بالأمر صراحة؟».

هزت جون رأسها. «مستحيل أن تخبرني بشيء - لا بد وأنها تكرهني بعد الاعتصام. ثم إنني ممنوعة من دخول المكتبة، وليس من المعقول أن أذهب إلى بيتها».

قال أليكس: «إنني أود تقديم المساعدة، لكنني لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل».

أخذت جون ملعقة أخرى من الفاصوليا. «يا ربي، زفاف غايل!»، قالتها وهي تكاد تختنق بطعامها.

«لا يمكن أن تحضري ذلك الحفل، طبعاً؟».

«قد يكون فرصتي الوحيدة للتحدّث مع براين ومارجري».

بدا على أليكس التشكّك. «من المستبعد أن ينهارا ويعترفَا لك بأمر كهذا في حفل زفاف ابنتهما».

«كلا، لكن مارجري أخبرتني مرارًا وتكرارًا بأن المدعويين يضمّون زبدة المجتمع في دنغشاير. إذا ذهبت في المساء، وبعد تناول المدعويين لكأس أو اثنتين، فربما تفلت من أحدهم كلمة عن كوبا كوفي؟». لكن جون كانت تعرف سخافة الفكرة حتى وهي تنطق بها.

وكان أليكس يرقبها وعلى وجهه تعبير الإشفاق. «هل أنت واثقة من قدرتك على الذهاب، بعد ما حدث في حفل العزوبية؟».

فهل هي واثقة؟ سيكون أسهل عليها أن تواصل الاختباء في بيتها، من دون أن تغامر بشيء أو تتعرّض للمخاطرة. ثم أعلنت: «أجل، أنا واثقة. أحس بأنها فرصتي الأخيرة للقيام بشيء لإنقاذ المكتبة».

«متى موعد حفل الزفاف؟».

«بعد أسبوع من السبت القادم».

«طيب، سيسرّني أن أرافقك، إذا شئت بعض الدعم المعنوي؟».
فوجئت جون بالعرض لدرجة أنها حشت فمها بقطعة كبيرة من اللحم. وخلال ثوان انفجر المذاق الحار على لسانها مثل كرة النار، فأفلتت منها شهقة جعلت أليكس يجفل.

قال لها: «أعني، فقط إذا كنت تريدين. بصفة صديق يعني...». واحمرّ وجهه الآن، لكن جون كانت مشغولة عنه بتجرّع كوب الماء.
«عظيم، شكرًا لك»، قالت وهي تحاول منع لسانها من التدلي خارج فمها من فرط الألم.

«يحسن بي الآن أن أنصرف». ووقف أليكس واتجه إلى الباب.
«احترسي من هذا اللحم فبعض القطع حارة جدًا. والماء لن ينفعك، كلي بعض الأرز بدلًا منه».
«شكرًا».

«سأراك يوم السبت القادم».
«اتفقنا، وداعًا».

وصفقت جون الباب خلفه وهرعت إلى المطبخ وبدأت تحشو فمها بالأرز.

الفصل الثامن والعشرون

وقفت جون أمام المرأة تحدّق في صورتها. كانت قد اشترت الفستان، الذي وصفته البائعة بأنه «بني محروق»، في لحظة فزع أثناء رحلة تسوّق بالأمس. كانت عليه من الأمام نقشات بالأحمر والذهبي. في غرفة القياس انتاب جون الأمل في أن يبدو الفستان أنيقًا راقيًا. أما الآن، في ضوء غرفة نومها الذي لا يرحم، فقد أدركت أنها تشبه غلاف علبة للحلوى. جدلت شعرها في ضفيرة فرنسية ونزلت إلى الطابق السفلي. كان آلان بنيت جالسًا في الردهة وعلى وجهه ابتسامة سخرية. «هل شكلي سيئ لهذه الدرجة؟ أعرف أن الحذاء ليس أفضل...». ونزلت بعينيّها إلى حذاءها الأسود عالي الكعب، الذي انتعلته آخر مرّة في جنازة أمها.

ردًا على هذا، قام آلان بعلق مؤخرته.

في المطبخ سكبت جون كأسًا من النبيذ، ففوجئت بأنها قد شربت نصف زجاجة حتى الآن. لماذا قالت إنها ستحضر هذا الحفل الغبي؟ كانت فكرة التقابل مع مدعوّات حفل العزوبية قد حرمتها النوم طوال الليل. ومن المؤكد أنهن قد توصّلن الآن إلى أن جون هي التي استدرجت الراقص بعيدًا عن الحفل، ومن شأن هذا أن يثير ثائرتهنّ. الفكرة كلها فظيعة.

سمعت جون صوت سيارة تتوقف، فشربت آخر ما في كأس النبيذ وخطت إلى الخارج. كان أليكس يقف بجوار سيارته، وباب الراكب مفتوح ويمسك به في يده. كان قد استبدل بمظهره المعتاد، المكوّن

من تيشيرت وبنطلون جينز، بدلة رمادية أنيقة وربطة عنق زرقاء زاهية، وسرّح شعره المشعث إلى الخلف. لم يسبق لجون أن رآته بهذه الأناقة، وكانت تحسّ بالخجل تحت نظراته وهي تتقدم منه.

أثنى أليكس على مظهرها حين بلغت السيارة، فأحسّت جون بوجنتيّها تتضرّجان، وغمغمت له بالشكر وهي تحتلّ مقعد الراكب.

ثم تحركا بالسيارة في صمت، وكلاهما ينظر من الزجاج الأمامي. كانت جون تشعر بالدوار: لماذا تعرّض نفسها لهذا؟ هي لم تقرّر حتى الآن ماذا ستقول لبراين ومارجري. كانت تريد أن تسأل أليكس عن رأيه، لكنها كلما نظرت إليه تجد لسانها معقودًا.

وصل الاثنان إلى منزل مارجري وبراين، وتوقّف أليكس في حقل مخصص لوقوف السيارات. كان الضيوف المدعوون لقضاء اليوم كلّهم قد أوقفوا سياراتهم من مدة طويلة، فحوّلوا أرض الحقل العشبية إلى وحل سميك. وهكذا نزلت جون من السيارة فانغرس كعبها في الأرض. «آخ، النجدة!».

«أنت بخير؟». هرع أليكس إلى ناحيتها من السيارة. «إنني أغرق»، قالتها جون وهي تحسّ بحذائها ينفلت منها في الوحل. «دعيني أساعدك». وأمسك أليكس بذراعها برفق، لكنها كانت عالقة. قالت له وهي تذوب خجلًا: «سيكون عليك أن تشدّ بقوة أكبر». فأمسك بمرفقها وبدأ يشد. تمايلت جون لوهلة، ثم تحرّرت قدماها مع صوت شفط عال، وكادت أن تقع عليه. ساندتها أليكس وأخذ بيدها، وساعدها على عبور الوحل حتى الطريق. كانت جون تحاول أن تمنع نفسها من السقوط، لكنها كانت تشعر بقوة بحرارة كفه في كفها. حين بلغا الطريق كانت تتوقّع من أليكس أن يفلت يدها على الفور، لكنه لم يفعل. وأحسّت جون بمتعة التلامس، ثم تذكرت إيلي فشدت يدها من يده. وقالت: «انظر إلى حالتي»، وهي تنحدر بعينيّها إلى حذائها وكاحليها الملطّخين بالطين.

«لا تخافي أبداً، كنت من الكشافة ودائماً مستعداً». وبحركة استعراضية أخرج أليكس من جيبه منديلاً أبيض ثم انحنى وبدأ يمسح الطين عن قدميها.

فصاحت به: «لا تكن سخيّاً، أنا قادرة على هذا»، لكنه استمرّ. فأحست بشعور غريب وحميم من تنظيفه لقدميها، شعور جعلها تشتعل خجلاً.

قال أليكس وهو يعتدل واقفاً: «النتيجة ليست مثالية لكنها أفضل ما استطعت». واستطلع الاثنان قدميها وحذاءها بلونهم البني. «شكراً»، قالتها جون بصوت غريب الوقع. «هل ندخل؟».

انسابت نحوهما موسيقى من مصدر بعيد عند اقترابهما من المنزل جورجي الطراز. كانت الأسيجة النباتية المقلّمة تحف بممر السيارات المفروش بالحصى، أما الباب الأمامي فكان محروساً بعمودين.

«رجاء دخول الضيوف ليس من هنا». كان قد أسرع نحوهما رجل بسترّة عاكسة. «أنا آسف، الدخول من هنا للضيوف المهمّين فقط. أرجو أن تدورا حول جانب المنزل».

فدارا حول المنزل إلى الحديقة الخلفية، حيث ينتصب سرادق عملاق في منتصف مسطح النجيل. اقترب منهما أحد السقاة بصينية مشروبات، فأخذت جون كأس كوكتيل من النوع الفتّاك، وتناول أليكس كوباً من الماء. كان الضيوف يدورون حولهما على النجيل، يضحكون بالصخب المميز لأناس قضوا اليوم في الشرب.

قال أليكس وهو يتفقد المشهد: «يا ربي، انظري إلى هذا. كأنه مستوحى من غاتسبي العظيم، وأنا لا أقصد المديح».

ضحكت جون من الإشارة الأدبية، وأحسّت بتجدّد متعتها لوجودها هنا مع أليكس، في أكثر ثيابها أناقة، تشرب الكوكتيل. ثم تذكّرت سبب مجيئهما. «هلا ندخل السرادق للبحث عن براين ومارجري؟».

داخل الخيمة كان ما لا يقل عن عشرين مائدة مستديرة، تنوء كل منها بثقل مزهرية هائلة تحتوي على زنبق وردي. وكان بعض الضيوف الأكبر سنًا جالسين إلى الموائد، يزعمون بمحادثاتهم للتغلب على هدير الموسيقى. وفي الطرف البعيد حلبة رقص تحت كرة ديسكو عملاقة، مكتظة بالأجساد السكرانة المتمائلة على أنغام أغنية 'هيا يا آيلين'.

مسحت جون المكان بعينيها. «لا أرى أيًا منهما».

سألها أليكس: «وهل ترين أحدًا من أعضاء المجلس؟».

أوشكت جون أن تردّ بالنفي حين لمحت رجلًا على الجهة الأخرى من السرادق، منهمكًا في حديث مع امرأة أكبر سنًا. «يا ربي، إنه هو».

«من؟».

أعادت جون النظر للاطمئنان إلى إنها لم تخطئ، لكنه كان هو بغير شك: طويلًا، مربع الفك، بشعر فاتح الشقرة.

«إنه دراكو مالفوي».

لم يجب أليكس، وحين التفتت جون لتنظر إليه وجدته يحدّق فيها بنظرة استغراب. «حسنًا، أعتقد أنك ربما أفرطت في الشرب».

«ماذا؟».

«أتكلّم جدّيًا، إذا بدأت في رؤية أشرار من كتب الأطفال فعليك الاقتصار على الماء الليلة».

«كلا! دراكو هو الاسم الذي أطلقته على أحد الرجلين اللذين رأيتهما مع براين ليلة ذهابنا إلى 'التشيكرز'. وهو الذي كان يتكلّم عن المجلس وتشحيم العجلات».

«آه، فهمت. لكن لماذا يدعوانه إلى الزفاف؟».

«لعلّهما يحاولان إثارة إعجابه».

«لا أعتقد أننا تعارفنا». كانت المرأة التي تنكّرت في زي وندروومن في حفل عزوبية غايل قد حشرت نفسها بين جون وأليكس، ومدّت يدها إليه. «أنا إيزابيل».

«مرحبًا، أنا أليكس».

«تشرفنا يا أليكس. كيف تعرفت على العروس والعريس؟».

«أنا هنا مع جون».

فانتبهت إيزابيل إلى جون للمرة الأولى. «يسرني لقاءك».

وفاجأت جون نفسها حين قالت: «في الواقع، لقد التقينا من قبل».

«صحيح؟ لكنني لا أذكرك».

«كنا نجلس متجاورتين في حفل عزوبية غايل».

فتمهّلت إيزابيل محاولة أن تتذكر جون، ثم افترّ ثغرها عن ابتسامة.

«يا إلهي، أنت العذراء!».

وأطلقت ضحكة مجلجلة أجفلت منها جون. ثم نظرت إلى أليكس

فأرت نظرة ذهول تعلو وجهه، رغم أنه سارع إلى إخفائها.

قالت إيزابيل وهي لا تزال تضحك: «أنا مذهولة من حضورك بعد ما

حدث».

فأرغمت جون نفسها على الابتسام. «كنا نتساءل، من هذا؟».

وأشارت عبر الغرفة إلى حيث يقف دراكو مالفوي، وسط تجمع من

الرجال كلهم يقهقهون.

فسألت إيزابيل: «أيهم؟».

«الذي في المنتصف، هناك. صاحب الشعر فاتح الشقرة».

«هل تقصدان أنكما لا تعرفان من يكون؟». ونظرت إلى الاثنين

باستغراب. «هذا روب».

«من هو روب؟».

«روبرت، العريس. زوج غايل الجديد».

واحتاجت جون إلى بعض الوقت لتستوعب ما قالته إيزابيل. «هذا

زوج غايل؟».

فتجاهلتها إيزابيل ورمشت بعينيها لأليكس. «ألك في الرقص؟».

وهنا عاجلتها جون: « هل تعرفينه؟ هل تعرفين كيف يكسب زوج غايل عيشه؟ ».

نظرت إيزابيل إلى جون في ضيق. « يا له من سؤال غريب. أظن غايل يعمل في مجال الاستحواذات العقارية ». ثم عاودت الالتفات إلى أليكس. « لقد فرغ كأسك. جون، لماذا لا تكوني لطيفة وتحضري لنا كأسين؟ سنشرب الشمبانيا ».

بينما أليكس يفتح فمه للاعتراض، استدارت جون تحت تأثير الصدمة واتجهت إلى مائدة المشروبات، وذهنها يدور كالحلقة. إذا كان دراكو مالفوي هو زوج غايل، فهل يعني هذا أن حديثه في الحانة مع براين لا يزيد عن ثروة بريئة بين الرجل وزوج ابنته؟ إذا فلماذا تكلمنا عن المجلس وتشحيم العجلات؟ تناولت جون كأس كوكتيل جديد وأخذت منه جرعة طويلة، وهي تحاول تجميع قطع اللغز.

« ما هذا الذي على حذائك؟ ». أجفلت جون حين وجدت مارجري واقفة بجوارها.

« إنه طين، المَعذرة »، قالت جون وهي تحاول مسح الحذاء في مفرش المائدة الطويل من دون أن تلفت الأنظار.

قالت مارجري وهي تبدي الاستياء: « لا أصدق أن الجرأة وانتك للحضور بعد كل المشكلات التي سببتها في المكتبة. هل عندك أية فكرة عن المتاعب التي أوقعني فيها، ولا ينقصني سوى... ». وأشارت حولها إلى السرادق.

« إنه حفل جميل يا مارجري ».

« لقد أفسد عمال الديكور كل شيء. كان المفروض أن تزين أغطية المقاعد بشرائط وردية شاحبة، لكنهم زيتونها بهذه الوردية الفاقعة. واستاءت غايل حتى إنها كادت تلغي الحفل كله ».

نظرت جون إلى الفيونكات الصغيرة التي تشير إليها مارجري. « أعتقد بأنها بديعة الجمال ».

كانت عينا مارجري تجوبان السرادق، ولاحظت جون أنها تعتصر يديها.

أخذت رشفة أخرى من كأسها. لقد حانت اللحظة، ها هي فرصتها. «مارجري، هناك أمر أريد أن أسألك عنه».

«كلا كلا، ماذا يفعل المتعهد الآن؟». قالتها مارجري بينما قام اثنان من السقاة في زي أبيض بوضع صينية جبنه هائلة الحجم على المائدة المجاورة. «المفروض ألا يخرج الجبن قبل التاسعة، والساعة الآن الثامنة والنصف».

سألها جون: «في أي شركة يعمل زوج ابنتك؟». «لا أدري، شركة أمريكية للأغذية والأشربة. لماذا وضعوا الجبن هنا مع أن مكانه المائدة الخلفية؟ لماذا يجب على الجميع...». «هل هناك أية صلة بينه وبين كوبا كوفي؟».

«والعنب ينبغي أن يكون أخضر لا أحمر. يا ربي، هذه كارثة. يجب أن أكلّم مدير المتعهدين». وبدأت مارجري تبتعد لكن جون قبضت على ذراعها. فنظرت إليها رئيستها في دهشة. «ماذا تفعلين؟».

«مارجري...»، وتلعثمت جون. «هل أنت وبرايين متورطان في مخطط لإغلاق المكتبة؟».

«عم تتحدّثين بحق السماء؟».

«رأيت براين في الحانة مع روبرت، وأظنهما كانا يتكلّمان عن رشوة بعض أعضاء المجلس حتى يتسنى لشركة ما شراء المبنى. وقد ذكرنا اسمك».

«هذا هراء تام. خيالك جمع بك يا جون».

«لقد رأيتك تستعرضين المكتبة مع امرأة، كانت تحمل لوحًا مشبكًا عليه شارة كوبا كوفي». ورأت جون وجه مارجري يمتقع. «كيف طاوعك قلبك يا مارجري؟ كنت أظنك تحبين المكتبة».

ردت مارجري من بين أسنانها: «طبعًا أحب المكتبة. كنت دائمًا

تعيشين في الخيال والخرافات، لكن هذا أسخف شيء سمعته. المرأة التي استعرضت معها المبنى هي من الاستشاريين الإداريين». «فلماذا كان شعار كوبا كوفي على لوحها؟». «لا أدري - لعله كان هدية مجانية».

«ولماذا عادت لتزورك سرًا ذات صباح باكر قبل أن تفتح المكتبة. ما الذي تحاولين إخفاءه يا مارجري؟».

«اسمعي، لقد طلب مني براين إبقاء زيارات الاستشارية طي الكتمان لهذا السبب بالضبط، حتى لا ينساق الناس وراء نظريات المؤامرة الجنونية. والآن بعد إذنك، فهذا زفاف ابنتي». واستدارت مبتعدة.

فأخذت جون نفسًا عميقًا. «هل تحصلين أنت وبرائين على أموال من شركة روبرت في مقابل معاونتهم على شراء مبنى المكتبة وتحويله إلى فرع لكوبا كوفي؟».

فاستدارت مارجري وعلى وجهها نظرة استهوال. «لقد أصبحت فوق الاحتمال!». كان صوتها قد ارتفع، فالتفت عدد من الأشخاص للاستطلاع.

واتجه براين إليهما. «ما الذي يحدث هنا؟ الناس يحدّقون بكِ مارجري».

«جون توجه اتهامات غير معقولة. تقول إنك أنت وروبرت متورطان في مخطط مريب يتعلّق ببيع مبنى المكتبة. عقلي يقول لي أن أطردها لكنني لا أريد إثارة...». ثم توقفت مارجري عن الكلام حين رأت وجه براين ينقلب إلى حمرة البنجر.

وعندئذ قال لجون: «ما هذا الذي تردّدينه؟». فردّت جون: «لقد رأيتك مع روبرت في الحانة في شهر يوليو، وسمعت حواركما معًا».

فأطلق براين ضحكة صغيرة مغتصبة. «وإذا؟ رجل يشرب قدحًا من البيرة مع زوج ابنته المستقبلي، ليس في هذا مخالفة للقانون».

«كان معكما رجل ثالث، وقلت لهما إنك تملك القدرة على إقناع أعضاء المجلس. وتطرق الحديث إلى منحك المال».

سألته مارجري: «عم تتحدث يا براين؟».

وقالت جون: «كان الأمر يتعلق بالمكتبة، أليس كذلك؟».

فقال براين: «هذا كلام فارغ تمامًا».

كانت جون واعية بتوقف الناس من حولهم عن الحديث، وتسمّعهم للحوار، لكنها للمرة الأولى لم تكن مهتمة.

«وماذا عن المرأة التي أقنعت مارجري باستعراض المكتبة أمامها؟ إنها تعمل لحساب كوبا كوفي، أليس كذلك؟».

قالت مارجري وهي تمسك بذراع براين: «لقد قلت لي إنها استشارية إدارية». ومن نظرة وجهها عرفت جون أنها لا تدعي البراءة. «برائين، ما الذي يحدث بحق السماء؟».

فقال وهو ينفضها عنه: «اسكتي أنت يا عزيزتي. لن أظل واقفًا هنا لسماع هذه الأكاذيب. جون لا تملك دليلًا على أي شيء».

قالت مارجري وقد اتسعت عيناها: «يا ربي، تكاليف الزفاف!».

«عزيزتي، بالله عليك...». بدأ براين يتكلم ويمد يده إليها لكن مارجري ابتعدت عنه.

«لقد سألتك من أين أتيت بالمال الإضافي اللازم لكل هذا لكنك رفضت أن تخبرني. براين، ماذا فعلت؟».

فقال: «بحق السماء يا امرأة، ستقاعددين في الكريسماس - فماذا يهملك من المكتبة؟».

«كنت طول الوقت تقول لي أن أسترخي، وأنتك تعمل من وراء الستار لإنقاذ المكتبة. مع أنك أنت الذي يحاول إغلاقها!».

كان قد تجمّع الآن حشد كبير من المتفرجين، فخفض براين صوته لدرجة الفحيح.

«اسمعي، لا يمكنني التأثير في القرار الذي سيتخذه المجلس بشأن

المكتبة. لكن إذا أغلقوها واشترتها شركة روبرت فعلاً، فما الضرر في أن نستفيد من هذا، أنا وأنت؟». وهمّ بأن يحيط مارجري بذراعه، لكنها ارتدت إلى الخلف.

«ابتعد عني!». ولم تبذل مارجري أي جهد لخفض صوتها. فقال براين: «كيف كنت تتوقعين مني سداد تكاليف هذا كله؟ قلت إنك تريدان أكبر حفل زفاف شهدته تشالكوت. فهل عندك أية فكرة عن تكاليفه؟». بدت مارجري وكأنها تكافح لكتّم دموعها. «كنت أغض الطرف على مرّ السنوات. لكن هذا... ومكتبتني...».

«ماما، بابا، ما الذي يجري هنا؟». التفتوا جميعاً ليروا غايل تقترب، في ثوب زفافها الطويل المرصّع بالكريستال. كان روبرت يتبعها، بعينين مزمومتين. «إننا نسمعكم من كشك الحديقة». قال براين: «لا عليك يا حلوتي، مجرد خلاف بسيط». «ماما؟».

سألتها مارجري: «هل كنت تعرفين؟». «أعرف ماذا؟».

«بأمر هذا الاتفاق بين أبيك وروبرت، بشأن المكتبة». «ما هذا الذي تتكلمين عنه؟». وكانت الحيرة على وجه غايل توضح تماماً أنها بدورها لا تعرف أي شيء.

قال روبرت وهو يأخذ بذراع غايل ويحاول الابتعاد بها: «سنناقش هذا في ما بعد. أما الآن فأنا أريد الرقص مع عروسي».

«لقد دبّرت خطة لإغلاق المكتبة حتى تتمكن شركة روبرت من افتتاح مقهى في مكانها. وهذا كله...». وأشارت مارجري إلى ما حولها - «أنت تكاليفه من أموال قدرة أخذها أبوك من كوبا كوفي». فقالت غايل: «ماذا؟ بابا، أهذا صحيح؟».

قال براين: «اسمعي، دعينا نناقش كل هذا في الغد، اتفقنا؟ أعتقد بأن أمك انفعلت قليلاً، فقد كان اليوم شديد الإثارة لأعصابها».

هزت غايل رأسها موافقة، لكنها بقيت عابسة.

قال براين وهو يهز رأسه ويبدأ في الابتعاد: «هيا يا مارجري، كفي عن إثارة الضجة. إنها مجرد مكتبة صغيرة ولا داعي لأن...».

صاحت مارجري بقوة أوقفت الجميع في أماكنهم: «مكتبة صغيرة! لقد اشتغلت في تلك المكتبة الصغيرة ثلاثين عامًا، كرست حياتي لها. لكنك تستخفّ بها وكأنها لا تعني شيئًا. أيها الكذاب الغشاش...».

كانت جون تريد أن تستدير مبتعدة، كان الأمر يشبه التفرج على حادث سيارة بالحركة البطيئة. بدأت مارجري تتلقت حولها في هياج، ولم تبين جون ما الذي كانت تبحث عنه، حتى رأت عيني مارجري تقعان على صينية الجبنة العملاقة فوق المائدة المجاورة. مدت مارجري يدها ولوهلة ظنّت جون أنها ستخطف واحدة من سكاكين الجبنة. لكنها رفعت قرصًا من جبن البري الفرنسي، أضخم قرص رأت جون في حياتها، ثم استدارت عائدة وألقته بكل قوتها على رأس براين.

«توقفي!». خرجت الصيحة من جون ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان القرص الأبيض يطير في الهواء ويدور قبل الارتطام بوجه براين. ترنّج براين إلى الخلف وسقط على غايل، التي بدأت تسقط بدورها. فمدّ روبرت يده للإمساك بها، وتهاوى الثلاثة على أرضية السرادق. ثم أتت لحظة من الصمت المروع.

همس أليكس في أذن جون: «الأفضل أن نرحل». فلبثت جون برهة تحملق في المشهد الجاري أمامها: في غايل المكومة على الأرض بثوب من الحرير العاجي والدانتيل، ووجه براين الملطخ بالجبن، ومارجري التي ينتفض بدنّها كلّ من الغيظ.

فتحت جون فمها للتكلّم، لكنها أحست بأليكس يأخذ بذراعيها ويشدها للعودة وسط الزحام، فاستدارت وتبعته. وبينما كانت تبتعد سمعت غايل تصيح: «كيف تفعلان بي هذا؟ في يوم زفافني؟».

الفصل التاسع والعشرون

ابتعدت السيارة بهما عن الحفل بأقصى سرعة ممكنة، وهي تتخبط على الطريق الريفي فتفزع الأرانب البرية من أضوائها في الظلام. كان رأس جون يدور من الكحول الذي شربته، ويلحّ عليها شعور بالغثيان. لم تكن تقصد أبداً أن تثير فضيحة كهذه. مسكينة مارجري - إنها تخطط لهذا اليوم منذ سنوات، وها هي جون قد هدمته على رأسها.

«تلك المرأة هي رئيسك في العمل؟»، سألتها أليكس مع وصولهما إلى مشارف تشالكوت.

فأومأت جون بالإيجاب.

«يا الله، لم أكن أعرف أنها هي».

«ماذا تعني؟». أغمضت جون عينيها وأسندت رأسها إلى زجاج الشباك في محاولة لوقف الدوار. ما كان يجب أن تشرب كل ما شربته. «لعلك تذكرين أنني جئتكم خلال الاعتصام بوجبة جاهزة ولم تعرفوا من دفع ثمنها؟ لقد كانت هي».

«ماذا؟». فتحت جون عينيها ونظرت إلى أليكس. «مارجري هي التي طلبت الطعام؟».

«جاءت إلى المطعم بعد الظهر ودفعت نقداً. لم أتعرف عليها، فافترضت أنها واحدة من المحتجين».

ورفعت جون يديها إلى وجهها وصاحت: «مستحيل. كنت أظنها تخطط لتدمير المكتبة بينما كانت في الواقع تدعمنا سرّاً». توقفوا بالسيارة أمام منزل جون، فأطفأ أليكس المحرك. وقال لها: «هل أنت بخير؟ يبدو عليك الشحوب».

«لقد أفسدت حفل الزفاف».

«لم يكن ذنبك - براين هو المسؤول الأول».

«كما أنني أشعر بالغثيان».

عَلَّت وجه أليكس نظرة فزع. «دعيني أساعدك على النزول من السيارة».

هرع إليها وفتح الباب. حاولت أن تقف من دون مساعدة لكن الدوار غلبها، فتركت أليكس يسندها حتى الباب الأمامي. ثم فتشت في حقيبة يدها عن المفتاح، لكنها فشلت في إيجاده.

«عنك أنت، دعيني أحاول». وأخذ منها الحقيبة فأخرج المفتاح وفتح الباب. «هل أدخل معك لأناولك كوبًا من الماء؟».

«لا عليك، سأكون بخير». استندت جون إلى إطار الباب حتى لا تسقط. «آسفة، نسيت أن أكل».

«أنت متأكدة من أنك ستكونين بخير؟».

ورمق جون بنظرة حنان، أحسّت معها بأن أنفاسها تنحبس. ماذا كانت لتفعل لولا وجود أليكس معها الليلة؟ بل ماذا كانت لتفعل من دونه طوال الشهرين الماضيين؟ وتذكرت جون كلمات ستانلي أثناء الاعتصام، عن الفرص وانتهازها.

قال أليكس: «الأفضل أن أعود للبيت»، ومال على جون كي يعانقها مودّعًا، فتقدّمت منه بدورها، مما جعل شفاهما تتلامس، وأسنانهما تصطك. أمسكت جون بكتفيه للحفاظ على توازنهما، وأغمضت عينيها وانتظرت القبلة.

لكن شيئًا لم يحدث.

وحين فتحت عينيها كان أليكس يحدّق فيها بنظرة رعب مطلق.

«أنا... يجب أن أمضي»، قالها وهو يتراجع عنها.

«أليكس...».

«سأراك قريبًا».

ثم بلغ باب السيارة، وفتحها وقفز بداخلها. سمعت جون هدير المحرك وابتعاد السيارة، فوقفت على عتبة الباب ترقبه وهو يرحل. وحين بلغ الناصية واختفى عن ناظرها، انحنت جون وتقيأت في حوض الزهور.

فتحت جون عينيها ثم عاودت إغماضهما. كانت ترقد في ظلام متعمّد وتجري في ذهنها تقييماً للخسائر، ورأسها ينبض وفمها مليء بمذاق حمضي. مدّت يدها فأحسّت بقماشة فستانها، مما يعني أنها غابت عن الوعي بكامل ثيابها. كانت شذرات من ليلة أمس تدور في عقلها: صياح مارجري، نظرة وجه غايل، قرص الجبنة الطائر في الهواء. فدفنت رأسها في المخدة، وبقيت على رقادها حتى غلبها نداء الطبيعة واضطرت للقيام.

نظرت إلى نفسها في مرآة الحمام: الماسكارا سائلة حول عينيها، وجلدها شاحب شحوب الموت. ابتلعت قرصين من المسكنات وعادت إلى غرفة النوم، فمرّت على آلان بنيت في الردهة. سألته: «ما هذا الذي فعلته؟»، لكنه أغمض عينيّه وتظاهر بالنوم. فعادت جون إلى فراشها وشدّت اللحاف فوق رأسها.

عند استيقاظها ثانية كان الصداع قد انحسر. مدّت يدها إلى الهاتف لتعرف الوقت، فرأت أربعة مكالمات لم يُرد عليها من أليكس. وحين رأت اسمه ومضت الذكرى أمام عينيها -محاولتها الثملة لتقبيله، ونظرة الرعب في عينيّه وهو يتراجع- فأحسّت بالخجل يلسع بدنّها كله. كيف كانت بهذا الغباء؟ ستانلي مخطئ من دون شك - من الواضح أن أليكس لا يكرّ لها أية مشاعر. ثم إن عنده حبيبة، بحق السماء! ألقت جون بالهاتف على الأرض وأغمضت عينيها، لكن صورة وجه المرتعب لم تمنح من مخيلتها.

ظَلَّت جون تنعس وتصحو ما بقي من اليوم، تستيقظ راضية بجهلها،

ثم تتذكر فيرتد الألم طوفاناً. ماذا حدث في حفل الزفاف بعد انصرافها؟ هل قضى غايل وروبرت بقية الأمسية في نعيم العروستين الجديدتين؟ أم انتهى بهما الأمر إلى شجار عنيف، فيه صراخ ودموع وانصراف مبكر للضيوف، مع أقاويل متناثرة بأصوات هامسة عن أسوأ زفاف حضروه في حياتهم؟ وماذا عن مارجري المسكينة؟ كانت جون قد قضت كل تلك الفترة مقتنعة بضلوع المرأة في تدمير المكتبة، بينما كانت رئيستها جاهلة تمامًا بما يفعله زوجها. وضعت جون رأسها تحت المائدة وأرغمت نفسها على العودة إلى النوم.

أيقظها صوت جرس الباب. كان الظلام سائداً وما من نور إلا المتسرب من عمود الإنارة خارج نافذة غرفتها. فمن تراه جاء يزورها في هذه الساعة من الليل؟ تقلبت جون في الفراش وفتحت عينيها، لكن ها هو الرنين يعود بإلحاح. مدت يدها إلى الهاتف حيث ألقته تحت السرير في الصباح، فوجدت ستة مكالمات لم يُرد عليها من أليكس، ورسالة نصية واحدة. أرجوك أن تتصلي. قامت جون وقلبها يغوص في صدرها، فشدت عليها الروب دي شامبر وأسهرت إلى الطابق السفلي، وفتحت الباب لتجد أليكس واقفاً على الدرجة الأمامية.

اندفعت جون تقول قبل أن يتمكن من النطق. «أنا آسفة، لم يكن عليّ أن أحاول تقبيلك».

«جون...».

«أشعر بحرج لا يوصف. لم أكن مدركة لما أفعله، فأنا أعرف أنك لا تنظر لي هذه النظرة».

«جون...».

«أرجوك، هل يمكن أن ننسى الأمر كأنه لم يحدث؟».

«جون، إنه ستانلي».

«ماذا عنه؟».

«أنا آسف جداً. ستانلي... لقد مات».

الفصل الثلاثون

جلس الاثنان إلى منضدة المطبخ، يشربان الشاي المحلى بالسكر، بينما تستمع جون إلى ما يقوله أليكس. عثر عليه رجل ينزّه كلبه في مقطوره. حدثت الوفاة منذ يومين بحسب الشرطة. وبزغت في ذهن جون صورة لستانلي يرقد وحيداً في سريره المفرد الضيق، ينتظر الاكتشاف، فكان عليها أن تضع يدها على فمها لمنع شهقات البكاء من الإفلات.

قال أليكس: «جاء المفتش باركس إلى المطعم لإبلاغي. سيقومون بالتشريح لكنهم لا يتوقعون وجود أسباب جنائية». ارتعدت جون وشدت الروب حول كتفها. «كان يجب أن أدرك أنه مريض. كان يجب أن أكون صديقة أفضل». «ما كان بوسعك أن تفعلي شيئاً».

«هذا غير صحيح». ونظرت إلى أليكس. «كنت أعرف أنه يعيش وحيداً في تلك المقطورة. عرفت هذا بعد الاعتصام، لكنني انشغلت بمشكلاتي فلم أفعل شيئاً. لو كنت اتصلت بالخدمات الاجتماعية أو...».

فقاطعها أليكس: «جون، كفى. لا يصح أن تكوني قاسية على نفسك هكذا. أنا أيضاً كنت أعرف بظروفه المعيشية». «كنت تعرف؟».

ورأته جون يتململ في جلسته. «عرفت منذ بعض الوقت، لكن ستانلي انتزع مني وعداً بالآ أخبر أحداً».

سألته جون: «لكنني لا أفهم، كيف عرفت؟». لكن أليكس كان شاردًا في أفكاره فلم يرد.

وجلسا في صمت لبضع دقائق.

ثم قالت جون: «لقد خذلناه. ما كان يجب أن يعيش بتلك الطريقة».

«أعتقد بأنه كان سعيدًا هناك. والمكتبة كانت بيته الثاني».

بدأت الدموع تنحدر على وجنة جون. «يجب أن أنقذ المكتبة. لقد

كرّس ستانلي كل شيء للنضال من أجلها، ولن أخذه مرة أخرى».

مدّ أليكس يده عبر المنضدة وأراحها فوق يدها. أحسّت جون بنفحة

من الدفء فتركها تحت يده برهة، في أمان ودعة، ثم تذكرت هروبه

المذعور ليلة أمس فسحبته.

«تأخر الوقت ويجب أن تستريحى». وهمّ أليكس بالوقوف فأصدر

كرسيه صريرًا مزعجًا على الأرض، أجفلت منه جون.

«شكرًا على حضورك لإبلاغي بالخبر شخصيًا، أنا ممتنة». كانت

تعرف أن عليها مرافقته حتى الباب، لكن طاقتها لم تسعفها.

توقّف أليكس عند باب المطبخ. «كدت أنسى». ومدّ يده داخل

حقيبته فأخرج كتابًا عاد ووضعه على المنضدة. ورأت جون أنه المنزل

الواقع على ناصية الدببة. «أعطاني باركس هذا. قال إنهم وجدوه بجوار

سرير ستانلي، وهو ملك المكتبة».

في الصباح التالي غادرت جون بيتها في العاشرة. كان هناك مكان

واحد تريد التواجد فيه اليوم، رغم أنه كان ممنوع عليها دخوله.

أثناء سيرها نحو المكتبة، وبرج الساعة القديم يرتفع فوق شارع باراد،

أحسّت جون بموجة من الانفعال تغمرها. تذكرت اقترابها من المبنى

في طفولتها، وهي تمسك بيد أمها وتشعر بالترقب لروائع القصص

والمغامرات التي ستجدها في الداخل. وتذكرت الأيام التي بلا عدد

التي كانت تقطع فيها هذا الطريق متجهة إلى عملها، حين كانت المكتبة عزاءها وسلوها، وملاذها الآمن. أما اليوم فلم تكن تشعر بشيء سوى الحزن الغامر. لن تعود بعد اليوم لتفتح الباب الأمامي فتجد ستانلي ينتظرها، مبتسمًا ومنطلقًا في الحديث عن حالة الجو. لن تعود بعد اليوم لتثرثر معه وهي تعيد المرتجعات إلى الأرفف، أو تساعده في الكلمات المتقاطعة.

كانت شانتال أول من لمح جون عند دخولها المكتبة. فسألها بعينين محمرّتين من البكاء: «هل سمعت؟ كان ستانلي هنا يوم الخميس، يكلمنا عن أص مك تش والحملة، كان جالسًا هناك...».

فتبعت جون نظرة شانتال إلى مقعد ستانلي الدائم. كان المقعد خاليًا اليوم، رغم أن أحدهم قد وضع عليه نسخة مطوية بعناية من جريدة التلغراف.

«سمعت أنهم وجدوه في مقطورة على حافة القرية، من دون تدفئة أو كهرباء. هل تصدّقين؟».

فقالت جون بحذر: «كان حريضًا على خصوصيته».

ردت شانتال بعينين تلمع فيهما الدموع: «كان مثل جدي».

سمعت جون صوتًا مألوفًا إلى يسارها فاستدارت لترى مارجري تخرج من مكتبها. تأهبت جون لمواجهة العاصفة، لكن مارجري منحتها ابتسامة واهنة حين رأتها.

بدأت جون في الكلام: «لقد سمعت عن ستانلي...».

قالت مارجري: «طبعًا، ووجودك هنا طبيعي تمامًا».

سألت شانتال: «كيف سار زفاف ابنتك؟».

زمت مارجري شفيتها. «كان رائعًا، شكرًا لك».

«انتهيت من هذا ووجدته سبّة في جبين الأدب. لا أدري لماذا يُقبل أحد على قراءة هذا الهراء».

فالتفتن ليرين مسز ب. تندفع عبر الباب وهي تلوح بنسخة من هاملت. لكنها توقفت حين رأت وقوفهن متلاصقات. «ما الذي يحدث؟ أهناك خبر من المجلس؟».

لم يتكلم أحد، فتطوّعت جون بنقل الخبر. «أخشى أن عندي خبرًا سيئًا يا مسز برانزورث. لقد توفي ستانلي».

ورأتها جون تشهق.

«هل كان هنا؟».

«كلا».

«مات وحيدًا؟».

فأومأت جون برأسها إيجابًا، وأغمضت مسز ب. عينيها. وحين فتحتهما كانت فيهما نظرة تصميم. «لعلكن تعرفن ما يجب علينا فعله الآن».

قالت جون: «لم يزل هناك أسبوعان باقيان من العملية الاستشارية. أعتقد بأن علينا تنظيم احتجاج أمام مبنى البلدية، ومحاولة إشراك الكثيرين من الشباب هذه المرة. وربما يمكن أيضًا الدعوة إلى إضراب في المدارس؟».

فقالت شانتال: «سأرسل الرسائل إلى أصدقائي الجامعيين».

«لا أعتقد بأن هذا سيفيد كثيرًا». وعندها نظرن إلى مارجري، التي كانت بدورها تحدّق في جون. «كنت على حق يا جون. أخيرًا اعترف براين بكل شيء يوم أمس، لكن بعد تهديدي بتركه».

فعبست مسز ب. «عم تتكلّمان؟».

قالت مارجري: «أخشى أن الأمور كانت مشبوهة. هناك سلسلة مقاهٍ وضعت عينها على المكتبة، ودفعوا لزوجي كي يساعدهم. قدّموا عرضًا ماليًا شديد السخاء في مقابل المبنى، ومن المستحيل أن يرفضه المجلس».

فصاحت مسز ب.: «يا أولاد الحرام! أنت وزوجك الملعون...». قاطعتها جون: «ليس لمارجري أي دخل بالأمر، لقد فوجئت به مثلنا جميعاً».

تساءلت شانتال: «إذا كانت الصفقة مشبوهة فلماذا لا نلجأ للشرطة؟». فقالت مارجري: «لست متأكدة من إمكانية حصولنا على دليل. كانوا في منتهى الحرص، لا توجد رسائل إلكترونية ولا إثباتات على أي محادثات. يبدو أن زوجي أذكي مما توقعت».

ردّت جون: «لكنه اعترف أمامك».

قالت مارجري: «سينكر كل شيء. مع أنني لن أهتم إذا قبضوا عليه وألقوا به في السجن. لقد نلت كفايتي من ذلك الرجل وأكاذيبه».

«مارجري...». كانت جون تتلهّف على الاعتذار عما حدث في حفل الزفاف، لكن مارجري كانت قد استدارت مبتعدة.

قالت شانتال: «يجب أن نبلغ الشرطة بهذه المعلومات. لن نتركهم يفلتون بشيء كهذا».

«معك حق يا شانتال، لكن هذا لا يكفي لإنقاذ المكتبة». وهزت مسز ب. رأسها. «هذه الأمور تحتاج إلى شهور من التحقيقات، وعندها سيكون المجلس قد اتخذ قراره بشأن المكتبة. حتى إذا خسرتها شركة المقاهي، فسوف يشتريها غيرها».

قالت شانتال: «ما معنى هذا؟ أن نستسلم وينتهي الأمر؟ بعد كل ما فعلناه، سندير الآن ظهورنا؟».

قالت جون: «علينا حضور اجتماع المجلس للتصويت على المكتبة. كان هذا اقتراح ستانلي، فعلينا إذاً أن نذهب ونجبرهم على سماع صوتنا. إنه أملنا الأخير».

قضت جون بقية الصباح في المكتبة. كانت قد حُظرت من النفاذ

إلى شبكة الإنترنت، لكنها شغلت نفسها باستفسارات الزوار وترتيب الأرفف، فساعدت امرأة في طلب الإعانة الشاملة على الإنترنت، وعند دخول صبي يعاني من عسر القراءة، ساعدته جون في اختيار الكتب. كانت سعيدة بعودتها إلى هنا وسط الأرفف والناس، والعمل من أجل غاية محدّدة. لكنها بين الحين والآخر كانت تسمع شخصاً يدخل من الباب، يجزّ قدميه أو يصفرّ، فترفع عينها متوقّعة أن ترى ستانلي ووجهه الباسم. ثم تتذكّر فتحسّ بالفقدان من جديد.

أغلقت المكتبة أبوابها في الواحدة ظهرًا، ووجدت جون نفسها وحيدة في المبنى مع مارجري. بينما أنجزت رئيستها بعض الأعمال الورقية في المكتب، كانت جون تجلس إلى أحد الحواسيب المخصّصة للجمهور، حيث قضى ستانلي ساعات طوال. فتحت المتصفح ورقنت فيه عنوانًا إلكترونيًا، ثم تمهلت حين طلبت منها كلمة المرور. أهنأك مخالفة للقانون في الولوج إلى حساب البريد الإلكتروني الخاص بشخص آخر؟ كان ستانلي قد أطلعها على كلمة مروره مرات عديدة، أي إنها لا تحاول الاختراق. حامت أصابع جون فوق لوحة المفاتيح، ثم طبعت كلمة المرور.

كان صندوق الوارد خاليًا، ليس فيه رسالة واحدة. نظرت جون على صندوق الصادر فخرجت بالنتيجة نفسها. لكنها نظرت على مجلد المسودات فامتلأت الشاشة فجأة بعشرات الرسائل، إن لم تكن مئات. وكلها موجهة إلى عنوان إلكتروني واحد، بمواضيع من قبيل 'تحياتي من إنجلترا الممطرة' و'مستجدات معركة المكتبة'. احتاجت جون لحظة حتى تدرك ما أمامها، وحين فعلت أوجعها قلبها.

كان ستانلي قد كتب كل هذه الرسائل إلى ابنه، لكن الشجاعة لم تواته لإرسالها.

وكانت أحدثها من يوم الخميس الماضي، قبل أربعة أيام. لا بد وأنه

كان آخر يوم لستانلي في المكتبة. حامت جون بالمؤشر فوق الرسالة. كانت تريد قراءة كلمات صديقها، وسماع صوته مرة أخرى. كيف كان يشعر؟ هل كان مريضاً؟ هل كان سعيداً؟

حملت جون في صندوق البريد برهة أخرى، ثم كتبت شيئاً ما في عجلة وأغلقت الحاسوب. ليست هذه رسائلها حتى تقرأها.

في ذلك المساء، فكرت جون في إعداد المكرونة بصلصة البيستو لعشائها، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة واتجهت إلى 'التنين الذهبي'. كان جورج يقف خلف النضد عند دخولها.

«طلبك المعتاد؟».

«مرحباً يا جورج. من فضلك، أريد بعض الباذنجان بأريج السمك، والأرز على البخار، والفاصوليا الخضراء بلحم الخنزير والفلفل الحار». نظر إليها مذهولاً، بحاجب مرفوع، ثم استدار إلى داخل المطبخ. وظهر أليكس بعد لحظة.

«رأيت الطلب فقدّرت أنه طلبك. كيف حالك؟».

«لا بأس. ذهبت إلى المكتبة صباح اليوم».

«وكيف وجدتتها؟».

«فضيحة... ومبهجة. هل تعتقد بأن علينا إقامة جنازة لستانلي؟ لا أعتقد أن أحداً غيرنا سيهتم».

«أعتقد بأن محامية ستانلي تكفلت بالأمر».

«ستانلي كان عنده محامية؟». لم تستطع جون إخفاء دهشتها.

«لقد تكلمت معها، ويبدو أن أقرب أقربائه في البلد هي أخته، لهذا

فهم يحاولون الوصول إليها قبل ترتيب أي شيء».

كانت جون تكره فكرة بقاء جثمان ستانلي وحيداً في المشرحة. «لا

بدّ له من وداع لائق».

وقف الاثنان في صمت.

ثم قال أليكس: «جون، يجب أن أخبرك بشيء».

فتأملت جون نضد الفورمايكا. أترأه سيتكلم عن محاولتها المهينة لتقبيله بعد حفل الزفاف؟ أم سيعترف لها أخيرًا بأمر حبيبته؟ سواء أكان هذا أم ذاك فهو آخر شيء تريد التكلم فيه الآن.

قال أليكس: «كنت أريد مفاتحتك منذ بعض الوقت، لكن الفرصة لم تسنح لي في خضم ما حدث».

«أرجوك، لا داعي لأن تقول أي شيء».

«لكنني لا أريد أن تعرفي من شخص آخر. أنا...».

«يبدو أنك بخير يا جورج»، قالتها جون لما رأت والد أليكس يخرج من المطبخ وفي يده كيسها. «كيف حال المفصل؟».

ردّ جورج: «إنه بخير، ولذا فأنا لا أعرف سرّ بقاء أليكس هنا. إنني ألحّ عليه أن يعود إلى لندن».

«بابا...».

«قال الطبيب إن المفصل التأم، فلماذا تحوم حولي هنا وتعرقل حركتي؟». وضرب ابنه ضربة خفيفة، لا تخلو من الحنان.

قالت جون: «كم يبلغ الحساب؟». وهي تفتش في حقيبتها عن محفظة نقودها.

«تسعة جنيهات وخمسون بنسًا».

فناولته جون ورقة بعشرة جنيهات واختطففت طعامها وفرت من المطعم قبل أن ينطق أليكس بكلمة أخرى.

وظلت جون تتجنب أليكس والمطعم بقية الأسبوع. كما ابتعدت عن المكتبة أيضًا. ثم تلقت رسالة إلكترونية من المجلس يوم الجمعة، لكنها فتحتها فوجدت كلمة مقتضبة من مسؤول شؤون العاملين، لتذكيرها

بشروط إيقافها عن العمل. قالت الرسالة إن التحقيق في الاعتصام ما زال جاريًا وأنهم سيبلغونها بنتيجته في الوقت المناسب.

في ذلك المساء كانت تسير نحو متجر القرية لشراء عشاءها حين سمعت من ينادي باسمها من الجهة الأخرى من الطريق. وكانت مسرّ برانزورث، تلوّح بذراعيها فوق رأسها.

وبعد أن عبرت الطريق إلى جون، متجاهلة السيارات التي تصرّ مكابحها من خلفها، قالت: «كنت أبحث عنكِ طوال الأسبوع. أين كنتِ بحق الجحيم؟».

«أوه، كنت موجودة هنا وهناك». في حقيقة الأمر، لم تغادر جون منزلها. كانت مشغولة بقراءة حياة صغيرة، الأمر الذي لم يساعد على تحسين حالتها المزاجية.

«لقد حددوا موعدًا لجنازة ستانلي. قال لي أليكس من المطعم الصيني إنه يوم الرابع والعشرين الموافق للجمعة، في الثانية عصرًا بمحرقة ونتين».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لكن هذا موعد اجتماع المجلس».

«أعرف هذا».

«وماذا سنفعل؟».

«سالتُ أليكس إن كان تغيير الموعد ممكنًا لكنه لا يتوقع ذلك. يبدو

أن شقيقة ستانلي ستأتي ليوم واحد فقط».

«لا يمكنني تفويت جنازة ستانلي».

«ستانلي ميت داخل صندوق، لن يتأثر».

أجفلت جون. فأكملت مسرّب: «لكن عليك أن تفعلي ما تريه

صحيحًا».

ثم استدارت عائدة عبر الشارع، والسائقون يعترضون مشيرين لها بأيديهم.

الفصل الحادي والثلاثون

وقفت جون أمام المبنى الحجري، بارتفاعه المهيّب، ونظرت إلى السماء. كانت سحب رمادية قد تجمّعت، تنذر بالمطر، وهي قد نسيت مظلّتها. نظرت حولها لترى إن كان هناك من حضر سواها، لكنها لم تر أحداً. قضي الأمر إذاً - ستضطر للمضي قدماً وحدها. نظرت جون في ساعتها، فوجدت أنها الواحدة والربع. حاولت أن تتجاهل اضطراب معدتها وسارت إلى الداخل.

كانت جون قد دخلت هذه القاعة مرّة واحدة من قبل، منذ سنوات ثمانٍ، وكانت بالضبط كما تذكرها. التجليد الخشبي على الحيطان، ورائحة الورنيش الشمعي، والصمت الرتيب الثقيل. لكن بينما كانت القاعة مكتظة بالحضور في المرة الأخيرة، مقاعدها كلّها مشغولة وهناك من يقفون بحذاء الجدران، كانت اليوم مهجورة. ها هو تابوت ستانلي، فوق نفس المنصة في الصدارة، لكن بينما كان تابوت أمها مكسوّاً بزهور زاهية الألوان، كان تابوت ستانلي عاريّاً تماماً. لا زهور ولا صور، ولا دليل على الشخص الراقد في الداخل.

ذرعت جون الممر الأوسط وهي تحاول التحكم في أنفاسها. ثم رأت شخصية ضعيفة الحجم في الصف الأمامي، ساكنة الحركة إلى درجة أنها لم تلاحظها في البداية. كانت المرأة رمادية الشعر، تجلس في وضع شديد الاستقامة، وظهرها إلى جون. لا بد وأنها أخت ستانلي.

«المعذرة؟». تردد صدى صوت جون حول القاعة الباردة.

التفتت المرأة لتنظر إليها. كانت طاعنة في السن، في الثمانينات على

الأقل، ترتدي بدلة صوف زرقاء عتيقة الطراز، مع بلوزة مزرّرة حتى عنقها، ويدها الشاحبتان المغضّبتان معقودتان في حجرها.

«أنا جون جونز، صديقة ستانلي. أحرّ التعزّيات في مُصّابك».

نظرت المرأة إلى جون بعينين رماديتين دامعتين، ثم استدارت تنظر إلى الأمام من دون كلمة. ولم تدرِ جون ماذا تفعل، فجلست في صف على الجهة الأخرى من الممر. جلّست الاثنتان في صمت، لا يقطعه إلا تكتكة ساعة حائط في خلفية القاعة، تحصي الثواني الأليمة كأنها ضابط إيقاع. حاولت جون أن تضبط أنفاسها على إيقاع الساعة، مقاومة منها لرغبة غلّابة في الاستدارة للفرار من هنا.

«مرحبًا».

أجفلت جون. كان أليكس يقف في الممر، مرتديًا بدلته وربطة عنق سوداء.

«أنت هنا».

«بالطبع»، قال وهو يجلس بجوارها.

على مدار الدقائق التالية، تسرّب إلى القاعة عدد من الناس، فتعرّفت جون على امرأة من جماعة التريكو والثروة، وعلى أسرتين من أسر قاعة الأطفال، وشخص أو اثنين من أيام الاعتصام في المكتبة. في النهاية دخل رجل من باب جانبي وسار إلى شقيقة ستانلي. كانت في يده ورقة مفردة.

سألها: «هؤلاء هم كل الحضور؟»، فأومأت العجوز بالإيجاب، ومضى الرجل إلى المقرأة بجوار التابوت. «سيداتي سادتي، أنا غاي ويلسن، مسؤول المراسم بجنّازة اليوم على روح ستانلي فيليبس. قبل أن أبدأ، أرجو تحويل جميع الهواتف المحمولة للوضع الصامت، و...».

اصطفق الباب في خلفية القاعة. «آسفون. إنها زحمة السير الملعونة».

التفت جون لترى مسز برانزورث تخترق الممر، وفي أعقابها شانتال وفيرا وجاكسون.

همست جون لمسز ب. وهي تتخذ مقعدها: «كنت أظنّك لن تأتي؟».

«رغم أن الأحقق الراحل لن يعرف بوجودي هنا، إلا أنني قررت أنني أريد توديعه».

وقال جاكسون وهو يجلس على الجهة الأخرى من جون: «جدّتي ليندا قامت بتوصيلنا. وقالت إنك ستعتنين بي يا جون».

قالت فيرا: «تري هل سيكون هناك بوفيه في ما بعد؟».

فسعل مسؤول المراسم. «تمام، إذا كان الحضور قد اكتمل فسوف نبدأ».

استهل الرجل بكلمات قليلة عن المراسم وعن أن شقيقة الراحل طلبت عدم وجود موسيقى. ثم تبعها بخطبة قصيرة عن ستانلي: المعلومات الشخصية، تاريخ ومحل الميلاد، أبواه وشقيقته. وقال إن ستانلي اشتغل كمحاسب قانوني لسنوات عديدة، ومات بنزيف دماغي. لم يكن هناك أي ذكر لكيتي أو مارك، أو أي شيء يتعلق بالمكتبة. فلم تتعرف جون على الرجل الجاري وصفه.

«ثم ختم: «أهناك من يريد رثاء ستانلي بوضع كلمات؟». نظر المسؤول إلى شقيقة ستانلي، التي جلست بلا حراك طيلة الوقت، فهزّت رأسها بجمود.

«أي شخص آخر؟».

ونظر إلى الحضور القلائل. ففكرت جون في كل ما كانت تريد أن تقوله عن ستانلي، عن الرجل الرائع الذي كانه، والصديق الودود الذي عرفته. كانت تريد أن تشكره على كل ما فعله، لا للمكتبة وحدها، بل لها هي شخصيًا. وكانت جون تشعر بعين أليكس عليها، ويتنظر. ثم مدّت بصرها إلى شقيقة ستانلي، التي كانت تنظر أمامها، متصلة كأنها من خشب.

همس لها أليكس: «أنت بخير؟».

فنظرت جون إلى يديها ورأتهما ترتعشان في حجرها. بل إن جسمها كله، في واقع الأمر، كان يرتعش، فيجعل أسنانها تصطك. لكنها أغمضت عينيها وأرغمت نفسها على أن تهدأ.

«لا بدّ من ذلك».

فتحت جون عينيها لترى مسز برانزورث تتجه إلى صدارة القاعة، ثم تتوقّف عند بلوغ المقرأة، لتأخذ نفساً عميقاً.

«لست من هواة الخطب، ولذا سأختصر في كلامي. لكن ستانلي يستحق أكثر من هذه المراسم المثيرة للرثاء». أثناء كلماتها هذه نظرت مسز ب. إلى شقيقة ستانلي، ولم تكن جون ترى وجه المرأة لكنها رأت كتفيها تتصلبان.

«لقد عرفت ستانلي طيلة خمسة عشر عامًا تقريبًا، لكنني بصراحة لم أكن أعيره كبير اهتمام. كان يبدو لي دائمًا مفرط البرجوازية، ببذله التويد وقرأته لتلك الصحيفة المحافظة الحقيرة. لكن من الواضح أن الكتاب لا يبين من عنوانه».

«لقد أثبت الحمل الوديع ستانلي فيليبس، في الشهور الأخيرة، أنه أسد هصور. أنه رجل يدافع عما يؤمن به، ويعرّض نفسه للاحتجاز بسبب قناعاته. وأنه رفيق حقيقي، ناضل حتى النفس الأخير لحماية ما يعرف أنه مهم، لا بالنسبة له وحده، بل للجميع».

وهنا تهدّج صوت مسز ب. فسعلت لكي تتنحّج.
«إذا تعلمنا درسًا واحدًا من حياة ستانلي، فهو أن الأوان لا يفوت أبدًا حتى تجد صوتك الخاص، وتقف لتطلقه عاليًا ضد الظلم. لأنه لو حظي كل منا بقدر ولو ضئيل من شجاعة ستانلي وإنسانيته، لصار عالمنا هذا مكانًا أفضل بكثير».

كفت مسز ب. عن الكلام، فأرادت جون أن تصفّق بقوة. لكن أوقفها صوت صرير، ورأت شقيقة ستانلي تقف مستندة إلى عكازها. قفز أليكس من مكانه وحاول أن يساعدها، لكن المرأة نفضته عنها بلا كلمة واحدة. والتفت الجميع ينظرون إليها وهي تستدير وتمضي بخطى السلحفاة، من دون أن تنظر إلى واحد منهم. حين بلغت باب القاعة فتحتة وخرجت وتركته يصطفق خلفها، وصدى صوته يتردّد بين جنبات القاعة الصامتة، كالطلق الناري.

الفصل الثاني والثلاثون

لزمت جون مقعدها حتى انصرف الجميع، ثم تقدّمت من التابوت. لمسته بيدها فأحست بخشونة الخشب تحت أطراف أصابعها. همست: «وداعًا يا ستانلي. آسفة لأنني لم أتكلم اليوم، لكنني أشكرك».

مدّت يدها داخل حقيبتها وأخرجت نسخة المكتبة من المنزل الواقع على ناصية الدببة، التي كان ستانلي يقرأها. نظرت إلى غلافها القديم حائل اللون، والواقى البلاستيكي المصفرّ المشقّق، ووضعت الكتاب فوق التابوت، حيث كان ينبغي وجود الزهور.

في الخارج كانت مسز ب. وفيرا وشانتال وجاكسون وأليكس ينتظرونها في سيارة أجرة سوداء، تكثف البخار على نوافذها تحت المطر الغزير.

قالت مسز ب. عند ركوب جون: «شقيقته اختفت. امرأة كئيبة كالخفّاش».

قالت فيرا: «أرجو أن تكون جنازتي أطول من ذلك». قال أليكس عند انطلاق السيارة: «خطر لنا أن نذهب إلى 'المحراث' لشرب كأس في ذكرى المرحوم».

كانت جون تحدّق من النافذة المخطّطة بالمطر عند وصولهم إلى الميدان، والخروج منه عائدين إلى تشالكوت. هذا كل ما هنالك إذًا. لقد ودعت ستانلي ولم يعد بيدها الآن سوى أن تجلس وتنتظر قرار المجلس في اجتماعه، بلا حول ولا قوة كما كانت دائمًا.

إلا إذا...

«أوقف التاكسي!».

«ماذا هنالك؟»، قالها أليكس بينما التفت الجميع للنظر إلى جون.
«ربما تجدونها فكرة مجنونة، لكن إذا أسرعنا، هل نستطيع اللحاق
باجتماع المجلس قبل التصويت؟».

قالت فيرا: «لقد بدأ منذ نصف ساعة ولا يمكن أن يسمحوا لنا
بالدخول».

«ربما لا، لكن ألا يجب أن نحاول؟».

«اربطوا الأحزمة!» انطلقت صيحة أليكس بينما كان السائق يدور
بالسيارة في منتصف الطريق. وتعالى الهتاف والتهليل في العربة.
صاحت مسز ب. وهم يوشكون على كسر إشارة حمراء: «اضغط
على البنزين وليذهب حدّ السرعة إلى جهنم».

قالت فيرا وهم يدخلون موقف سيارات المجلس: «اسبقوني أنتم
وسوف ألحق بكم».

تقاطروا من التاكسي وأسرعوا نحو المبنى تحت المطر.
هتفت جون بالمرأة الجالسة خلف مكتب الاستقبال وهم يندفعون
من الباب: «أين اجتماع اللجنة؟».
ردّت المرأة: «في الغرفة الرئيسية، لكنه بدأ منذ مدة»، وكانوا يصعدون
الدرج جريًا.

عند اقترابهم من الغرفة لمحت جون عنصر أمن شابًا يقف بجوار
الباب. رفع الشاب عينيه في ارتياح وهو يراهم ينقضّون عليه من آخر
الردهة. قال عند وصولهم إلى الباب: «أنا آسف، لقد بدأ الاجتماع منذ
ساعة، تأخرتم كثيرًا على الدخول».

فقالت جون: «أرجوك، نحن في أمس الحاجة إلى الدخول».
«أخشى أن القواعد تمنع هذا».

«أرجوك يا سيدي؟»، قالها جاكسون بأشد نبرات صوته براءة.

فهز الحارس رأسه. لا يمكن أن تزيد سنّه على الثامنة عشرة. «أنا آسف، ليس بيدي شيء».

فقالت شانتال: «ماذا لو ناولناك عشرين جنيهاً في السرّ؟».

تقدّمت مسز ب. لقراءة اسمه على الشارة. «اسمعي يا سيد سام تكرر. سأبلغ عنك بتهمة عرقلة حقوقي الديمقراطية».

«أنا أقوم بعملتي فقط لا غير». ثم تراجع وقال: «والآن لو سمحتم، أرجو أن تبتعدوا عن الباب حتى لا تخلّوا بنظام الاجتماع».

فاستداروا جميعاً وبدأوا الارتداد بطول الردهة.

قال أليكس: «حسنًا، لقد حاولنا على الأقل».

هزّت مسز ب. رأسها. «لا أصدق أننا اقتربنا حتى هنا».

«انتظروا». ودارت جون عائدة إلى الحارس. «هل قلت إن اسمك سام تكرر؟».

فأوما برأسه مجيباً.

«لعله احتمال بعيد، لكن هل أنت من أقارب جيم تكرر؟».

قال سام وعلى وجهه أمارات الحيرة: «كان جدي».

قالت مسز ب.: «من يكون جيم تكرر بحق الجحيم؟».

سألت جون الحارس: «سام، هل كان جدك يأخذك إلى مكتبة تشالكوت في طفولتك؟».

وهنا بدا الرعب على الشاب. «نعم، لماذا؟».

«ربما تستغرب كلامي، لكن هل تذكر متى بدأ يقرأ لك القصص؟».

فاتسعت عينا سام. «لقد تعلم القراءة وأنا في التاسعة. ما هو الموضوع بالضبط؟».

«اسمي جون، وأنا مساعدة شؤون المكتبة في تشالكوت التي علّمت جدك القراءة».

فأضاء وجه الشاب. «أنت جون جونز؟». فأومأت بالإيجاب وضحك هو. «أنت بطلّة عندنا في العائلة. كان جدي يتكلّم عنك طوال الوقت، كان مهووسًا بك».

فبادلته جون الابتسامة. «جداً بذل جهداً كبيراً حتى يتعلّم القراءة من أجلك أنت وأختك».

«لن تصدق أمي حين أخبرها بأنني قابلتك! أما زلت تعملين هناك؟». «نعم، لكن مكتبة تشالكوت تحت التهديد. في هذه اللحظة بالذات، وداخل هذه الغرفة، سيصوت المجلس على إغلاقها هي وخمس مكتبات أخريات».

فبدأ على سام الاستنكار. «لا يمكنهم هذا!». «ولهذا نريد الدخول. نريد أن نحاول منعهم من إغلاق المكتبة». «لكن إذا سمحت لكم بالدخول سيعرفون أنني المسؤول، وسأفقد وظيفتي».

«هل هناك طريقة أخرى للدخول؟ مدخل آخر؟». «فكر برهة. «هناك شرفة في الطابق العلوي، وهي مغلقة حالياً للتجديدات، أي إنها خالية».

منحته جون ابتسامة عريضة. «سام، أنت نجم النجوم. من شأن جدك أن يفخر بك».

احمر وجه الفتى. «اذهبوا من هذا الاتجاه، ثم اصعدوا الدرج وادخلوا من الباب الذي كتب عليه 'ممنوع الدخول'. الشرفة هي الباب الأحمر على اليمين».

أسرعوا جميعاً بعبور الردهة وصعدوا الدرج، وحين وصلوا إلى باب 'ممنوع الدخول' توقف أليكس. «لا يمكننا الدخول كلنا وإلا لفتنا الانتباه».

وثار نقاش سريع بين المجموعة قبل الاتفاق على دخول جون

ومسز برانزورث. فزحفت الاثنتان بطول الردهة حتى وصلتا إلى الباب الأحمر.

همست مسز ب.: «مستعدة؟»، فأومأت جون برأسها.

دفعت مسز ب. الباب بيدها وتسلفت الاثنتان إلى الداخل. كانت جون تسمع أصواتًا تأتي من أسفل.

«يمكننا التباحث طوال اليوم، لكن الأرقام تتحدّث عن نفسها». كان المتكلّم رجلاً يتحدّث بصوت عال وأخنّ. «انخفض معدل زيارات هذه المكتبة بمقدار خمسة عشر بالمئة عنه منذ خمس سنوات، وانخفضت الاستعارات بمقدار واحد وعشرين بالمئة في نفس الفترة، رغم الارتفاع الأخير. أعتقد أنها مرشحة مثالية للإغلاق».

نظرت جون في عين مسز ب. فرأت خوفها ينعكس منها. أتراهم يتكلّمون عن تشالكوت؟

ردّ عليه صوت نسائي: «لكن معدلات الزيارة والاستعارة انخفضت في كل مكتبات المقاطعة، بما فيها الأكبر حجمًا. وفي حالتنا فإن تكاليف المكتبة عن كل استعارة منخفضة جدًا مقارنة بغيرها. هذا علاوة على أن استجابة المجتمع المحلي تُظهر دعمًا جماهيريًا هائلًا للمكتبة».

تقدّمت جون زاحفة حتى حافة الشرفة، سعيًا وراء أية طريقة للنظر إلى مسرح النقاش تحتها، لكنها لم تر شيئًا.

قال الرجل الأول: «هناك عوامل أخرى جديرة بالاعتبار. وكما يبين تقرير الاستشاريين فإن هذه المكتبة تتطلّب تجديدات كبيرة ومكلفة على مدار العامين القادمين إذا كان لها أن تواصل العمل».

«لقد قاموا بجزء من هذا نيابة عنا»، قالها أحد الأصوات، فسرت في الغرفة همهمة ضحك.

همست مسز ب. وأنفاسها حارة على أذن جون: «إنهم يتكلّمون عنا».

تابع الرجل حديثه. « أقترح، بدلاً من إبقاء هذه المكتبة مفتوحة وتحمل تكلفة التجديدات، أن نغلقها وندرس الاستخدام الأمثل لمقرها. إنها أصل ثمين قد يفيد المجلس في هذه الفترة الصعبة ماليًا. »
قالت مسز ب.: «كوبا كوفي اللعينة»، فلكرتها جون حتى تخفض صوتها.

«شكرًا لعضو المجلس السيد بايك. هل هناك إضافة من أحد قبل التصويت؟». كانت المتكلمة سيدة يوحى صوتها بالمهابة. «السيد عضو المجلس دونيلي؟».

وهنا أحست جون بالدم يغض من وجهها. ريتشارد دونيلي.
«شكرًا، سيدتي الرئيسة. أريد التحدث عن الحوادث الأخيرة في هذه المكتبة، التي ذاع صيتها كما نعرف جميعًا، على المستويين المحلي والوطني».

أحست جون بشيء على يدها، فنظرت لترى مسز ب. تقبض على يدها بقوة.

«مع تقديرنا جميعًا لحرارة مشاعر المجتمعات المحلية تجاه هذه القضية، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن النشاط في تشالكوت شرعوا في ممارسات غير مشروعة، وأحدثوا في مقر المكتبة تلفيات جنائية».
فقاطعته رئيسة المجلس: «الانطباع الذي وصلني هو أنه لم يتم توجيه أي اتهامات جنائية، فهل وصلتني معلومات مضللة؟».

«إحم... كلا، معلومات سيادتك صحيحة. ومع ذلك فقد أدخلوا تعديلات لا يستهان بها على المكتبة من الداخل».
فقالت مسز ب.: «الكذاب الحقير، سأقتله».

«لكن ما يقلقني هو أننا إذا صوتنا بإبقاء المكتبة مفتوحة، فقد نوحى لهم بأن المجلس يخضع للضغط، أو حتى للابتزاز، جراء التصرفات الشبيهة باحتجاج تشالكوت. ما هي الرسالة التي نرسلها لبقية جماعات المصالح المحلية؟».

ردّ الصوت الأنثوي السابق: «هل تقول إن علينا إغلاق مكتبة تشالكوت... على سبيل العقاب لأنهم احتجوا؟». لم تكن جون تعرف من تكون، لكنها تمّت أن تصافحها.

قال ريتشارد: «كلا يا أليس، بالطبع لا، لكنني أعتقد فعلاً بأن علينا مراعاة المنظور الخاص بهذه القضية».

ردت رئيسة المجلس: «شكراً لعضو المجلس السيد دونيلي. والآن إذا كان الجميع قد أدلوا بكلماتهم، فعلينا أن نبدأ التصويت بشأن مكتبة تشالكوت».

كانت جون تسمع الدماء تندفع في أذنيها. لقد حانت لحظة الحقيقة، والمجلس يوشك أن يصوّت على مستقبل مكتبة أمها.

مكتبة ستانلي.

مكتبتها.

«انتظروا!!».

وقفت جون وانحدرت ببصرها إلى أرضية الغرفة، فرأت عشرات الوجوه تتطلع إليها، وأحست بموجة من الدوار. «هناك شيء يجب أن أقوله».

«كيف صعدتِ إلى هناك؟». كان رجل محمّر الوجه يشير إليها.

«أرسلوا الأمن إلى هناك فوراً».

قالت رئيسة المجلس: «أنا آسفة لكنك غير مدرجة على جدول المتكلمين».

«أرجوك. اسمي جون جونز وأنا مساعدة لشؤون المكتبة في تشالكوت».

ردّت السيدة الرئيسة: «إذا كان الأمر يتعلق بإيقافك عن العمل يا ميس جونز فقد قررنا إعادتك إلى عملك بالفعل».

«كلا، ليس هذا». وأحست جون برأسها يدور. ماذا تفعل بحق

الجحيم؟ إنه تصرّف مجنون من النوع الذي كانت أمها لتقوم به، لكنها لن تقدر أبدًا على التكلم أمام كل هؤلاء الناس. انمحي كل ما كان بذهنها، وأخذت تحدّق في السقف المقبب المذهب فوق رأسها، ثم أغمضت عينيها. لكنها تذكّرت كلمات مسز برانزورث أثناء الاعتصام. أنا لا أخاف أبدًا حين أناضل من أجل ما أعرف أنه حق. وتذكّرت أمها الواقفة على بوابة المدرسة، في مظاهرة من امرأة واحدة. وطافت في ذهنها صورة لستانلي، يتسم لها باطمئنان من خلف باب المكتبة، بينما تحاول الشرطة إخراجه بالقوة.

فتحت عينيها ونظرت إلى أعضاء المجلس أسفل منها.

«لقد حضرت اليوم جنازة صديقي، ستانلي فيليبس. إذا كان أي منكم قد زار مكتبة تشالكوت فلعلكم رأيتموه هناك. كان يرتدي البدلة كل يوم، ويقرأ الجريدة في مقعده المفضّل. كان رجلًا صموتًا، مهذبًا، لا يلفت الأنظار».

رأت جون أن ريتشارد دونيلي يحدجها بنظرات نارية، من عينيّن جاحظتين، فابتلعت ريقها.

«حينما هددتمونا بإغلاق المكتبة، شارك ستانلي في حملة إنقاذها، فحضر كل الاجتماعات وتطوّع لمنصب أمين خزانة المجموعة. وفي يوم من الأيام قرّر أن يعتصم في المكتبة».

«كان مناضلاً»، صاحت مسز ب. من عند قدمي جون.

«لقد حظيت بشرف صداقة ستانلي، ولهذا استطعت أن أفهم بعضًا من سرّ أهمية المكتبة عنده. المسألة هي أن ستانلي، رغم أناقة مظهره ودمائة أخلاقه، عانى كثيرًا في الماضي».

وهنا سمعت جون على البعد أصواتًا ترتفع. لا بد وأن سام في الطريق.

«لقد ارتكب ستانلي تصرفات كان يندم عليها أشد الندم، وخسر

أشخاصًا كان يحبهم. لكنه قال لي إنه وجد مكانًا يلجأ إليه، مهما ساءت الأمور ومهما ارتكب من أخطاء. مكانًا لا يُدان فيه من أحد، ويعامل باحترام وعطف. كان يصف المكتبة بأنها شبكة أمان ممدودة تحته على الدوام».

قال ريتشارد دونيلي: «أين الأمن بحق الجحيم؟».

«لقد ساعدني ستانلي على أن أدرك شيئًا لا يقدّر بثمان. وهو أن المكتبات لا تتعلق بالكتب فحسب. بل هي أماكن يتسنى فيها لطفل في الثامنة أن يفتح عينيه على عجائب الدنيا، ويتسنى فيها لرجل وحيد في الثمانين أن يحصل على قدر من التواصل الإنساني. ويتسنى لمراهقة أن تجد مساحة هادئة تنجز فيها فروضها المنزلية، ولمهاجرة حديثة الوصول أن تتعرف على مجتمعها الجديد. المكتبات أماكن تتيح للجميع، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، ومن أي منطقة في العالم، أن يشعروا بالأمن، وأن يتوصلوا إلى المعلومات التي تعينهم على الحياة».

سمعت جون بابا يفتح خلفها، وصوت أقدام تدخل.

«قد تستطيع المكتبة المتنقلة توفير الكتب، لكنها لن تكون أبدًا بمثابة القلب من مجتمعها المحلي. ولهذا فإنني أرجوكم، عند التصويت بشأن هذه المكتبات الست، أن تفكروا في ستانلي وأمثاله. ربما لا تدركون هذا الآن، لكن كل واحد منا سيعاني، إذا حُرمتنا من المكتبات».

ساد صمت ذاهل، وأحسّت جون بيد تلمس ذراعها، فاستدارت لتجد سام يقف بجوارها، ومن خلفه رجلان يلهثان.

قال لها سام: «أنا آسف، لكن عليك مغادرة المكان».

أعادت جون النظر إلى الطابق السفلي. كان الجميع لا يزالون يحملقون فيها. ثم وقعت عيناها على امرأة داكنة الشعر، رفعت لها إبهامها بحركة تشجيع سرّية. شعرت جون بأن سام يشدها من ذراعها، فاستدارت وتركته يقتادها بعيدًا.

الفصل الثالث والثلاثون

«في صحة ستانلي!».

كانوا في 'المحراث'، يأكلون من البوفيه الذي أعدّه صاحب المكان عند وصولهم.

قالت فيرا الجون وهي تحمل كأس الشيري بيد وفطيرة لحم بالأخرى: «أنا مبهورة بتجروئك على إلقاء تلك الخطبة. ليتني رأيت وجه المدعو دونيلي - لا بد وأنه كان يستشيط غيظًا».

فقالت جون: «لست متأكدة من أنه سيحدث فارقًا، لكنني سعيدة بالتكلم. لقد أضعت عمري في الخوف من التكلم».

قالت مسز ب. وهي تربّت على ظهر جون: «كنت خرافية».

وقال أليكس: «فيرا أيضًا كانت خرافية».

فابتسمت فيرا ابتسامة عريضة. «قلت لهم إنني في الثمانين ووزني يتجاوز المئة كيلو، ولن يمرّوا بغير مقاومة. فما كان من الولد، عنصر الأمن، المدعو سام، إلّا أن غمز لي، وقال لأعضاء المجلس إنه لا يستطيع التعامل بخشونة مع سيدة على المعاش».

قالت جون: «أحسنّت يا فيرا».

وقالت شانتال: «كم كان ستانلي ليسعد بوجوده معنا اليوم»، فران الصمت على الجميع.

ثم قال أليكس: «حسنًا، لقد حضر بروحه، بفضل خطبة جون».

وأومأت فيرا برأسها: «من المؤكّد أنهم لن يصوّتوا بإغلاق المكتبة بعد كل هذا؟».

ردّت جون: «سنعرف في القريب العاجل. أما الآن فدعونا نركّز في

الاحتفال بحياة ستانلي. أتذكرون كيف كان يحلّ الكلمات المتقاطعة بالقلم الرصاص ثم يمسحه حتى لا توبّخه مارجري؟». وضحك الجميع.

قال جاكسون: «كان يرشح لي الكتب للقراءة». وقالت شانتال: «كثيرًا ما كان يساعدني في المراجعة. لقد قضى ساعات يشرح لي الثورة الروسية».

وقالت مسز ب.: «نعم، لكنه لم يكن يدرك أبسط الأشياء عن كيفية تشغيل الحاسوب. مسكينة يا جون، لعلي سمعته يطلب منك تسجيل دخوله مئة مرة».

فابتسمت جون، لكنها كانت تفكر في كل تلك الرسائل الإلكترونية غير المرسلة.

«هل تذكرون المقابلة الصحافية التي أجراها في الاعتصام، وقال فيها إنه يستخدم حواسيب المكتبة في ركوب الأمواج؟». ثم أخرج أليكس هاتفه وسرعان ما شرعوا جميعًا في الضحك أثناء التفرج على مقطع الفيديو.

قالت شانتال: «انظروا، عدد المشاهدات أكثر من مئتي ألف. اتضح أن ستانلي من نجوم الإنترنت ونحن لا نعرف».

وتدفق المزيد من الشراب بينما استمرّ الجميع في تبادل حكاياتهم المفضلة عن ستانلي. بعد قليل انسَلَّت جون مبتعدة وخرجت للجلوس إلى منضدة بالخارج. كان المطر قد توقّف، وبدأت الشمس تظهر على استحياء من خلف غيوم أواخر سبتمبر. وكانت تحسّ بنفسها مستنفدة بعد كل ما حدث اليوم. لماذا لم ترد أخبار من المجلس حتى الآن؟ لقد مرّ ما يقرب من ساعتين على اعتذار سام وإخراجه لها من الغرفة. لا يمكن للاجتماع أن يمتد حتى الآن بالتأكيد؟

«أتمانعين في انضمامي إليك؟». رفعت جون عينيها لترى أليكس يقف على بعد خطوات. «طبعًا لا».

ازاحت جسدها قليلاً فجلس على الدكة المبتلة بجوارها.
ثم قال: «لقد أحسنتِ بإلقاء تلك الخطبة».

«كم كنت أحس بالبلاهة وأنا واقفة بالأعلى والجميع يحدّون بي من أسفل».

«لكنكِ فعلتها. أخذت المخاطرة وقمت بالشيء الذي كان يربك أكثر من غيره».

وصمت الاثنان برهة.

«جون، هناك شيء أريد مفاتحتك فيه».

ف نظرت إليه وكان وجهه يتّسم بالجدية. «ما المشكلة؟».

«لا توجد مشكلة. حسناً، لعله التوقيت.. توقيتتي، سيئ جداً».

«عم تتحدّث؟».

«هناك شيء كنت أحاول إخبارك به، ويجب أن أخبرك به الآن».

غاص قلب جون. «أرجوك، لا داعي لتقديم أية تفسيرات. أنا مقدّرة تماماً».

«لا أعتقد أنك تفهمين يا جون».

«لكنني أفهم، صدقني. أنا أعرف بأمر إيلي».

استدار برأسه فجأة ونظر إليها. «إيلي؟ كيف؟».

«كنت أعرف منذ شهور».

«من الذي أخبرك بأمرها؟ ستانلي؟».

«كلا، بل رأيت رسالة منها على هاتفك، وأعرف أنكما كنتما معاً

وأنت في لندن. لماذا لم تخبرني ببساطة بأن لك حبيبة؟».

«انتظري، إيلي هي...».

عاجلته جون بوجه ينقبض خجلاً: «أتراها تعرف أنني حاولت

تقبيلك؟ كم أنا آسفة على هذا يا أليكس، لم يكن تصرفاً لائقاً بالمرة.

كنت سكرانة، وارتكبت غلطة كبيرة».

مرت ثوانٍ من الصمت. «ماذا! غلطة؟».

«طبعًا. لأنني لا أنظر لك تلك النظرة. أقصد يعني أنك صديق، لكنني لا أميل إليك ولا شيء من هذا». واغتصبت جون ضحكة ثم تمتّ لو لم تضحك، إذ لم تكن مقنعة على الإطلاق.

نظرت إلى أليكس وهي تتوقّع أن تجد علي وجهه علامات الارتياح بعد خروج كل شيء إلى نور العلنية، لكنه بدلًا من هذا كان يحدّق في قدح البيرة، ويبدو كمن هُزم هزيمة ساحقة. حين عاود التكلم لم يكن ينظر إليها.

«جون، ما كنت أريد إبلاغك به هو أنني سأعود إلى لندن». شعرت كأن هناك من عاجلها بركلة كاراتهيه في صدرها، حبست أنفاسها.

«لقد تحسّنت حالة أبي ولم يعد بحاجة لمساعدتي في المطعم، ويجب أن أعود إلى عملي».

«طبعًا طبعًا»، قالت وهي تحاول الحفاظ على ثبات صوتها. «انتهت إجازة التفرّغ التي طلبتها، وسأبدأ العمل مجددًا يوم الاثنين، وبالتالي فإنني مسافر غدًا. آسف لمفاجأتك بهذا، لكنك غيّرت الموضوع حين حاولت إخبارك سابقًا».

«أنا سعيدة من أجلك يا أليكس. لا بدّ وأنك لا تطيق صبرًا حتى تسترد حياتك المعتادة».

أما جون فلم تكن تحتل النظر إليه، ولهذا مدّت بصرها عبر الطريق نحو المكتبة. كانت تعرف أن أليكس سيرحل في لحظة ما، لكنها لم تتوقّع أن يؤلمها الخبر كل هذا الألم. أغمضت عينيها وهي تجبر نفسها ألا تبكي أمامه.

وحين فتحتهما رأت شخصية تجري من أمام المكتبة، وفي يدها حقيبة كبيرة تتأرجح بجانبها.

«انتظر، أليست هذه مارجري؟». وقفت جون ولوّحت لها. «مارجري، مارجري! ستدخل الحانة».

هرعت جون إلى الداخل وتركت أليكس جالسًا إلى المنضدة، فوصلت إلى المجموعة بينما كانت مارجري تندفع من الباب. وتوقف الجميع عن الحديث.

سألها جون: «ما الخبر؟».

كانت مارجري محنية الظهر، تلهث من الجري.

قالت مسز ب: «انطقي بحق السماء».

فاعتدلت مارجري في وقفها. «انتهى الاجتماع لتوه، وأعلنوا عن

قرارهم».

«ألا وهو؟».

«سيغلقون المكتبات الست، بما فيها تشالكوت».

حملقت جون فيها. «ماذا؟».

«سيغلقونها خلال ثمانية أسابيع، وسنحصل بدلًا منها على مكتبة

متنقلة، تأتي مرة كل أسبوعين».

«لقد خسرنا»، قالتها شانتال.

«بعد اقتياد جون إلى الخارج ثار جدل كبير، وتناقشوا بشأن تشالكوت

لمدة نصف ساعة إضافية، لكنهم صوتوا في النهاية على الإغلاق بأغلبية

خمس وعشرين صوتًا في مقابل أربعة وعشرين».

قالت فيرا: «يا ربي».

«ليس هذا كل شيء، فقد قال المجلس في النهاية إنهم سيدخلون في

مباحثات مع القطاع الخاص على مقر مكتبة تشالكوت، بغرض بيع المكان

لسدّ جزء من العجز في الموازنة. يبدو أن كوبا كوفي ستفوز بالمبنى».

فأحست جون بشيء ينهار داخلها. «انتهى الأمر».

جلسوا جميعًا يحدّقون في بعضهم البعض. كان جاكسون يضع رأسه

بين يديه، والدموع تتثال على خدّي شانتال.

قالت مسز ب. بهدوء: «الحمد لله أن ستانلي لم يعيش حتى يرى

هذا».

الفصل الرابع والثلاثون

بعد شهرَين

عند وصول جون إلى المكتبة كانت عربة ميني باص تابعة للمجلس تقف بالخارج، ويستند إليها رجلان بزيّ العمل، ينفثان أنفاسهما بخارًا في برد نوفمبر. دخلت إلى المبنى فوجدت مارجري تصيح في الهاتف. «لكن هذه مسخرة، قلت لك بالأمس إننا لا نستغني عنها... لا تعينني حاجتهم إليها في نيوكاولي، ما زالت عندنا مكتبة نديرها هنا». وخبطت مارجري سماعة الهاتف بقوة.

فسألها جون: «ما حكايتهم هذه المرة؟».

«الحوامل الدوّارة. هل تصدّقين وقاحتهم؟ قلت لهذين المهرّجين الواقفين في الخارج إنهما إذا لمسا شيئًا في مكتبتني فأنا مستعدة للتعامل معهما بعنف، أقسم بالله».

«لكنهما يقومان بعملهما ليس إلّا يا مارجري».

«لكن أبوابنا مفتوحة حتى الخامسة من مساء الغد، فكيف أدير مكتبة في غياب نصف تجهيزاتي؟».

مضت جون إلى الخلف وعلّقت معطفها. لقد مرّ الأسبوع كلّه على هذا الحال. يوم الاثنين أخذوا الأريكة من قاعة الأطفال، فاخبتأت جون في الحمام حتى لا يرى أحد بكاءها، ويوم الثلاثاء جاءوا لأخذ العديد من حوامل الدوريات. في يوم الأربعاء عادوا يريدون عربة المرتجع، ووقفت جون ومارجري تتفرجان من النافذة على الرجلين وهما يحاولان تحميلها في مؤخرة الميني باص. لكن العربة كانت تتمتع برأيها

المستقل، فظلت تنحرف نحو الحانة، وتجعل الرجلين يطلقان اللعنات غيظًا. وكانت تلك أول مرة تضحك فيها جون منذ أسابيع. أعدت جون فنجائين من الشاي وخرجت بهما إلى مارجري. «لعلك تذكرين أنني سأستأذن عند الغداء اليوم؟».

«طبعًا». كانت مارجري لا تزال واقفة ترمق الرجلين بشرر نظراتها. مضت جون تشغل الحواسيب. كانت تحس بالذنب لترك مارجري وحدها في وجود كل هذه المهمات، لكنها لا تملك خيارًا آخر. كانت في سبيلها إلى إجراء مقابلة توظيف عصر اليوم، لأول مرة في حياتها. الوظيفة هي مساعدة لشؤون المكتبة في مقاطعة كنت. وقد ظلت جون تستعد للمقابلة طوال الأسبوع - سعيدة بوجود ما يلهيها عن الألم الذي تحسّه كلما فكرت في إغلاق المكتبة يوم غد.

نادتها مارجري: «إنها العاشرة، فهلا تفتحين الأبواب؟». سارت جون إلى الباب الأمامي وفتحته. كان جاكسون قد حلّ الآن محل ستانلي في دور أول الواصلين كل صباح، ففتحت الباب لتجده واقفًا على الدرجة الأمامية، ملفوفًا من البرد في معطف مبطن وكوفية صوف.

قال جاكسون وهو يمضي نحو المكتب: «صباح الخير». «صباح النور يا جاكسون. يوم قارس البرودة، أليس كذلك؟». نزع الولد حقيبة ظهره من على كتفه ورمّاها على الأرض بهبة مسموعة. ثم فتحها فأخرج منها اثني عشر كتابًا ورضها على المكتب. «أريد إعادة هذه لو سمحت».

«تحت أمرك. هل استمتعت بكتاب الحارس في حقل الشوفان؟ ما رأيك في هولدن كولفيلد؟».

«ممتاز، شكرًا». ومدّ جاكسون يده إلى جيب معطفه ليخرج شيئًا، وضعه فوق الكتب. «خذي هذا أيضًا».

نظرت جون فرأت أنه اشتراك جاكسون في المكتبة، مضعضعًا مثني الحواف من فرط الاستخدام، لدرجة انمحاء الكتابة من عليه. «لا داعي لإعادة الاشتراك - ستحتاجه للمكتبة المتنقلة». «شكرًا لكن لا أظنني سأحتاجه».

«ماذا تعني؟». حاولت جون استبعاد الفرع من صوتها. «سيظل بإمكانك أن تطلب الكتب، وستأتيك المكتبة المتنقلة بها كل أسبوعين». رد بهزة من كتفه: «لكنني غير متأكد من تحمسي لاستخدام المكتبة المتنقلة. شتان بين هذه وتلك، أليس كذلك؟».

«صحيح أنهما مختلفتان، ومع ذلك فإنك تستطيع...». «يحسن أن أمضي الآن. سنذهب لزيارة عمتي الكبرى بولين، المصابة بترقق العظام. أتعرفين أنه مرضٌ يُضعف العظام ويجعلها سهلة الكسر؟».

«صحيح؟».

«بحثت عنها هنا في الموسوعة»، قالها ثم استدار وخرج من الباب الأمامي.

راقبت جون انصرافه وعضّت على شفتها. كانت قد وعدت نفسها بآلا تبكي ثانية هذا الأسبوع، مهما حدث.

مرّ الصباح سريعًا. حين أوشك على إغلاق المكتبة، بدا الأمر وكأن أهل القرية جميعًا يريدون استخدامها، فلم تكد جون تستطيع استجابة طلبات الناس واستفساراتهم. في منتصف النهار كانت تعيد بعض الكتب لرؤفوها حين سمعت اسمها ينادى بصوت عالٍ من طرف القاعة. رفعت عينها لترى مسز برانزورث وشانتال تهرعان إليها. «أنت هنا!».

قالت جون: «مرحبًا بكما». رغم انزعاجها من نظرة أعينهما. سألتها مسز ب.: «ما موعد خروجك؟».

«الثانية عشرة والنصف، لماذا؟».

نظرت شانتال في ساعتها. «أي إن أمامنا نصف ساعة فقط، يجدر بنا أن نسرع».

«عم تتحدثان؟».

قالت مسز ب.: «ماذا ترتدين للمقابلة؟».

«إحم، ما أرتديه الآن». وأشارت جون إلى بنطلون الشغل والقميص الأبيض.

فقالت شانتال لمسز ب. وهي ترفع عينيها إلي السماء: «ألم أقل لك؟».

نقلت جون نظرها بينهما: «ماذا هنالك؟».

فقالت شانتال: «لا يمكنك الذهاب إلى مقابلة توظيف بهذا المنظر. سأنعم عليك بتجديد شامل مختصر، بينما تمنحك مسز ب. توجيهات اللحظة الأخيرة للمقابلة».

«فعلاً؟». لم تكن جون تدرك أنهما تعرفان بأمر مقابلتها اليوم أصلاً.

ردت مسز ب.: «أجل، فعلاً. والآن تعالي، فأمامنا مهمة شاقة».

ثم اقتادتاها إلى الحمام، وطوال العشرين دقيقة التالية تركت جون نفسها تحت رحمتها. فانقضت شانتال على وجهها وشعرها بتشكيلة من مختلف العدد والأدوات، وفي الوقت نفسه كانت مسز برانزورث تطلق عليها وابلًا لا يرحم من الأسئلة. عند انتهائهما كانت جون تشعر بالإرهاق - من قبل أن تبدأ المقابلة. ثم وقفت في مواجهتهما وهما تستعرضان مظهرها.

قالت شانتال: «لا بأس على الإطلاق».

وقالت مسز ب. وهي تومئ برأسها استحسانًا: «لقد أنجزنا المهمة

كما يجب، رغم شهادتي المجروحة. هيا إذاً، انظري إلى نفسك في المراة».

التفتت جون كي تواجه مرآة الحمام فنّدت عنها شهقة. كان زيتها المعتاد، البسيط الخالي من الزينة، قد حلّ محله فستان زاهي اللون منقوش بالزهور، مزوم من الوسط بحزام. أما شعرها فقد أطلق سراحه من الكعكة التقليدية، وتمكّنت شانتال من ترويض تشعثه، فصار الآن ينسدل على أحد كتفيها في مويجات بديعة. كما فقدت بشرتها شحوب الموتى المعهود، فتورّد خداهما، وتألّقت عيناها بالبريق.

«يا للعجب، إنني أبديو...».

«تبدين رائعة الجمال»، قالت مسز ب.

استدارت جون إليهما والدموع تخز عينيها.

فصاحت شانتال: «لا تبكي وإلا سألت الماسكارا!».

ابتسمت جون. «شكرًا جزيلاً لكما. لقد جعلتما مني امرأة مختلفة».

قالت مسز ب.: «كلا، لست امرأة مختلفة. أنت جون التي كنا نراها دائماً، لكنك الآن ترينها بنفسك».

فقالت جون وهي تضحك: «مسز برانزورث، هل أصبحت عاطفية؟».

«كلا، لست عاطفية ولا يحزنون، بل كنت فقط أعطيك بعض...».

نظرت شانتال إلى جون ورفعت حاجبيها. «لن تسكت الآن طوال ساعات. الأفضل أن تسرعي إلى مقابلتك. بالتوفيق!».

الفصل الخامس والثلاثون

«جزيل الشكر على حضورك يا جون، ستتصل بك».

صافحها الرجل مودّعًا، وفيما كانت تستدير لتخرج من الباب الأمامي، غمرتها موجة من الارتياح. كانت الأسئلة في غاية السهولة مقارنة باستجواب مسز ب. السابق، ورغم أن جون قد لا تملك الخبرة الكافية للعمل في مكتبة بهذا الحجم الكبير، إلا أنها اجتازت المقابلة على الأقل من دون أن تهين نفسها.

سارت إلى المحطة وركبت القطار وهي تُزاحم لدخول المقصورة في رحلة عودتها الطويلة. ومع انطلاق القطار مدّت جون يدها في حقيبتها وأخرجت كتابها، وهي تحدّق في صورة غلافه الأمامي. كانت صورة امرأة شاحبة البشرة من عهد الوصاية على العرش البريطاني في مطلع القرن التاسع عشر، بشعر ممّوج مشدود في كعكة، ترتدي ثوبًا أبيض بخصر مرفوع على الطراز الإمبراطوري الفرنسي، ملطّخًا بدماء قرمزية. أما وجهها فحيث كان ينبغي وجود الفم والذقن، كان الجلد مسلوخًا عنه للكشف عن أسنان مخيفة مغروسة في عظم الجمجمة. وعنوان الكتاب يقول كبرياء وهوى والموتى الأحياء.

كانت جون قد حجزت الكتاب من مكتبة فيفرينغ في الصيف، لكنه كان معارًا خارج المكتبة، ولم يُعدّ حتى نسيت كل شيء عنه، إلى أن فتحت صندوق الطرود الأخضر يوم أمس، فوجدت نسخة الكتاب وسط كومة من الكتب المحجوزة. وكان ردّ فعلها الأولي هو أن تعيده إلى مكانه مباشرة، لكن شيئًا ما منعها، فمدّت يدها وأخرجته. وها هي

الآن تقلّب صفحة الغلاف وتشرع في قراءة الافتتاحية. الحقيقة التي يعترف بها الجميع هي أن الميت الحي الحائز على منح، لا بد وأن يسعى إلى المزيد من الأمخاخ...

وكانت جون عند بلوغ محطة وتنن قد وصلت إلى المشهد الذي يدور في نذر فيلد، حين يلتهم الموتى الأحياء جميع الخدم في حفل بينغلي الراقص. فنزلت من القطار وأخذت الأوتوبيس إلى تشالكوت، ونزلت في شارع باراد. لكنّها بدلاً من الانعطاف يساراً إلى مكتب البريد، تابعت سيرها وأخذت الطريق التالي. كانت قد اعتادت أخذ هذا الطريق الأطول منذ بعض الوقت، واستبدلت بوجبتها الصينية الأسبوعية طبق أرز بالخضار تعده في البيت. كانت تقول لنفسها إن السبب هو احتياجها للطعام الصحي، لكنها في الحقيقة كانت تشعر بصدرها يوجعها كلما مرّت بجوار 'التنين الذهبي'. لقد ذهب أليكس، وذهب ستانلي، واعتباراً من الغد ستذهب المكتبة بدورها. بقدر ما كان يسوؤها الاعتراف، إلّا أنه لم يبق لها في تشالكوت إلا بيتاً مليئاً بالذكريات.

قطعت جون ممر الدخول وفتحت بابها الأخضر وخطت إلى داخل البيت.

ونادت القط: «آلان، لقد عدت»، وهي تخلع حذاءها وتعلّق معطفها. دلفت جون إلى غرفة المعيشة وأضاءت النور. كانت الغرفة تبدو تمامًا كما تركتها صباح اليوم، بل تمامًا كما ظلت تبدو كل يوم طوال السنوات الثماني الماضية. نفس الصور القديمة المعلقة على الحائط، يطل منها وجهها جون وبيفرلي الباسمين، وسط عشرات الإطارات. نفس التحف الخزفية على رف المدفأة، ونفس الكتب على الأرفف. دنت جون من الرفّ ومرت بيدها على صف الكتب. ثم وصلت إلى نسخة أمها من الحرب والسلام، فأخرجتها من الصف وهي تقلّب صفحاتها. كانت هناك علامة كتاب في المنتصف، منسية من آخر محاولاتها لقراءته

في بداية الصيف. كانت أمها تحب هذا الكتاب، لكن بقدر ما كان يسوء جون الاعتراف، كانت تعرف أنها لن تكمله قط.

ثم خطرت لها خاطرة وهي تعود إلى المطبخ. كانت تحتفظ على النضد بكومة من المنشورات الدعائية القديمة التي تأتيها من فتحة البريد في الباب، معظمها عن مطاعم ووجبات لن تطلبها أبداً. نبشت جون في الكومة ووجدت ما تبحث عنه، قطعة مكرمشة من الورق وردية اللون.

هل عندك كتب قديمة لم تعد تحتاجها؟
دار 'شجرة الكرز' للمتقاعدين في أمس
الحاجة إلى كتب قديمة لتسلية النزلاء.
نرحب بكل الأنواع والقوالب الأدبية.

كانت جون تعرف تلك الدار جيداً، إذ اعتادت هي أو مارجري الذهاب إليها مرة كل أسبوعين لتبديل كتب المكتبة التي استعارها النزلاء. كانت تشغل منزلاً جميلاً على الطراز الإدواردي، بنوافذ كبيرة وحديقة معتنى بها. ولطالما تبادلت أمها المزاح مع ليندا عن أنهما ستقضيان شيخوختهما هناك، في احتساء شراب الجين ومغازلة النزلاء الرجال. ثم إن بعض النزلاء قد شاركوا في الاعتصام، وقد علقت بذاكرة جون بصفة خاصة تلك المرأة ابنة الرابعة والتسعين التي رفّعت عنهم جميعاً بأغنيات فيرا لين.

عثرت على صندوق قديم من الكرتون تحت الحوض، فحملته إلى غرفة المعيشة. ثم التقطت الحرب والسلم، فأغمضت عينيها وهي ترفع الكتاب إلى أنفها، وتستنشق عبقة المترب الرطب. بقيت على هذا الحال برهة، ملتصقة بالكتاب، ثم وضعت في الصندوق من دون أن تنظر إليه. بعد هذه البداية الأولى، تسارع أداء جون وانتظم، إذ سيطرت عليها أمانة المكتبة التي بداخلها. سرعان ما امتلأ الصندوق، فصعدت إلى

الطابق العلوي ووجدت عدّة صناديق أخرى، فاضت بدورها بالكتب. وحين لم يعد عندها ما ترص الكتب بداخله، عمدت جون إلى صف الكتب على الأرض في صفوف عالية، مرتبة بحسب الجنس الأدبي.

وبعد ذلك انصبَّ اهتمامها على رف المدفأة. التقطت جون تمثال البنت القارئة وأدارته في يدها. وتذكرت أمها وهي تعود به إلى البيت من نصبة الفيل الأبيض، حين كانت جون في السابعة أو الثامنة. كانت يفرلي قد قالت: المسكينة، ليس هناك من يريد لها سوى. أعتقد بأنها تشبهك بعض الشيء يا جون يا حبيتي، فدعينا نمنحها حياة جديدة هنا. وضعت جون البنت على جنب، ثم التقطت نموذجًا خزفيًا لأوتوبيس لندن الأحمر وبدأت تلفه في ورقة من نسخة قديمة من صحيفة الغازيت. كان آلان بنيت يجلس على الصوفا، يرقبها بفضول لا يخلو من الانزعاج. فقالت له: «من أجل مهرجان الصيف القادم. يمكن لغيرنا أن يمنحهما بيتًا الآن».

عندما توقفت جون لشرب كوب من الماء فوجئت بأن الساعة تجاوزت العاشرة، وأنها ظلت تعمل لما يقرب من أربع ساعات. فاستعرضت الفوضى التي ضربت أطناها في غرفة المعيشة: كانت رصّات الكتب المخصّصة لدار 'شجرة الكرز'، ولفافات ورق الجرائد المخصّصة لنصبة الفيل الأبيض تغطي الأرض كلّها. لم يسبق للمكان أن شهد مثل هذه الفوضى، وفجأة شعرت جون بالإرهاق. لم تكن قد تناولت العشاء، فذهبت إلى المطبخ وصنعت لنفسها شطيرة جبن، وأخذت تقلب بريد اليوم وهي تأكل في سرود. كان هناك منشور دعائي من مطعم صيني في فيفرينغ، أضافته جون إلى كومة المنشورات وهي تشعر بالذنب. ثم وجدت تحته نسخة من الغازيت، وأوشكت أن تضعها جانبًا بغرض استخدامها في التغليف حين لفت أحد العناوين نظرها: كوبا كوفي تنسحب من صفقة المكتبة مع استدعاء الشرطة للتحقيق.

تحت العنوان كان يظهر اسم ريان ميتشيل، وصورة صغيرة لوجهه المبّقع بالحبوب.

انسحبت شركة المشروبات متعدّدة الجنسية، المالكة لسلسلة مقاهي كوبا كوفي من صفقة شراء مكتبة تشالكوت، فيما يواجه مجلس مقاطعة دنغشاير مزاعمَ بالفساد تحيط بالصفقة. بحسب تقريرنا السابق، توّصل تحقيق حصري لهذه الصحيفة إلى كشف حسابات مصرفية تثبت حصول براين سبنسر، العضو ببلدية تشالكوت، على مبالغ مالية من شركة لومبارت إنك. محوّل لحسابه الخاص. وذكر مصدر في المجلس طلب حجب اسمه، إن المبالغ التي تلقاها السيد سبنسر أتت في مقابل رشوة أعضاء المجلس لتأييد البيع. رفض السيد سبنسر التعليق عند تواصل الصحيفة معه. وقد قام مجلس دنغشاير في الشهر الماضي بفتح تحقيق داخلي، بعد حصوله على الأدلة، وتقول بعض المصادر الآن إن الشرطة استُدعيت للمشاركة في التحقيق. قال متحدّث باسم شركة لومبارت إنك، إن قرار الشركة بالانسحاب من شراء مبنى مكتبة تشالكوت غير متعلّق بتحقيق الشرطة الجاري. وقال المتحدث للصحيفة: «لقد وجدنا موقعًا أفضل في بلدة مولي، فقرّرنا افتتاح فرع كوبا كوفي هناك». وأكدت مديرة خدمات المكتبات بمجلس مقاطعة دنغشاير، السيدة سارا ثوايت، أن المكتبة ما زالت مرشّحة للإغلاق، وأن المجلس يبحث الآن عن مشتر جديد للمبنى في تشالكوت. «استند قرار إغلاق مكتبة تشالكوت بالكامل إلى نتائج تحليل أجراه مكتب استشاري مستقل، ولم يكن له أية صلة باعتبارات بيع المبنى إلى كوبا كوفي. ما زال إغلاق المكتبة مقرّرًا يوم التاسع عشر من نوفمبر بحسب الخطة».

ألقت جون بالصحيفة من يدها. في غمرة نشاطها هذا المساء لم تخطر المكتبة على بالها، لكن الواقع عاد بكل صخبه الآن. مع أن مثل

هذه التحقيقات كانت تظهر في الصحيفة كل أسبوع، فتطلق ألسنة القرية بالقليل والقال، إلا أنها لن تغير شيئاً. فعلى الرغم من كل ما بذلوه من جهود، ستغلق المكتبة أبوابها غداً.

تشاءت جون والنقطة آخر رسالة في يريدها، فكانت مظروفاً أبيض عادي الشكل عليه اسمها وعنوانها. فتحته فوجدت رسالة قصيرة مطبوعة.

عزيزتي ميس جونز،

أكتب إليك لإبلاغك بورود اسمك كوريثة وحيدة لبقية التركة، بموجب وصية

المرحوم السيد ستانلي وليم فيليبس. ومرفق طيه نسخة من البند المتعلق بالوصية، للعلم والاطلاع.

سأعاود الاتصال بك عند اكتمال حصر التركة وتمكّني من تسليمك نصيبك منها.

إ. دافيز

أعادت جون قراءة الخطاب عدة مرات، خشية أن تكون عيناها المرهقتان قد خدعتها. ماذا يمكن لـ «بقية التركة» أن تكون؟ لقد رأت المكان الذي عاش فيه ستانلي - وكان واضحاً أنه لا يملك شيئاً بخلاف المقطورة. إذا كانت هذه تركته فهذا كرم كبير منه، لكن بحق السماء ماذا يمكن لجون أن تفعل بها؟

الفصل السادس والثلاثون

في السادسة والنصف من صباح اليوم التالي شدّت جون معطفها والكوفية والحذاء المطاطي على جسمها، وغادرت البيت قبل أن تشرق الشمس. أخذت الطريق الطويل، متجنّبة المطعم الصيني، ودارت يمينًا إلى شارع باراد. لم يكن أي متجر قد فتح بعد، ودلائل الحياة قليلة، بضع سيارات تقلّ ركابًا غائمي الأعين فقط لا غير.

تباطأت خطوة جون عند مرورها على المكتبة. في خلال ساعات ستحضر مارجري لفتح الباب الأمامي للمرة الأخيرة. وبعد هذا بقليل سيتقاطر الرّواد المنتظمون: فيرا ويلي للبحث عن كتب الطبخ معًا، وعائلات تسعى إلى قاعة الأطفال، ومسز برانزورث للشكوى من آخر ما قرأت. أدارت جون ظهرها للمكتبة وسارت حتى الجسر ومنه إلى الرصيف المحاذي للنهر.

بعد ميل أو نحوه راجعت الخريطة على هاتفها للتأكد من الطريق، إلى أن وجدت البوابة وتسَلّقت من فوقها وانطلقت تعبر الغيطان. كان هناك درب ضيقة، أبلته آثار الأقدام المتكرّرة على مرّ السنين، وسألت جون نفسها إن كانت أقدام ستانلي هي التي شقّته في تراب الأرض. عند الطرف البعيد من الحقل عبرت حارة ضيقة، فواجهها سور معدني هائل يحجب الحقول من خلفه، وقد كتبت على جانبه عبارة 'ألكسندر للعقارات'. كانت الساعة مبكرة جدًّا على بدء أي عمل، فلم يكن هناك أحد في المكان، لكنها استطاعت في العتمة أن تبيّن آلات الحفر والتنقيب واقفة بجوار كابينة جاهزة. كانت أساسات بعض المنازل

الجديدة قد وضعت بالفعل. سارت جون بطول الحارة، متبّعة السور الكبير لمسافة خمسمئة متر أو نحوها، حتى انتهى السور ووصلت إلى أسيجة نباتية. فمرّت من ثغرة في أحدها وسارت بحذاء موقع البناء إلى داخل الأكمة الصغيرة على الطرف البعيد.

بعد اجتياز المساحة المشجرة، تنفّست جون الصعداء لرؤية المقطورة في مكانها، رغم أنها كانت تبدو أكثر تداعياً من ذي قبل. اقتربت منها فرأت نباتات متسلّقة على جانبها، وتجمعات من نبات شائك تبرز من حول العجلات. كان يتدلى فوق الباب بيت عنكبوت مكتمل التكوين، يلمع في نور أول الصباح.

هل تنوي حقاً أن تدخل؟ كانت الفكرة تبدو جيدة ليلة أمس، وبما أن المقطورة ملكها الآن فالأجدر بها أن تشرع في المهمة البغيضة، مهمّة تنظيفها وترتيبها. ومع ذلك فقد ظلّت جون تحوم عند الباب. هنا لفظ ستانلي أنفاسه الأخيرة، وظل جثمانه راقداً لما يقرب من ثمان وأربعين ساعة حتى اكتُشف. والله أعلم بحالة المكان الآن، بعد أن ظل خاوياً طوال شهرين. لوهلة ساورت جون رغبة في الابتعاد، لكنها أرغمت نفسها على إدارة مقبض الباب. هذه المقطورة هي المكان الذي اعتبره صديقها بيته، وأهداه إليها لسبب من الأسباب. استجمعت جون شجاعته وخطت إلى الداخل.

وكان أول ما صدمها هو الرائحة. كانت أسوأ من أي شيء تخيلته - نتن عفونة مميتة جعلت معدتها تنقلب. كانت الستائر مسدلة، والمقطورة في ظلام دامس، فأخرجت هاتفها من جيبها وأضاءت كشافه الصغير، ثم خطت خطوة إلى الأمام وقد حبست أنفاسها، فرأت بقايا ما لا بد وأنه كان وجبة ستانلي الأخيرة، قابعة في الحوض بعد أن تحولت الآن إلى كتلة عفنة نصف سائلة. مدت جون يدها إلى حقيبة ظهرها وأخرجت زوجاً من القفازات المطاطية، وكيس قمامة كانت أحضرته معها. ارتدت القفاز

وأغمضت عينيها ووضعت يدها في الحوض تغترف بها كتلة العفونة والطبق الذي يحملها، لتلقي بهما في الكيس. كما أخذت صفيحة كانت بجوار الحوض، مغطاة بطبقة كثيفة من فطر العفن، ووضعتها في الكيس بدورها قبل أن ترميه في الخارج.

ثم شدت جون الستارة وفتحت النافذتين الصغيرتين لتدخل نور الصباح والهواء النقي إلى المقطورة. الآن وقد تحسنت رؤيتها للمكان، وجدت أنه ظل كما تذكره. ها هو السرير المفرد الضيق على اليسار لا يزال مرتبًا بعناية، وبدلة ستانلي معلقة بجانبه، الجاكت مهندهم والبنطلون مطوي تحته. إلا أن رؤية قطع الملابس المعلقة بكل هذه العناية أصابت حلق جون بغصة، جعلتها تستدير بعيدًا عن السرير. كانت المنضدة الصغيرة مغطاة بأكوام من الأوراق، كما كانت في آخر زيارة لجون. فتعرفت فيها على المنشورات التي طبعوها أثناء الاعتصام، وما يبدو أنه محضر اجتماع من اجتماعات 'أصدقاء مكتبة تشالكوت'. بدأت جون تفرز الأوراق، متسائلة عما ستفعله بها، حين لمحت مظروفًا عند ركن المنضدة. فتناولت المظروف وكادت تسقطه من المفاجأة. كانت على المظروف خمس كلمات:

جون جونز، لعناية مكتبة تشالكوت.

بيدّين مرتعشتين، حملت جون المظروف إلى الخارج وجلست على عتبة المقطورة. فتحته فأخرجت ورقة واحدة رقيقة، مغطاة بكتابة دقيقة بخط اليد. كان التاريخ على رأس الورقة هو التاسع من سبتمبر، اليوم السابق على وفاة ستانلي.

عزيزتي جون،

أرجو أن يجدك هذا الخطاب بكل خير. إنني أتخيّل أنه قد يصدمك قليلًا، ولهذا أعذر لك صادقًا. لكنني أرجو أن لا

تعتبي على شيء كبيرٍ ضَعُفَ عقله، لأن هناك أمورًا مهمّة يجب أن أطلعك عليها وأنا ما أزال قادرًا. في بداية الصيف لم أكن في ما تسمونه، أنتم الشباب، «مكانًا جيدًا». إنني أعتز بقدرتي على عدم إظهار هذا لأحد: فقضاء فترة الطفولة في المدارس الداخلية الإنجليزية يكسب المرء قدرة ممتازة على إخفاء مشاعره. لكن الحقيقة أن عبء الذنب الذي أنوء به تجاه الماضي كان قد التهمني بالكامل تقريبًا. أضيفي إلى هذا التوتر الذي لا يستهان به، والذي أصابني جراء مشروع المطور العقاري اللعين، وستجدين أن أفكاري في المحصلة النهائية قد بلغت درجة اليأس. ثم جاء أصدقاؤنا في المجلس وأعلنوا عن نية إغلاق المكتبة، فتغيّر كل شيء. حكيت لك في حديث مطوّل عن سر تعلّقي بالمكتبات، لا تشالكوت وحدها، بل كل مكتبة في البلاد. لقد أنقذت المكتبات حياتي، بالمعنى الحرفي، مرّات أكثر من أن أحصيها، فشعرت بأن فرصتي قد حانت أخيرًا، لإنقاذ مكتبة على سبيل ردّ الجميل. إنني أكتب لك هذا الخطاب من دون أن أعرف النتيجة المنتظرة لمعركتنا، وأخشى أنني لن أعرف أبدًا. لكنني أعرف، بصرف النظر عن النتيجة، أننا قدّمنا لهذه المعركة أفضل ما عندنا. بيد أن التغير في حياتي لم يأتِ بفضل حملة المكتبة فحسب، يا جون يا عزيزتي. بل بفضلك أنت. أعرف أن وجهك سيحمرّ وأنت ستعترضين هنا، كما هي عادتك. لكن الصداقة التي غمرتني بها، وعدم مسارعتك إلى الإدانة حين أطلعتك على ماضيّ، وتفاؤلك بشأن مستقبلي، كل ذلك ساعدني على التحرّر من بعض الذنب الذي كن أنوء بحمله. لن أسامح نفسي أبدًا على معاملتي لزوجتي وابني، لكنك أتحت لي

أن أشعر ببعض البهجة -بل والأمل، لو تجرأت أن أقول-
 وامتناني لك على هذا أبدّي.
 والآن إلى أحداث الماضي القريب. لقد زرت محاميتي بالأمس
 للتوقيع على وصيتي الأخيرة. وأؤكد لك أن الأمر فاجأني بقدر
 ما سيفاجئك. لم أحظ قط بشيء ذي قيمة أتركه للورثة،
 وإذا شئت الحق فإنني لم أحظ قط بمن يمكن أن يرثني.
 ستسألين الآن: ما الذي تغير إذا؟ منذ فترة، ذكرت عرضاً أمام
 جورج تشن العزيز أنني أتعرض لضغوط من شركة التطوير
 العقاري، الطامعة في الأرض التي أركن عليها مقطورتني.
 فاقترح أن أتصل بابنه أليكس، وهو محام مؤهل كما تعلمين.
 وقام أليكس بدوره بتقديمي إلى إحدى معارفه، المحامية
 إليانور دافيز المتخصصة في عمليات الاستحواذ العدائي.
 لن أثقل عليك بالتفاصيل القانونية، لكن يبدو أن طول
 إقامتي على هذه الأرض قد منحني الحق في ادعاء ملكيتها.
 احتجت أنا وميس دافيز أكثر من عام لتخليص الأوراق بسبب
 البيروقراطية التي لا تنتهي، لكن وصلني قبل أيام قليلة خبر
 أنني الآن المالك المسجل لقطعة الأرض التي أعتبرها بيتي.
 لكن ويا للخسارة، لن يمتد بي العمر للتمتع بها. فبعد وقعتي
 منذ شهرين، وذهابي عقب هذا إلى قسم الحوادث والطوارئ
 بمستشفى ونتن، تم إبلاغي بوجود ورم مؤسف في دماغي.
 عرض عليّ الأطباء البارعون العاملون في هيئة الرعاية
 الصحية عددًا من الفحوص والنظم العلاجية، لكنها كانت
 تعني قضاء فترات طويلة في المستشفى، من دون أن تقدّم
 حلًا طويل الأجل. لهذا اخترت استغلال الوقت المتبقي لي
 في النضال من أجل مكتبتنا المحبوبة. إلا أن نوبات الصداع

ازدادت سوءًا في الأيام الأخيرة، وأخشى الآن أن النومة الأبدية تقترب سريعًا. ولهذا أكتب لك الآن، لأنني أستمّد في هذه الساعات الأخيرة شعورًا هائلًا بالرضى والارتياح من مجرد علمي بقدرتي على أن أترك لك شيئًا، يا صديقتي العزيزة. لقد كلّفت محاميتي بالمضي قدمًا في بيع هذه الأرض إلى شركة التطوير العقاري. لا أتوقّع أن يدفعوا الكثير في قطعة صغيرة من الأرض الجذباء، لكنني أتمنى أن تخرجني من البيع بقدر من المال. ولك أن تستخدميه بأية طريقة تروق لك. طلبي الوحيد هو أن تفكّري في استغلال المبلغ لمغادرة تشالكوت ورؤية شيء من العالم. رأيت ذات مرة صورة لمجمع الكلمنتيوم في براغ، الذي يتمتّع بمكتبة مهيبة على الطراز الباروكي. أو لا شك عندي في أنك ستعشقين قاعة الاطلاع الوردية بمكتبة نيويورك العامة. أيًا كان ما تختارين فعله بالمبلغ، فإنني أصلي حتى تعيشي حياتك من جديد، عزيزتي جون.

والآن دعيني أودّعك وأشكرك مرة أخرى على ما أظهرته لي من العطف والمودة.

صديقك، ستانلي.

رفعت جون عينيها من على الخطاب، فرمشت في ضوء الصباح الباكر. تذكّرت ستانلي وهو يدخل المكتبة قبل شهور، وعلى رأسه ضمادة صغيرة، وتطمينه لها أنه خدش صغير، وشكواه من الصداع بضع مرات. لكن أن يكون ورماً دماغيًا؟ من المؤكد أنه كان يمكن استئصاله جراحياً، أو على الأقل إطالة حياته قليلاً بالعلاج الكيميائي. ولماذا لم يخبرها بأمره خلال حواراتهما؟ جاءت فكرة علم ستانلي بأنه يوشك أن يموت، من دون أن يبلغ أحداً، فجعلت جون ترتعد.

مدّت بصرها إلى المرج المجاور، والندى يتلألأ على الحشائش العالية. كان المشهد ساكنًا وديعًا، بغير سيارات أو منغصات من العالم الخارجي، ولا صوت إلا صوت الطيور وحفيف الريح في الشجر. سيتبدّد هذا السكون قريبًا، حين تصل حفارات الشركة العقارية، فتكسوه بالخرسانة تمهيدًا لبناء الشناعة المعمارية التي يريدون بناءها. سيختفي أي أثر لوجود ستانلي هنا.

أحسّت جون بطنين في جيبها فأخرجت الهاتف المحمول، ورأت رقمًا مجهولًا يومض على الشاشة. ضغطت زر الرد ورفعت الهاتف إلى أذنها، وهي لا تزال محدّقة في المرج.

فسألها صوت رجل: «ألو، جون جونز معي؟».

«أنا معك».

«آسف على الاتصال في هذه الساعة المبكرة، أنا... اللعنة... انتظري، لقد أوقعت القهوة على كتاب. تبًا، ثانية واحدة...».

طراً دايفيد على بال جون، دايفيد الرجل القصير القامة المهموم الذي التقته بالأمس في مقابلة التوظيف. طوال المقابلة كان ملصق من ملصقات الأطفال عالقًا في شعره الذي دبّ فيه الشيب، فقضت جون المقابلة كلّها تتساءل إن كان يصح أن تلفت نظره.

«تمام، آسف على هذا. كنت أريد الانتهاء قبل أن تتصاعد الأمور هنا».

ها هي قادمة إذا، عبارات الرفض المهذّب المتوقّعة، شكرًا لكنك لست من نبحث عنه.

«تناقشت مع زملائي بالأمس واتفقنا جميعًا على أنك إضافة ممتازة للفريق. ولهذا يسرّني أن أعرض عليك وظيفة مساعدة لشؤون المكتبة بدوام كامل، للبدء في أسرع وقت ممكن».

رمشت جون بعينيها. «صحيح؟ يا للهول، هذا رائع، شكرًا جزيلًا لك».

«عظيم، سنرسل لك العقد والتفاصيل بالبريد الإلكتروني. إنني أتطلع إلى انضمامك إلينا».

أنهت جون المكالمة. كانت تسمع من خلفها أصوات الحفارات وهي تبدأ العمل، فيتهشم الصمت تحت عجيجها الميكانيكي. على بُعد ميلين سيبدأ أول زوار المكتبة في التوافد لإحياء يومها الأخير. وفي بيتها، كانت صناديق متعلقات أمها تنتظر من يأخذها. حقًا وصدقًا لم يعد هناك ما يستبقها في تشالكوت، لكن هذه الفكرة، لأول مرة في حياتها، لم تكن ترعبها تمامًا.

قامت جون واقفة وأغلقت باب المقطورة وبدأت طريق عودتها من بين الأشجار. وفي أثناء سيرها ألقت نظرة جديدة على خطاب ستانلي. مسحت الصفحة بعينيها ثم تمهلت عند سطر كانت قد عبرته سريعًا من قبل.

وقام أليكس بدوره بتقديمي إلى إحدى معارفه، المحامية إليانور دافيز.

وهنا سطعت فكرة في ذهن جون فوقفت في مكانها. أخرجت هاتفها وفتشت فيه حتى وجدت الرقم الذي تريده، ورد المطلوب بعد الرنة الثالثة.

«مرحبًا، أنا جون. أنت مشغول؟ يجب أن نتكلم».

الفصل السابع والثلاثون

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عند وصول جون إلى المكتبة. «أين كنتِ بحق الجحيم؟». سألتها مارجري، الواقفة عند مكتب الصادر، أو بالأحرى، الواقفة في مكان مكتب الصادر، الذي يحتوي الآن على مجرّد كرسي.

ردّت جون: «آسفة. حدث تطوّر مفاجئ». «هل تصدقين أنهم أخذوا الحواسيب والمكاتب؟ مثل الحدأة، تخطف وتجري!».

نظرت جون حولها. كانت كل المناضد قد أزيلت، وجيء بصناديق مرصوفة في الزوايا، تنتظر ملأها بالكتب، والرواد القلائل يقفون أمام الأرفف نصف الخاوية، على وجوههم علامات الحيرة.

قالت مارجري وهي تهز رأسها: «كان من اللائق أن ينتظروا على الأقل حتى الإغلاق في الخامسة».

اتجهت شانتال إليها. «مرحبا جون، لا أفنأ أفكر في أنني سأستيقظ لأجد أن هذا كله كان حلمًا رديئًا». «أعرف يا شانتال، أعرف».

قالت فيرا التي لحقت بهن من قسم كتب الطبخ: «لقد ذهبت مع ليلي إلى مكتبة وتنن صباح اليوم. مكان بائس، كبير وخالٍ من اللمسات الشخصية. كنا نبحث عن وصفات كعك لعيد ميلاد محمود». «صحيح؟».

«سيتم الخامسة عشرة في الأسبوع المقبل، وقد دعنتي ليلي إلى مشاركتهم الوجبة العائلية. فوعدها بأن أخبز له كعكة قوس قزح».

«هراء تام وليس له حلّ، هذا الكتاب». التفتت جون لتري مسز برانزورث قادمة من عند الباب، وفي يدها نسخة من هاري بوتر وحجر الفلاسفة. «مجرد مجموعة من أبناء الميسورين وبعض الألعاب السحرية. كلام فارغ. آه، مرحبًا يا جون. كيف سارت المقابلة؟»
«مرّت على خير، شكرًا. لقد عرضوا عليّ الوظيفة».
«قالت شانتال بابتسامة: «هذا خبر رائع. متى تبدئين؟»»
«قالوا إن خير البر عاجله».

وقالت مسز ب.: «يسعدني أن يسفر إغلاق المكتبة عن ميزة واحدة على الأقل. كان من شأن ستانلي أن يفرح لك».
«بمناسبة ستانلي، عندي بعض الأخبار». أحست جون بأعين الجميع عليها، فابتلعت ريقها. «لقد وجدت خطابًا منه صباح اليوم».
«خطاب من ستانلي؟». كان جاكسون قد ظهر آتيا من قاعة الأطفال.
«ماذا قال فيه؟»
«حسنًا، لقد ترك وصية».

فقالت مارجري: «وماذا يمكن أن يترك في وصيته؟ المسكين كان مشردًا».

«أخبرني ستانلي في خطابه بأنه تمكن من المطالبة بملكية الأرض التي كان يضع يده عليها، وقرر بيعها لشركة التطوير العقاري».
فقالت مسز ب.: «ولماذا يفعل شيئًا كهذا؟ كان يكره تلك الشركة، فقد جعلوا حياته جحيمًا».

«أما الخبر الثاني: ستانلي كان يعرف أنه مقبل على الموت».
قالت فيرا وهي ترسم علامة الصليب: «يا إله السموات. لقد اقشعر بدني».

«كان مصابًا بورم دماغي، لكنه رفض أي علاج. ولعله قرر بيع الأرض لعلمه بأنه لن يعيش».

قالت مسز ب. وهي تهز رأسها: «المسكين. لكن ما شأنك أنت بهذا كله؟».

أحسّت جون بخديّها يحمران. «حسنًا، لسبب من الأسباب، قرر ستانلي أن يترك ثمن الأرض لي».

ابتسمت مارجري لجون. «رائع، لقد كنت دائمًا نقطة ضعفه».

سألتها فيرا: «ماذا ستفعلين بالمبلغ؟».

وغمغمت شانتال: «لو كنت مكانك لغادرت هذه القرية بأقصى سرعة».

«ربما أفعل، لكن هناك فكرة أخرى خطرت لي».

وهنا أطلق هاتف جون صفيّرًا، ووجدت على الشاشة رسالة نصية من كلمتين. تم الأمر.

تساءلت مسز ب.: «ما الذي يجري هنا؟».

«إنها رسالة من أليكس».

«بحق السماء، لسنا بصدد حياتك العاطفية الآن. كنت تحكين لنا عن وصية ستانلي».

«الأمر متعلّق بستانلي فعلاً. لقد قال في خطابه إن أليكس قدّمه إلى محامية اسمها إيلانور. وقد اتصلت بأليكس صباح اليوم وعرفت منه أنها شريكته في السكن، المدعوة إيلي، وأنها تولّت ترتيبات وصية ستانلي وبيع أرضه».

فسألت مسز ب.: «طيب، وماذا بعد؟».

«قال أليكس إن ستانلي كان يتوقّع بين عشرة وعشرين ألف جنيه في مقابل الأرض، لكن اتضح أن شركة التطوير العقاري تتلّهف عليها، وقد عرضوا على إيلي ما يقرب من مئة ألف جنيه».

«من أجل قطعة أرض خربة؟ هذا جنون!».

«يبدو أنهم يريدون بناء مجمع سكني ترفيهي، والقطعة الخاصة

بستانلي هي مفتاح المشروع».

سألتها مارجري: «وهذا المبلغ كله لك؟». «ستخرج منه بعض المصاريف الإجبارية، لكن أليكس قال إنني سأحصل على معظمه».

فاتسعت عينا شانتال. «تخيلي كل ما يمكن أن تفعله بمبلغ كهذا». «لقد قرّرت أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً». ونظرت جون حولها، إلى المكتبة، ثم إلى المجموعة الواقعة أمامها. «أريد هذا المبنى». فحملت فيها خمسة وجوه مصدومة.

قالت مارجري: «ماذا؟».

«لقد فشلت صفقة البيع لشركة كوبا كوفي، والمجلس يبحث عن مشترٍ جديد، ولهذا فقد فاتحهم أليكس بشأن إعداد عقد إيجار. وهذا هو موضوع رسالته النصية».

سألها جاكسون: «لكن ماذا ستفعلين به؟ أقصد أنك لا تريدين العيش هنا، طبعاً؟».

ردّت جون: «كلا، بل أريد إبقاءه كمكتبة».

«هل فقدت عقلك تماماً؟». كانت مارجري تحدّق فيها. «يبدو أنك نسيت إن المجلس أغلق المكتبة. انظري إلى المكان»، وأشارت إلى القاعات نصف الخالية.

فقالت جون: «لقد عدت لتوي من مقابلة سارا ثوايت ورئيسة المجلس بشأن المكتبة».

«هل قرروا إنقاذها؟». وقبضت فيرا على ذراع جون. «أرجوك أن تقولوا إنهم غيروا رأيهم».

«أخشى أنهم لم يفعلوا. قرار الإغلاق نهائي - لن يتحمّلوا تكاليفها بعد اليوم».

فقالت مسز ب.: «الأوغاد».

«لكنهم وافقوا على النظر في طلب بإعادة افتتاحها كمكتبة أهلية».

يتعين على القرية أن تدبر التمويل اللازم لندير المكتبة بأنفسنا. لكن إذا أثبتنا قدرتنا على هذا فسوف يؤجر لنا المجلس مخزون الكتب والمعدات التكنولوجية، بحيث نبقي تابعين لخدمات المكتبات».

قالت شانتال: «إذا فسوف نظل نحظى بمكتبة حقيقية هنا في تشالكوت؟ سيكون هذا...».

«لحظة واحدة يا جماعة». ورفعت مسز برانزورث يدها لإسكاتهم جميعًا. «المكتبة الأهلية ليست مكتبة حقيقية. لن تكون فيها أمانة مكتبة أصلًا، مجرد متطوعين. والأهم أننا لسنا مضطرين لإدارة المكتبة بأنفسنا. هذا ما ندفع الضرائب من أجله، وعلى المجلس توفيره».

قالت جون: «أعرف هذا يا مسز ب.، وأتفق معك تمامًا. لكن المجلس لن يوفّر المطلوب. لن يعطونا سوى مكتبة متنقلة كل أسبوعين. وبالتالي، أنا أعرف أنها لن تكون مكتبة حقيقية كالتي كانت عندنا، لكن على الأقل سيظلّ بالقرية مكان يستعير منه الناس الكتب ويشعرون فيه بالأمان».

قالت مارجري: «وأنا مستعدة للمساعدة في الإدارة. لقد تقاعدت رسميًا اعتبارًا من اليوم، كما طردت زوجي الخسيس من البيت، أي، إن عندي من الوقت الكثير».

قالت مسز ب.: «لكنني كنت أظنك راغبة في الإغلاق؟ لم يسبق لك إبداء الاهتمام بإنقاذ المكتبة».

فنظرت مارجري إلى قدميها. «كنت بلهاء. الخوف من المجلس كان يمنعني من المشاركة، كما أنني صدّقت براين حين قال إنه يعمل من وراء الستار لإنقاذ المكتبة. وها هي فرصتي للتعويض عن أخطائي».

قالت فيرا: «وأنا أيضًا سأساعد. ربما أستطيع بيع الكعك لتدبير بعض المال؟».

وقال جاكسون: «وأنا سأكتب المزيد من القصائد من أجلنا».

ثم سألت مارجري جون: «والمجلس سيسمح لنا بهذا؟».

ردّت جون: «سيكون علينا التقدّم بعرض رسمي يوضح كيفية إدارة المكتبة وتمويلها. لكن سارا والرئيسة قالوا إنهما سيمهلانا فترة سماح مدتها ستة أشهر، وخلالها لن ينظر المجلس في أية عروض أخرى لشراء المبنى».

قالت مارجري: «ستكون مهمّة في غاية الصعوبة. وأنا لن أقبل في قررتي مكتبة دون المستوى. إذا كنا سنقوم بهذا فسوف نقوم به كما ينبغي».

تساءلت شانتال: «جون، أنت متأكدة من أن هذا ما تريدين فعله بالمبلغ؟ تخيلي ما يمكنك القيام به».

فقالت جون: «لكنها ليست نقودي أنا في الواقع، أليس كذلك؟ أظن أن ستانلي لو علم القيمة الحقيقية لأرضه لاستغلها لهذا الغرض. ما أراده أكثر من أي شيء آخر هو إنقاذ المكتبة، ولعله الآن يستطيع، على نحو ما».

قالت مسز ب. بوجه عابس: «ما زلت أرى أنك مجنونة. لكن معك حق، فنحن مدينون لستانلي بمحاولة إبقاء المكتبة مفتوحة».

قالت مارجري وهي تلتفت إلى جون: «وماذا ستفعلين أنت؟ أتتوين البقاء لمساعدتنا في إدارتها؟».

لم تسارع جون إلى الرد. كانت تفكر في الوظيفة المعروضة عليها، في مكتبة كبيرة بمعاش جيد. كما فكرت في بيتها المليء بمتعلقات أمها في صناديق. ولوهلة ومض وجه أليكس في ذهنها، لكن جون نحّته عنها. قالت مارجري: «أنت معنا أم لا؟».

الفصل الثامن والثلاثون

بعد سبعة أشهر

قطعت جون ممر بيتها الأمامي، ومن النافذة كانت ترى الستائر الحمراء القديمة وقد حال لونها من ضوء الشمس. كانت الحشائش تبرز من بين حجارة التبليط، فانحنت لانتزاع إحداها. لطالما حافظت أمها على جمال الحديقة الأمامية، فكانت تزرع زهور الجيرانيوم على حواف الممر، لكن جون غفلت عنها على مرّ السنين.

«أي خدمة؟»

كانت امرأة شابة تقف خلف جون، بحقيبة تسوّق في كل يد، وولد صغير أجعد الشعر يطل من بين ساقها.

«أنا هنا لزيارة ليندا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«بيتها هو الملاصق لهذا، رقم عشرة».

«شكرًا لك». ثم تمهّلت جون لوهلة. هل تخبرها من تكون؟ لقد تمت المراسلات كلها بوساطة المحامين، فلم يسبق لجون أن قابلت المرأة.

«هذا منزلي». كان الولد قد خرج من خلف أمه ووقف يحدّق في جون. لا بد وأنه في نحو الرابعة، أي في سنّها عند أول انتقالهم إلى هنا.

قالت جون: «إنه منزل جميل».

«وهذه غرفة نومي»، وأشار إلى النافذة الأمامية العلوية، غرفة جون القديمة. «جدرانها وردية اللون، لوني المفضل».

قالت أمه: «تعال يا داني، يجب أن ندخل لإعداد الغداء»، وأومأت

برأسها لجون وهي تقطع الممر نحو الباب الأمامي. لكن الولد لم يتحرك.

قال لها: «عندنا حديقة أيضًا. وعندي أرجوحة».

«أشياء رائعة فعلاً. أسمح لي بسؤال يا داني؟».

أوماً الولد برأسه بجديّة.

«هل تحب قراءة القصص؟».

«نعم. وأنا أقرأ بنفسي من الآن، رغم أنني لم أبدأ مدرسة الكبار بعد».

«هل أطلعك على سرّ؟». ونزلت جون إلى مستوى نظره. «في سندرة

المنزل، في آخر الخلفية، وراء خزان المياه، ستجد صندوقاً مليئاً بكتب

البنت الصغيرة الي كانت تعيش هنا».

فاتسعت عينا داني كأطباق الفناجين. «هل تمازحينني؟».

«كلا كلا، فهي أيضًا كانت تحب القراءة، وقد تركتها من أجل البنت

أو الولد الذي سيعيش هنا. أي إنها ملكك أنت الآن».

نادته أمه من الداخل. «هيا يا داني، أسرع».

سألها الولد: «ما نوع تلك الكتب؟».

ردت جون: «عليك أن تنتظر حتى تراها»، فابتسم لها الولد. «وداعًا يا

داني، لقد سررت بلقائك».

«وداعًا!»، وانطلق من جوارها إلى المنزل. سمعته جون يهتف:

«ماما، هناك كتب لي في ال...». ثم اصطفق الباب مغلقًا وعاد الهدوء.

عبرت جون ممر السيارة وهي تبتسم لنفسها، ودقّت جرس المنزل

رقم عشرة. فسمعت الرنين المألوف، وبعد لحظة فُتح الباب وظهرت

ليندا بكامل بهائها، في بدلة رياضية زمردية الخضرة، وظل جفون بنفس

اللون.

«جون!»، وشدتها ليندا إلى حضنها. «انظري إلى شعرك يا حبيبتني،

لقد صرت أشبه بالمشاهير».

تحسّست جون شعرها إذ لم تكن قد تعودت بعد على إحساسها به. كانت قد استجمعت شجاعتها وقصته منذ شهر، فصارت تصفقه الآن تصفيقة قصيرة مموجة، أقصر من أن تسمح باستجماعه في كعكة. عاجلتها ليندا: «لا تكوني كالغريبة، ادخلي»، وتبعها جون إلى المطبخ. «كيف كان عيد ميلادك؟».

«كان ممتعًا، شكرًا على السؤال. خرجت للعشاء مع كاتيا وبعض الأصدقاء من الشغل».

«وكيف حال رفيقة سكنك الخلافة؟». كانت ليندا قد قابلت كاتيا عند نزولها ضيفة على جون في مارس الماضي، فتألفت الاثنتان كأعز الأصدقاء، وأخذتا تسهران حتى الثانية صباحًا لشرب الجين، بينما تسرد ليندا على كاتيا كل الحكايات المحرّجة من طفولة جون. «إنها بخير».

«والوظيفة؟».

«الوظيفة ممتازة. المكتبة مزدحمة دائمًا وهناك عشرات الأنشطة المتاحة كل أسبوع. لكنني أشارك أكثر في أنشطة محو الأمية ونادي الكلمات المتقاطعة».

قالت ليندا: «جميل، جميل. انظري من الذي جاء لإلقاء التحية». وأومات برأسها ناحية الباب، فالتفت جون لترى آلان بنيت يتبخر من باب المطبخ.

«آلان!». نزلت جون على الأرض ومدّت يدًا خجولة نحو القط، فتمهل قليلًا، وظنت جون لوهلة أنه سيخمشها، لكنه أحنى رأسه وحك به يدها. همست له جون: «مرحبًا يا صديقي القديم»، وتحشرج صوتها في حلقها. «أنا أيضًا افتقدتك».

قالت ليندا: «فخامة اللورد اعتبر البيت بيته. اشتريت له سريرًا من أسرة الحيوانات الغالية حتى يظل في غرفة الاستقبال، لكنه يفضل النوم

فوق مناشفي في دولاب الغسيل. ويطير فرحاً عند مجيء جاكسون للعب عندي - يداعبه فيصعد فوق السحاب».

قالت جون وهي تداعب القط خلف أذنه: «واضح أنه سعيد هنا. لم أره قط بهذا الاسترخاء».

«والآن قبل أن أنسى، عندي شيء لك». تناولت ليندا مظروفاً من على حافة النافذة وأعطته لجون. «مئة وثمانية وعشرون جنيهاً من آخر معرض للمبيعات الخيرية، علاوة على المبلغ الذي أخذه مارتن من بيع منضدتك وكراسيك».

«شكراً جزيلاً يا ليندا».

«أنت متأكدة من رغبتك في التبرع بكل تحف أمك لنصبه الفيل الأبيض؟ لن يبدأ المهرجان قبل العطلة الأسبوعية القادمة، أي إن الوقت يتسع لتغيير رأيك».

«أنا متأكدة، فهذا ما كانت أمني لتريده».

«أحسن يا حبيبتي». مكتبة سر من قرأ

قبل رحيل جون كانت قد قضت ثلاثة أيام مع ليندا في إفراغ المنزل من محتوياته. بيع الأثاث على عدة مرات، وسُرت دار 'شجرة الكرز' بالحصول على كل الكتب. ولم تحتفظ جون لنفسها إلا بضعة صناديق. كانت ماتيلدا والمنزل الواقع على ناصية الدببة يقبعان الآن على رف الكتب بغرفة نومها الجديدة، بجوار البنت الخزفية قارئة الكتاب.

أعدت ليندا شطيرة لها ولجون ثم أخذها إلى الحديقة.

قالت جون، مبدية الإعجاب بمهرجان الزهور الملونة: «المنظر هنا بديع».

فقالت ليندا: «ليتك ترين ما صنعوه بحديثك القديمة في المنزل المجاور. لقد انتزعوا الحشائش كلها ونصبوا أرجوحة لابنهم الصغير. أسمع ضحكاته من خلف السور فأذكرك وأنت في سنه».

قالت جون: «قابلتها هو وأمه مقابلة سريعة. أناس طيبون على ما يبدو».

«إنهم عائلة جميلة».

أخذت جون قفصة من شطيرتها وتراجعت بظهرها على المقعد، تاركة الشمس تدفئ جلدها. كانت تتوجس من رؤية عائلة أخرى تعيش في بيتها وبيت أمها، فأجلت العودة إلى تشالكوت لهذا السبب بالذات. لكنها وجدت بعد المجيء أن الأمر ليس بذلك السوء.

قالت ليندا: «ستحضرين احتفال المكتبة إذا؟».

«أجل، أظن هذا. رغم أنني متوترة قليلاً من العودة إلى هناك - لا أدري ماذا أتوقع».

كانت جون قد تبادلت الرسائل الإلكترونية مع مسز ب. ومارجري في البداية، لكنها انقطعت بعد تسوية المسائل المتعلقة بتأجير المبنى، ولم تشأ جون إزعاجهما. ولم تسمع شيئاً من أخبار المكتبة طوال شهور، حتى الأسبوع الماضي حين تلقت دعوة لحضور الافتتاح الكبير عصر اليوم.

قالت ليندا: «أليس عندك أية أخبار أخرى؟ ماذا عن زميل العمل الذي تحدّثت عنه؟».

«خرجنا معاً مرّتين، لكنني لا أعتقد أنني أروق له». في الواقع، كان عدم الإعجاب من طرف جون، إذ كان ذهنها مشغولاً بشخص آخر، لكنها لا تريد الاعتراف بهذا أمام ليندا.

سألت ليندا: «لكنك مستقرّة في المكان الجديد، أليس كذلك؟ لأنني أقلق عليك».

ابتسمت جون: «احتجت بعض الوقت حتى أعتاد، لكنني اعتبره بيتي الآن».

«كم كان هذا ليسرّ أمك يا حبيبتي. كانت تريد لك دائماً أن تفرد جناحيك وتطيري خارج تشالكوت».

«أعرف هذا».

قالت ليندا وهي تمدّ يدها لتمسك بيد جون: «ولعلك تعرفين أن لك بيتًا هنا على الدوام. أنا وآلان بنيت عائلتك، فلا تنسي هذا أبدًا».

كان أول شخص تلمحه جون وهي تدخل من باب المكتبة الأمامي هو مسز برانزورث، التي كانت تقف خلف المكتب لخدمة أحد الزوار. ونظرت مسز ب. إلى الكتاب بتشكّك. «ماريان كيز؟ أنت واثقة من رغبتك في استعارة هذا الكتاب؟»، قرأت كتابًا لها ذات مرة وكان زبالة». فقالت المرأة وهي تشدّ الكتاب من يدها: «في الواقع أنا معجبة بها جدًّا».

«أنت وذوقك»، ورفعت مسز ب. حاجبيها، ثم لمحت جون. «مرحي مرحي، انظروا بمن أنت الريح».

قالت جون: «مرحبًا يا مسز ب. لا أصدق أنهم سمحوا لك بالتعامل مع الجمهور».

ضحكت مسز ب. ولكزت جون في كتفها. «تسرّني رؤيتك ثانية يا صديقتي. ما رأيك في المكان إذا؟».

استدارت جون تستطلع المكتبة وهي تحضّر نفسها لدفعة موجهة من الحنين. لكن التعرّف على ملامح القاعة الأصلية كان شبه مستحيل، بالقياس لحالتها في المرة الأخيرة. فقد حلّ محلّ أرفف الجدار الخلفي نضد عليه ماكينة قهوة، واحتلت موائد صغيرة مستديرة نصف مساحة الأرضية، مشغولة كلها بأناس يتبادلون الحديث. كانت فيرا تقف خلف النضد عند الصندوق، وبجوارها ليلي ترص قطع الكعك في طبق. انتقلت الحواسيب إلى الصدارة، وعاد مكتب مارجري إلى سابق عهده كخزانة للعهدّة، تقف بجوار بابها عربية مرتجع جديدة لامعة. وبدأت قاعة الأطفال كأنها خضعت للتجديدات بدورها، وكانت ترى جاكسون

بداخلها، يرتدي شارة تقول 'أمين مكتبة الأطفال المتطوع'. لكن أكثر ما لفت نظر جون هو الصورة الضخمة المؤطرة المعلقة على الحائط فوق الباب. كانت صورة من أيام الاعتصام، يظهر فيها ستانلي وجون ومسر برانزورث واقفين بالخارج، وفوق رؤوسهم لافتة كبيرة تقول 'أنقذوا مكتبة تشالكوت'. كانت أذرعهم تحيط ببعضهم البعض، وثغورهم مفترة عن ابتسامة عريضة للكاميرا. لكن رؤية ستانلي جلبت غصة إلى خلق جون.

ثم قالت: «كم يبدو المكان مختلفًا».

«كانت معركة مضيئة. كدنا ألا نجتمع التمويل اللازم، لكن مارجري نجحت في تأمين متبرّع ثري في اللحظة الأخيرة».

«أهي هنا؟».

«طبعًا، لا يمكنني التخلص منها ومن تشددها ولو أردت». أو مأت مسز ب. برأسها في اتجاه مخزن العهدة، ومع اقتراب جون بدأت تسمع صوت رئيسة عملها القديمة وهي توبخ شيخًا وقورًا.

«أنا عارفة يا دونالد أن ترتيب الكتب بحسب ألوانها يعطي منظرًا أجمل، لكن نظام ديوي العشري خضع للتجويد والضغط على مدار عقود، فصار نظام تصنيف في غاية الكفاءة. أرجوك أن تحاول استخدامه في المرة القادمة».

قالت جون: «مرحبًا يا مارجري».

فتمتت مارجري من بين أسنانها، مع انصراف المتطوع: «سأقتل واحدًا منهم من دون شك. كلهم يعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء، مما يدفعني للجنون. يا ربي، كم أفقدك».

وكانت جون متأكدة من أن هذه هي المرة الأولى التي تمتدحها مارجري فيها. «منظر المكتبة رائع».

شمخت مارجري بأنفها. «ستان بين أيامنا وهذا - فنحن عاجزون عن

تقديم نصف الفعاليات التي اعتدنا تقديمها - لكنني فخورة بما أنجزناه، وخاصة بالنظر لصعوبة الحصول على التمويل». «وما زلت تعملين هنا تطوعًا؟»

«في الواقع، أنا أحصل على راتب للعمل بدوام جزئي. وكل هذا بفضل متبرّعنا». «أي متبرّع؟»

«ألم تلتقي به بعد؟ ها هو هناك». وأشارت مارجري عبر القاعة إلى رجل يتكلّم مع شانتال. كان طويل القامة، يرتدي بدلة فخمة، وشعره الداكن قد تناثر فيه الشيب. رفع عينيه فلمح جون تنظر إليه، وعندها عبر القاعة المزدحمة بخطوات نشيطة. «أنت جون؟»

فأومأت بالإيجاب. كان في الرجل شيء مألوف، لكنها عجزت أن تذكر أين رآته من قبل.

قال لها بابتسامة دافئة: «كم أنا سعيد بمقابلتك». كان يتكلّم بلكنة طفيفة، بيد أن جون لم تستطع تحديد أصلها. «قالوا لي إنك لم تعودتي على علاقة بالمكتبة، فاعتقدت بأن فرصة اللقاء لن تسنح أبدًا».

كانت عيناه زرقاوين عميقتين، فأحست جون بوجهها يحمرّ تحت حدّة نظرتة. ثم إنه في الواقع شديد الوسامة. «أنا آسفة لكن من...».

«لو سمحتم جميعًا، برجاء الانتباه». لعلع صوت مسز برانزورث في أرجاء المكتبة. ثم تمهّلت في انتظار أن تصمت القاعة، واستدارت جون والرجل معًا للإصغاء.

«لمن لا يعرفني منكم، أنا رئيسة جمعية أصدقاء مكتبة تشالكوت. طوال الشهور السبعة الماضية كانت أص مك تش تخوض حربًا ضروسًا من أجل هذه المكتبة. والأوغاد العاملون في مجلس مقاطعة دنغشاير نغصوا علينا العيش في كل مرحلة من المراحل، حتى كدنا نفقد الأمل

عدّة مرات. ولهذا فإنه حدث رائع، أن نتمكن من الترحيب بكم في يوم افتتاح مكتبتنا الأهلية».

سرت في أنحاء القاعة صيحات تهليل.

«سأبقي حديثي موجزًا، لكن علينا أن نوجّه الشكر لبعض الأشخاص. وسأبدأ بزملائي في أص مك تش. جزيل الشكر لسانتال وجاكسون، اللذين حقنا المكان بجرة ضرورية من الشباب، وفيرا وليلى على إدارة المقهى. ونخصّ بالشكر مارجري: ربما نشأت بيننا خلافات على مرّ السنين، لكن الفضل في وجودنا هنا اليوم يرجع لخبرتك وجهدك الشاق». مدّت جون بصرها فرأت الخمسة المذكورين يقفون معًا، بابتسامة عريضة.

«أود أيضًا تقديم الشكر لمحاميتنا، إيلي دافيز، التي اشتغلت من دون مقابل لمساعدتنا في الجانب القانوني. أنا أكره المحامين كقاعدة عامة، لكن إيلي من المحامين الطيبين». وأومات جون برأسها إلى امرأة شقراء جميلة، فأحست جون بقلبها ينبض. هذه إذا زميلة أليكس في السكن. كانا قد تبادلا الرسائل الإلكترونية بشأن وصية ستانلي وعقد الإيجار، لكن جون لم ترها من قبل. كانت بارعة الجمال.

تساءلت مسز ب.: «أين جون؟».

فرفعت جون يدها نصف رفعة في الهواء حتى لمحتها مسز برانزورث.

«ولا شك أن أي شخص من مستخدمي المكتبة القدامى سيتذكر جون، التي كانت من الخجل بحيث لا تخيف قطه. لكن ما يجهله الكثيرون هو أن جون كانت من أشرس المدافعين عن هذا المكان، من لحظة البداية. كنت أنغص عليها طوال الوقت، لكن لولاها لكنا نقف اليوم في مقهى ملعون من سلسلة كوبا كوفي. وإذا يا جون، أنا أعرف أن عندك بيتًا جديدًا وحياة جديدة، لكنك ستظلين دائمًا الصديقة الصدوقة لمكتبة تشالكوت. شكرًا لك».

فابتسمت جون وقد غلبتها مشاعرها فمنعتها من النطق.

«هناك شخص آخر يستحق شكرنا، وهو المتبرع الكريم، الذي التزم بالمساهمة في تكاليف تشغيل المكتبة في المستقبل. لقد أنقذنا عندما اتضح أن جهودنا في جمع التبرعات لن تكفي».

نظرت جون بجانب عينها فرأت الرجل الوسيم يتسم، وفجأة أحسّت بقلبها يكاد يقف. العينان الزرقاوان اللامعتان. الفرجة الطفيفة بين الأسنان.

تنحنت مسز ب. «سيداتي سادتي، شاركوني في تقديم الشكر العميق لأكبر داعميننا، ابن عزيزنا الراحل ستانلي.. السيد مارك فيليبس». انفجر الجميع في التصفيق الحار، لكن الذهول منع جون من التحرك. ابن ستانلي هنا في تشالكوت، يساعد المكتبة. كيف أمكن هذا؟ خمدت حرارة التصفيق مع تقدم مارك إلى الصدارة. «شكرًا على كلماتك الرقيقة يا مسز برانزورث. سألقي بكلمة سريعة، بعد إذنك؟». فصمتت القاعة وانتظرت كلمته التالية. واحتاج مارك لحظة ليتمالك نفسه.

«كما يعرف البعض منكم، كانت علاقتي بأبي مقطوعة طوال سنوات، وهو ما سأظل دائمًا أندم عليه». كان صوت مارك خفيضًا، ترهف جون السمع حتى تلتقطه. «حين علمت بوفاة ستانلي في العام الماضي، كان خطاب الشخص الذي أخبرني يحتوي أيضًا على بيانات النفاذ إلى حساب بريده الإلكتروني. وقد استغربت هذا، لكنني حين ولجت إلى الحساب اكتشفت مائتين وثمانين عشرة رسالة، كلّها موجهة إليّ. من دون إرسال واحدة منها».

قال شخص ما: «يا ربي، كل تلك الساعات التي كان ستانلي يقضيها أمام الحواسيب...». لكن مارجري أسكتته. «كانت رسائله الإلكترونية غير عادية: خفيفة الظل، صريحة، موجهة

للقلب. وفي كثير منها حكى لي عن حبه لمكتبة تشالكوت، وعن معركة إنقاذها من الإغلاق. كان يكتب بشغف لا يوصف عن هذا المكان وسر أهميته عنده، فأعاد لي الكثير من الذكريات. لأن أبي، مهما بلغت أحواله من التدهور، كان يأخذني إلى مكتبتنا المحلية. كان يعشق قراءة القصص لي، الدب ويني وروالد دال، وكان يقلّد كل الأصوات. اعتقد بأنها كانت أسعد أوقاتنا معاً.

ثم تردّد مارك، وراقبته جون وهو يغالب عواطفه. «مما لفت نظري في رسائله الإلكترونية، طريقته في الكتابة عن شخصيّة معيّنة، الشخصية التي ظلّت دائماً تُظهر له المودّة والعطف، والتي كانت صديقة حقيقية له من قبل تعرض المكتبة للخطر». نظر مارك إلى يديه برهة، والجزع مرسوم على وجهه. وحين رفع بصره كانت عيناه على جون.

«جون، لن أسامح نفسي أبداً على عدم الاتصال بأبي وهو حيّ، خاصة الآن وقد عرفت ظروفه المعيشية. لكنني أستمّد عزاءً كبيراً من علمي بأنك، في سنوات حياته الأخيرة، كنت تهتمين به وتبدين له الصداقة بلا شروط. كان يحبك وكأنك ابنته».

أحسّت جون بالدموع تترقق في عينيها، لكنها لم تحاول مسحها. «إن كل ما كتبه ستانلي عنك يذكرني بأن الكتب لا تصنع المكتبات، بل يصنعها البشر العاملون في المكتبات. ولهذا، على الرغم من عدم وجود أبي معنا كي يرى، فإنني أريد لتركته أن تتمثل في وجود أمينة مكتبة دائمة، براتب ثابت، هنا في تشالكوت، أريد وجود شخص يساعد الناس كما ساعدته جون».

ثم توقّف عن الكلام فانفجرت القاعة في تصفيق هادر. وانضمت إليهم جون، مبتسمة لمارك وهي تصفّق، ولهذا فقد احتاجت لحظة كي تدرك أن التهليل والتصفيق إنما هو لها.

انقضت بقية النهار في حالة من النشاط. تحدّث جون مع مارك بين النيذ والضحكات، بينما استدركت ما فاتها من أخبار زوار المكتبة. كانت قد قضت وقتًا طويلًا تحاول ألا تفكر في مكتبة تشالكوت وفي ستانلي، فأبهجها أن تقسم معهم الحكايات والذكريات السعيدة، من دون أن تشعر بلذعة الألم المألوفة.

قالت ليلي وهي تناول جون قطعة من البقلاوة: «أنا وفيراندير المقهى هنا».

وقالت فيرا: «كل أرباحنا تدخل في تكاليف تشغيل المكتبة. ولم أكن أبدًا بكل هذا الانشغال». ثم التفتت لخدم أحد الزبائن، بابتسامة على وجهها.

وقالت شانتال: «سأبدأ الجامعة في سبتمبر. ساعدتني مارجري في ملء نماذج التنسيق. سأدرس لنيل شهادة في العمل الاجتماعي». ردّت جون وهي تحضنها: «أوه يا شانتال، كم أنا سعيدة».

ثم أتت مسز ب. وشدّت جون في طريقها إلى الباب، وهي تقول: «تعال، هناك مصوّر من الغازيت يريد التقاط صورة جماعية». في الخارج كان أصدقاء مكتبة تشالكوت قد تجمّعوا أمام المكتبة تحت أنظار حشد من المتفرجين.

«هذه هي المجموعة كلها؟». كان المصوّر قد رفع الكاميرا إلى وجهه.

فقالت فيرا: «ما زلت أرى أنه كان علينا دعوة روكي». وقال المصور: «تمام، ابتسامة عريضة من الجميع!». فهتفت مسز ب: «تسقط حكومة المحافظين!».

وقالت مارجري: «بحق السماء يا مسز برانزورث، ألن تهدأي أبدًا؟». «أبدًا، بل سأسافر شمالًا مع ماري غدًا للاحتجاج، على مجلس آخر يحاول إغلاق مكتباته».

تساءلت جون: «ماري؟».

فهمست فيرا الجون: «مسز ب. تقضي الكثير من الوقت مع تلك المرأة من معهد دورنلي النسوي. أعتقد بأنها واحدة من أولئك المثل...».

لكن جون لم تسمع بقية ما قالته فيرا، لأنها لمحت في تلك اللحظة شخصاً يقف في مؤخرة الزحام. لم تكن جون قد رأت أليكس منذ يوم جنازة ستانلي، قبل تسعة أشهر، فأثار مرآه الاضطراب في معدتها. ثم وقعت عيناه على عينيها فابتسم، واتجهت هي إليه.

«أهلاً بالغريبة»، قالها حين وصلت إليه. «كيف حالك؟ يعجبني شعرك».

فقالت له جون: «اسمع، عندي عتب عليك».

نظر إليها أليكس منزعاً: «ما الذي فعلته؟».

«لقد انتهيت أخيراً من قراءة كبرياء وهوى والموتى الأحياء، منذ بعض الوقت، وعندي تحفظات كبيرة على حبكة الرواية».

افتّر ثغر أليكس عن ابتسامة. «عم تتحدثين؟ إنه كتاب مذهل، وأفضل بكثير من الأصل الممل الذي كتبه جين أوستن».

ضحك الاثنان، وأحست جون بقلبها يرفرف.

قال أليكس: «ألا يبدو المكان رائعاً؟ ثم إن إيلي أخبرتني بوجود ابن ستانلي. لا بدّ وأن الموقف غريب عليك».

«هذا الأمر كله سوربالي تماماً بالنسبة لي».

«سمعت أنك لم تعودى تعملين هنا؟».

«كلا، لقد تركت تشالكوت، وأعمل الآن في مكتبة في كنت».

«رائع، رائع»، قال أليكس ثم قطب جبينه. «لماذا لم تردّي على رسائلني النصية؟».

«أنا آسفة، كنت أنوي الرد لكن...». وانقطع حبل كلام جون لأنها لم تدر ماذا تقول. كنت محرجة لأنني افترضت أن إيلي حبيبتك فجعلت

من نفسي أضحوكة؟ اعتقدت بأنك لن تريد أي علاقة معي بعد عودتك إلى حياتك القديمة؟ أخذت جون نفساً عميقاً. «هناك شيء أريد إخبارك به».

«ما هو؟».

«أثناء الاعتصام قال لي ستانلي أن أتعلم انتهاز الفرص وإلا انتهى بي الأمر حزينة وحيدة، بحياة مليئة بالندم».

فرغ أليكس حاجبه. «الحق أنه كان في غاية القسوة معك».

«أعتقد بأنه كان يعرف بوجود شيء أريده، رغم أنني لم أدرك أنني أريده».

«ومع ذلك، ألا ترين بعض القسوة في إخبار شخص بأنه سيعيش حزيناً ووحيداً؟ أقصد يعني، ألم يكن هو أولى...».

فنهدت جون؛ لم يكن الحديث يسير كما تخيلته، فاضطرت لمقاطعته. «أليكس، أنت تغفل عن جوهر المسألة هنا. لقد كان يتكلم عنك».

وعندها راقبت وجهه يتغير من الاستنكار إلى المفاجأة. احمرت وجنتاه وبدا لأول مرة وكأنه لا يعرف ماذا يقول.

وقالت جون لملء الصمت: «لقد حاولت 'انتهاز الفرصة' في مرة سابقة، بعد حفل الزفاف. لكن النتيجة... حسناً، أنت أدري بما حدث وقتذاك. كانت كارثة».

فبدا على أليكس الخجل. «أنا آسف، لكنني لم أكن أتوقع منك تقبيلي. ثم إنك كنت سكرانة، ولم أشأ استغلال حالتك».

«لا داعي للاعتذار، كنت في حالة سيئة. ثم شعرت بالذنب لأنني اعتقدت أن لك حبيبة».

«حاولت إبلاغك بأن إيلي شريكتي في السكن فقط».

«أعرف هذا الآن، وأنا آسفة».

قال أليكس: «كلا، بل أنا الأسف. ليتني أخبرتك وقتها بحقيقة ما تفعله إيلي لمساعدة ستانلي على تأمين أرضه، لكنه انتزع منا وعدًا بعدم إخبار مخلوق. كنت أحسّ بالذنب لإخفاء السرّ عنك». «لا عليك، أنا مقدّرة. وما فعلته من أجله مذهل».

«هل تسمحين بسؤال؟». ثم تمهّل أليكس، وكانت جون تراه يزن الاحتمالات في عقله.

«بعد جنازة ستانلي قلت لي إنك نادمة على تقبيلي، وأنها كانت غلطة. هل كنت تعنين هذا؟».

فحان دور جون كي تجفل. «كنت أظنك غير مهتم بي. ولم أكن قادرة على مواجهة المزيد من الرفض». «أوه. لقد اعتقدت أنك كنت تعنينها».

«كلا، على العكس تمامًا فأنا...». وتلعثمت جون. انتهاز الفرص شيء رائع وكل شيء، لكن ماذا لو كانت قد أساءت الفهم؟ ستهين نفسها أمام الجميع وأمام أليكس و... ثم أوقفت جون نفسها ونظرت في عينيّه. «كنت منجذبة إليك منذ عودتك إلى تشالكوت يا أليكس، لكن الخوف منعني، لأسباب عديدة، من أن أتكلم. ولهذا أتساءل، هل تحب أن تخرج معي في مرّة من المرات؟».

لم يرد أليكس على الفور، فأحسّت جون بحرارة الخجل تغمرها. أرادت أن تغمض عينيّها فتغوص في الأرض، لكنها أرغمت نفسها على مواصلة النظر إليه. لم تكن قادرة على قراءة تعبيراته، وحين تحرك كتفاه ظنّت للحظة مرعبة أنه يوشك أن يستدير ويمضي عنها. لكنه اقترب منها، وشعرت جون بيديّه تمتدان إليها، ثم جاء وجهه قريبًا من وجهها، والتصقت شفتاه بشفتيّها. فأغمضت جون الآن عينيّها وهي تُقبل عليه بكل بدنّها. لوهلة ظل الاثنان في أسر القبلّة، فلم تع جون شيئًا إلا أليكس، شفتاه وإحساسها بقلبه المتسارع يدق بجوار قلبها.

«هلا تبحثان عن غرفة تواريكما؟».

عادت جون إلى الأرض على صوت مسز ب.، فانتزعت نفسها من حضن أليكس لترى الجميع يتسمون لهما.
قالت شانثال: «أخيرا! كنا قد تراهنا عليكما، أن مصير الواحد منكما للآخر».

فأحست جون بوجنتيها تتوهجان، ونظرت إلى أليكس الذي كان يبدو دائخا.

قالت مارجري وهي تخطو إليهم بسرعة: «لماذا يتحلّق الجميع هنا. عندنا مكتبة مزدحمة نديرها، بحق السماء». والتفتت إلى جون. «هل رأيت ما أعنيه؟ لا فائدة ترتجى منهم أبداً».
سألتها مسز ب.: «أنت متأكدة من أننا لا نستطيع إغراءك بالعودة إلى تشالكوت؟».

فنظرت جون حولها. كانت هناك سلال معلقة خارج المكتبة، ولون زهورها الأصفر فاقع على خلفية جدران الطوب الأحمر. أما المبنى المجاور فهو متجر القرية، الذي اشترت منه مئات من وجبات الميكروويف الجاهزة على مَرّ السنين. وعلى الجهة المقابلة الدكة التي اعتادت الجلوس عليها مع أمها في طفولتها، لتناول الدوناتس بالمربي في صباحات السبت.

«إنني أعشق تشالكوت، لكنني لن أعود. لقد بدأت حياة جديدة الآن وأنا سعيدة بها». ونظرت جون إلى أليكس، الذي ابتسم لها.
فقالت مارجري وهي تهز رأسها: «لا أصدق تخليك عنا من أجل مكتبة فخمة وكبيرة».

قالت جون: «في الواقع، عندي خبر سأعلن عنه».
«صحيح؟ ما هو؟».

نظر الجميع إلى جون فانتصبت قامتها قليلاً. «لطالما كنت أحلم

بدخول الجامعة، واحتراف الكتابة ذات يوم، لكنني تركت الحلم يذبل عند وفاة أمي. ثم أدركت أن الوقت قد حان للتوقف عن العيش في خوف، وأخذ بعض المخاطر. لقد التحقت بدورة جامعية مسائية، وعدت للكتابة من جديد».

قال أليكس: «أوه يا جون، هذا رائع. كان من شأن ستانلي أن يفخر بك، وأملك».

وقالت مسز ب: «أحرصني على إرسال نسخة من كتابك عند نشره. وكل أمني أن يكون أفضل من الهراء الذي عندنا هنا. هراء في هراء - عقلي يقول لي أن أرد الاشتراك إلى المكتبة على سبيل الاحتجاج». فنظرت جون إلى أليكس ورفعت عينها إلى السماء وهي تضحك. قال لها وهما يقطعان شارع باراد معاً، مبتعدين عن المكتبة: «أترك مشغولة الليلة، أم تحبين أن نتعشى معاً؟».

فقال جون وهي تأخذه في يدها: «فكرة جيدة. سمعت عن مكان ممتاز يجيد صنع اللحم الحار».

«وهو المطلوب بالضبط. والآن يا آنسة جون جونز، أريد منك تشغيل عقلك لترشيح بعض الكتب...».

مكتبة

t.me/soramnqraa

تتخلى جاين عن خوفها وخجلها وتشجع للدفاع عن مكتبتها العزيزة، ومن خلال مؤازرة مجموعة من داعمي المكتبة تكتشف جاين علاقات صداقة تغيّر مجرى حياتها..

موظفة المكتبة جاين جونز كبرت وترعرت لتصبح فتاة منعزلة وخجولة. فتاة بلغت الثلاثين من العمر لم تخرج لاكتشاف العالم، بل فضّلت تمضية وقتها مدفونة بين الكتب. ولكن عندما تتعرض مكتبتها الأثيرة لخطر الإغلاق تضطر جاين للخروج من وراء رفوف الكتب للدفاع عن قلب مجتمعتها والمكان الذي يضم أعزّ ذكرياتها عن أمها.



شهادة ممتعة عن قوة القراءة والمجتمع والمكتبة.

Book List
لكل محبّي الكتب والمكتبات وفكاهة وحرارة الأدب النسائي الذي يحمل رسالة مؤثرة ولمحة رومانسية، لا تفوّتوا فرصة قراءة هذه الرواية... إنها ممتعة إلى درجة أنه يمكن قراءتها كلها في جلسة واحدة.
Library Journal

رواية المكتبة الأخيرة لا تُقاوم... استعدوا وانغمسوا مع رواية فريا سامبسون الأسيرة عن بائعة كتب في مدينة صغيرة ولكن لديها قصة كبيرة ومميّزة.. ستستمتع كثيراً وستتفاجأ بنهايتها غير المتوقعة.

New York Times Best Selling Author Nancy Thayer

المؤلفة أبدعت لنا رواية جميلة، شخصياتها حية ويتشابك في قصتها الأبطال والأشرار، الحب والخسارة. رحلة ممتعة في اكتشاف التطور الشخصي والقوة الداخلية وأهمية العائلة والأصدقاء والحب.
Kirkus

فريا سامبسون، درست التاريخ في جامعة كامبريدج، تعمل منتجة منفذة في إعداد برامج تلفزيونية.

telegram @soramnqraa



daraltanweer.com

